

تاريخ الدفلة الفاطمية



الدكتور
إتياس حسني البهجي



بالعلم نرتقى
مركز الكتاب الأكاديمي

تاريخ الدولة الفاطمية

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(2016/4/1619)

956.0527

البهجي، ايناس حسني

تاريخ الدولة الفاطمية في شبه الجزيرة العربية/ ايناس حسني البهجي عمان:مركز الكتاب

الاكاديمي، 2016

(ص).

ر.إ.: 2016/4/1619

الواصفات: /الدولة الفاطمية//التاريخ الإسلامي

يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبر هذا المصنف عن رأي دائرة

المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى

الطبعة الأولى 2017

ISBN978-9957-35-204-2 (ردمك)

© Copyright

جميع الحقوق محفوظة: لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

All rights reserved. NO Part of this book may be reproduced, stored in retrieval system, or transmitted in any form or by any means, without prior permission in writing of the publisher.

مركز الكتاب الأكاديمي



عمان-وسط البلد-مجمع الفهيمس التجاري

ص . ب ، 11732 عمان (1061) الأردن

تلفاكس، +96264619511، موبایل، +962799048009

الموقع الإلكتروني: www.abcpub.net

A.B.Center@hotmail.com / info@abcpub.net

تاريخ الدولة الفاطمية

الدكتورة
إيناس حسني البهجي

مركز الكتاب الأكاديمي

الإهداء

إلى أسرتي الغالية

المقدمة

اختلفت المصادر التاريخية حول تحديد نسب الفاطميين، فمعظم المصادر الشيعة تؤكد صحة ما قال به مؤسس هذه السُلالة، الإمام عُبيد الله المهدي بالله، وهو أن الفاطميين يرجعون بنسبهم إلى مُحَمَّد بن إسماعيل بن جعفر الصادق، فهم بهذا علَوِيون، ومن سُلالة الرسول مُحَمَّد عبر ابنته فاطمة الزهراء ورابع الخلفاء الراشدين الإمام علي بن أبي طالب. بالمقابل، أنكرت مصادر أخرى هذا النسب وأرجعت أصل عُبيد الله المهدي إلى الفرس أو اليهود.

أسس الفاطميون مدينة المهديّة في ولاية إفريقية سنة 300هـ الموافقة لسنتي 912 - 913م، واتخذوها عاصمةً لدولتهم الناشئة، وفي سنة 336هـ الموافقة لسنة 948م، نقلوا مركز الحكم إلى مدينة المنصورة، ولمّا تمّ للفاطميين فتح مصر سنة 358هـ الموافقة لسنة 969م، أسسوا مدينة القاهرة شمال القسطنطينية وجعلوها عاصمتهم، فأصبحت مصر المركز الروحي والثقافي والسياسي للدولة، وبقيت كذلك حتى انهيارها.

أظهر عددٌ من الخلفاء الفاطميين تعصّبهم للمذهب الإسماعيلي، فعانى أتباع المذاهب والديانات الأخرى خلال عهدهم، وبالمقابل اشتهر غيرهم بتسامحه الشديد مع سائر المذاهب الإسلاميّة ومع غير المسلمين من اليهود والنصارى الأقباط واللاتين والشوام من روم وسُريان وموارنة، واشتهر الفاطميون أيضًا بقدرتهم على الاستفادة من كافّة المكونات البشريّة لدولتهم المنتمئة لتكتلاتٍ عنصريّة متنوّعة، فاستعانوا بالبربر والترّك والأحباش والأرمن في تسيير شؤون الدولة، إلى جانب المكوّن العنصري الرئيسي، أي العرب.

والدَوْلَةُ الْفَاطِمِيَّةُ أو الْخِلَافَةُ الْفَاطِمِيَّةُ أو الدَوْلَةُ الْعُبَيْدِيَّةُ هي إحدى دُولِ الْخِلَافَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، والوحيدَةُ بَيْنَ دُولِ الْخِلَافَةِ الَّتِي اتَّخَذَتْ مِنَ الْمَذْهَبِ الشَّيْعِيِّ (ضَمَنَ

فرعه الإسماعيلي) مذهبًا رسميًا لها. قامت هذه الدولة بعد أن نشط الدعاة الإسماعيليون في إذكاء الجذوة الحسينية ودعوة الناس إلى القتال باسم الإمام المهدي المنتظر، الذين تنبؤوا جميعًا بظهوره في القريب العاجل، وذلك خلال العهد العباسي فأصابوا بذلك نجاحًا في الأقاليم البعيدة عن مركز الحكم خصوصًا، بسبب مطاردة العباسيين لهم واضطهادهم في المشرق العربي، فانتقلوا إلى المغرب حيث تمكنوا من استقطاب الجماهير وسط قبيلة كتامة البربرية خصوصًا، وأعلنوا قيام الخلافة بعد حين. شملت الدولة الفاطمية مناطق وأقاليم واسعة في شمال أفريقيا والشرق الأوسط، فامتد نطاقها على طول الساحل المتوسطي من المغرب إلى مصر، ثم توسع الخلفاء الفاطميون أكثر فضموا إلى ممتلكاتهم جزيرة صقلية، والشام، والحجاز، فأضحت دولتهم أكبر دولة استقلت عن الدولة العباسية، والمنافس الرئيسي لها على زعامة الأراضي المقدسة وزعامة المسلمين.

الباب الأول

أصول الدولة الفاطمية

أثرت حول أصول الفاطميين عدّة قضايا مُعقّدة لم يصل الباحثون فيها إلى نتائج مُوحدة. فهذا اللقب، أي «الفاطميين» الذي عُرف به خُلفاء عُبيد الله المهدي، يَدُلُّ، للوهلة الأولى، على أنّهم من ذُرّيّة عليّ بن أبي طالب رابع الخُلفاء الراشدين وأوّل أئمة الشيعة، وفاطمة الزهراء بنت الرسول مُحَمَّد، فهم عَوّيون. على أنّ قِضية نسب الأسرة الفاطميّة، كان ولا يزال، موضوعاً لم يتفق المؤرخون، لا في الماضي ولا في الحاضر، على رأيٍ واحدٍ فيه، وذلك بفعل واقعين: الأوّل هو التباين السياسي والمذهبي الذي ساد بين المُسلمين بعد وفاة الرسول، والثاني هو امتناع الفاطميين، مُدّةً من الزمن، عن إعلان أنسابهم، بالإضافة إلى تعمدّهم إخفاء أسماء أمتهم من مُحَمَّد بن إسماعيل حتّى عُبيد الله المهدي في المُدّة التي اتخذوا فيها مبدأ ستر الإمام¹. وذهب كُلُّ مصدر مذهباً خاصّاً في تحديد اسم ونسب عُبيد الله المهدي قبل أن يكون مهديّاً، وبعد أن صار كذلك. فبعض المصادر تنفي عنه النسب العَلَوِي، وتعرّضه إلى الفُرس أو المَجوس، وتصفه أحياناً بأنّه ابن يهودي، وترجع في نسبه إلى ميمون القُدّاح فارسيّ الأصل. وهي وإن اختلفت في تحديد اسمه قبل استلامه رئاسة الدعوة الفاطميّة، إلا أنّها تتفق على أنّ اسمه بعد أن أصبح رئيساً للفاطميين هو عُبيد الله، وعلى هذا الأساس دعت هذه المصادر الدولة الفاطميّة باسم «الدولة العُبيديّة». وفي المُقابل تُؤكد مصادر أخرى، مُعظمها شيعيّة، صحّة نسب عُبيد الله المهدي، وتُرجعه إلى مُحَمَّد بن إسماعيل بن جعفر الصّادق

وفقاً لما ذكره المؤرّخ فلاديمير إيشانوف في بحثه عن تراث الإسماعيليّة المُتعلّق بظهور الفاطميين، فإنّ اسم الفاطميين هو الذي أُطلق على الإسماعيليّة في بداية الأمر. ويذكر الطبريّ أنّ بدو بني الأصبح في بادية الشّام، اتخذوا هذا الاسم تحت زعامة القُرْمطيّ الإسماعيليّ يحيى بن زكرويه. ويُمْكِن التماس أصول الحركة الفاطميّة التي أوصلت الفاطميين إلى السُلطة في إفريقية بزعامة عُبيد الله المهدي في أصول

العقائد الشيعية الإسماعيلية التي تُمثّل في الوقت نفسه أبعادًا سياسية وفلسفية ودينية واجتماعية، والتي يتوقّع مُعتنقوها ظهور المهدي المُنتظر من سلالة الرسول مُحَمَّد من خلال عليّ وفاطمة مُرورًا بفرع إسماعيل بن جعفر الصادق

والواضح أنّ إسماعيل بن جعفر الصادق الذي توفي في حياة أبيه، كان أوسع نشاطًا من إخوته، وأعظمهم تأثيرًا في بناء العمل السياسي للشيعه الإسماعيليين، واتبع مبدأ التقية، فعمل في خفاء تام، وأحسن اختيار دُعائه وبخاصة مُحَمَّد بن أبي زينب مقلد الأجدع الأسدي المعروف بأبي الخطاب²، الذي ادّعى أنّ الإمام جعفر الصادق جعله قِيَمًا ووصيًا على ابنه. ووضع إسماعيل مُساعدته أسس المذهب الإسماعيلي، وهو أول من تصوّر الإمامة الشيعية على أنّها سيادة العالم الإسلامي، أي أنّه حوّل الإمامة إلى معنى سياسيّ شبيه بالخلافة، ووضع الخِطط السريّة للوصول إلى الحُكم.

وضبط مُحَمَّد بن إسماعيل المذهب، ونظّم الدعوة في عهد الخلفاء العبّاسيين: أبو عبد الله مُحَمَّد المهدي، وأبو مُحَمَّد موسى الهادي، وبداية عهد هُرون الرشيد مُساعدة حُجّته ميمون القُدّاح الذي تقول عنه المصادر السُنية أنّه الديصاني ثنويّ المذهب، الذي أسلم أو أظهر الإسلام مدفوعًا بعاملين: سياسي يتمثّل بإعادة النفوذ إلى الفُرس عن طريق الشيعة، وديني يهدف إلى هدم الدين الإسلامي عن طريق الفلسفة الإغريقية، وانتسب إلى الدُعوة الإسماعيلية وأضحى من كبار الدُعاة. ويُرجع الإسماعيليّون نسبه إلى الصّحابيّ سلمان الفارسيّ.

وطوّر أسس المذهب، ووضع الخِطط التي أوصلت الفاطميين إلى الحُكم، ونظرًا لأنّه كان أحد تلامذة الفلسفة الإغريقية، فقد استغلّ التعاليم الأرسطاليسية والأفلاطونية لوضع التعاليم الإسلامية في قالبٍ جديد، وأسس حركةً سريّةً لإحاطة الأئمة بستارٍ كثيف.

ويدو أن الإقامة في المدينة المنورة أو عاصمة الخلافة، أو أي حاضرة من الحواضر المشرقية أوضحت مُستحيلة بعد حملة الاعتقالات التي نفذها الخليفة هرون الرشيد، فغادر مُحَمَّد بن إسماعيل إلى فرغانة ثم نيسابور حيث تزوج وأنجب ابنه عبدُ الله الرضي الذي تولّى الإمامة بعده، ونصب له حجبًا وأمرهم بأن يتسموا باسمه للتستر عليه.

وخلف ميمون القُدّاح بعد وفاته ابنه عبدُ الله، وكان حجّة للإمام عبدُ الله الرضي بن مُحَمَّد بن إسماعيل، فتابع عمل أبيه، واستطاع أن يجمع مُعظم الفرق العلوية المُتقسمة على نفسها في جبهة واحدة، وضمّ إلى جماعته كلّ العناصر السّاخطة على العبّاسيين ليُشكّل منهم جماعة تُخلص لإسماعيل بن جعفر، مدفوعًا بشعوبيّته الفارسيّة المُتطرّقة ضدّ العرب، ثمّ نقل مقرّ الدعوة والإمام عبدُ الله الرضي وابنه أحمد إلى مدينة الأحواز.

وعندما انتقل الإمام إلى بلدة سلمية في الشّام بين حمص وحماة في أواخر عهد الخليفة العبّاسي أبو جعفر عبدُ الله المأمون خشيّة من مُلاحقة العبّاسيين له، ظلّ حُجّته عبدُ الله القُدّاح يُقيم في الأحواز تسترًا عليه، ثمّ لحق به إلى سلمية التي أوضحت مركز الدعوة الإسماعيلية.

اشتهر لعبدُ الله القُدّاح ثلاثة أولاد، هم: أحمد والحسين وعليّ، اعتمد عليهم في نشر الدعوة الإسماعيلية. فجعل ابنه الحسين في سلمية مع الإمام الحسين بن أحمد لزيادة التستر عليه. وكان أحمد المُلقّب بأبي الشلعلع مسؤولًا عن الدعوة في العراق والأحواز، فأدعى أنّه من نسل عقيل بن أبي طالب لاستقطاب الشيعة، وكان قد أحكم النسب في البصرة.

واختصّ الابن الثالث عليّ بنشر الدعوة في خُراسان، ونهايته مجهولة. وعندما توفي الحسين بن عبدُ الله القُدّاح، عهد أبوه عبدُ الله إلى ابنه أحمد برئاسة الدعوة في سلمية بالإضافة إلى العراق، ثمّ انتقلت إليه رئاسة الدعوة بعد وفاة أبيه، وأصبح

وصيًا على ابن أخيه سعيد بن الحسين الذي تقلد منصب الحجّة أو نائب الإمام عقب وفاة عمّه أحمد، ولم يكن قد تجاوز العشرين من العمر، فأظهر إخلاصًا وتفانيًا للمذهب الإسماعيلي، ولذلك كان موضع ثقة الإمام المستور الذي قلّده إمامة الإسماعيلية استبداءً لا استقرارًا، واتخذ إسم عبد الله، وادّعى أنّه من السّلالة الشيعية، وأنّه المهدي، وهو عبيد الله أوّل الخلفاء الفاطميين في إفريقية.

وبهذا فإنّ المصادر سالفة الذكر تنسب الفاطميين إلى القُدّاحية، وهي مُستقاة من رواية أبي عبد الله مُحَمَّد بن عليّ بن رزّام الطائيّ الكوفيّ في ردّه على الإسماعيلية أواخر القرن الرابع الهجري، ونقلها ابن النديم في مؤلفه «الفهرست»، وأخذها عنه من جاء بعده من المؤرخين. أيضًا، هناك اعتراف من شخص عَلويّ عاش في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري، هو الشريف أبو الحسين مُحَمَّد بن عليّ بن الحسين المعروف بأخي مُحسن، ينفي فيه نسب الفاطميين إلى عليّ وفاطمة، ويذكر أنّ مذهب الإسماعيلية لم يكن سوى غش لعبد الله بن ميمون القُدّاح الذي استهدف، بفضل تعليم خفيّ تدريبيّ في سبع درجات، القضاء على الإسلام.

رأي المؤيدين لنسب الفاطميين إلى عليّ وفاطمة

يرى الإسماعيليّون وغيرهم من الباحثين أنّ الطعن الذي تمتلئ به كتب مخالفيهم من المذاهب الأخرى قد بُنيت بشكلٍ كبيرٍ على التنكيل وتعمد الاستناد إلى معلوماتٍ غير صحيحة. وهذا يحصل لأسبابٍ دينيّةٍ وسياسيّةٍ بسبب قيام الدولة الفاطمية وسيطرتها على أنحاء واسعة من الديار الإسلاميّة، وأيضًا بسبب السرّيّة الكبيرة التي تميّزت بها الحركة الإسماعيلية حيث أنّ دراسة الإسماعيلية كانت تنحصر بالمصادر والروايات التي أنتجها أعدائهم.

حسب المصادر الإسماعيلية فإنّ جعفر الصادق قد أعطى الإمامة إلى ابنه الأكبر إسماعيل الذي توفيّ سريعًا بعد ذلك، فانتقلت الخلافة بعده إلى ابنه مُحَمَّد. وبسبب قمع الدولة العباسيّة ومحاولتها الحثيثة لاغتياله، بدأ مُحَمَّد مرحلةً مهمّةً

وأساسيةً في تاريخ الإسماعيلية والمعروفة «بمرحلة الستر» حيثُ عمد إلى ترك المدينة المنورة وإخفاء هويته عن عامة الناس إلا عن قلة قليلة من الذين يثق بهم. ومن أهم هؤلاء ميمون القدّاح ثم ابنه من بعده عبدُ الله بن ميمون.

الذين عملوا بشكلٍ كبيرٍ على حماية مُحمّد بن إسماعيل وكانوا حلقة الوصل بينه وبين عددٍ كبيرٍ من الناس. يرفض المُستشرق المُختص بالدراسات الإسماعيلية فلاديمير إيفانوف الفكرة القائلة بأن ميمون القدّاح لم يكن مُسلمًا وإنما ديصاني يهدف إلى هدم الإسلام، فيقول إنَّ الفاطميين أخفوا أنسابهم وفروع ذوي قُرباهم خوفًا من أعدائهم، وأنَّ قصّة ميمون وولده هذا ليست إلا خُرافة وأسطورة. وقد ورد ذكر اسم ميمون القدّاح وابنه في كُتب الرجال الخاصة بالشيعة الإثنا عشرية لتصف ميمون بأنّه من أصحاب الإمامين الباقر والصّادق المُقرّنين، وتُثني عليه، ويظهر في تلك المصادر أنّه من مكّة (من بني مخزوم تحديدًا).

كما يذكر الذهبي وابن حجر اسم عبدِ الله بن ميمون القدّاح ويؤكد انتسابه إلى مكّة وبني مخزوم ويكتفي باعتباره «ضعيف». وفي خطاب المُعز لدين الله إلى داعي السند، ينفي فيه ما ادعاه مناوئيه برعاية الدولة العباسية من انتساب الخلفاء الفاطميين إلى ميمون القدّاح ويؤكد نسبه إلى عبدِ الله بن مُحمّد بن إسماعيل، ويُشير إلى أنّ عبدَ الله بن مُحمّد كان يُلقّب «عبدُ الله الميمون».

يُشيرُ بعضُ المؤرخين إلى أنّ العُموض والاختلاف والاضطراب يكتنف المصادر المؤيِّدة لنسب الفاطميين إلى عليّ والزهراء، وأنَّ تلك المصادر ليست واحدة دائمًا، إذ يوجد اختلاف في أسماء الأئمّة، من ذلك أنّ اسم والد عُبيد الله المهدي غير مُتفق عليه بين هذه المصادر. فثمة رواية واحدة تذكر أنّه ابنُ «أحمد» وليس ابنُ «الحُسين»، بل أنّ عُبيد الله المهدي يظهر أحيانًا بوصفه عليّ بن الحُسين. ففي الرسالة التي أرسلها عُبيد الله المهدي إلى اليمن وكشف فيها النقاب عن نسب الفاطميين وذكر أسماء الأئمّة المستورين، أظهر النسب الفاطمي بصورة مُغايرة لما قدّمه الثُرات

الإسماعيلي المتعلق بأنساب الفاطميين، فيذكر أنّ جدّه الأعلى هو عبدُ الله أخو إسماعيل الأكبر، وأنّ الإمام جعفر الصادق عُنِيَ عبدُ الله وليس إسماعيل وريثًا شرعيًا له، إذ أنّ جعفرًا خلف أربعة أولاد، هم: عبدُ الله وإسماعيل وموسى ومُحمّد، وأنّ صاحب الحق فيهم كان عبدُ الله، ولمّا أراد هؤلاء إظهار دعوة الحق خشوا من اضطهاد العبّاسيين، فتسمّوا بغير أسمائهم، فكانوا يحملون ألقابًا، وأحيانًا أسماء حركة تُخفي حقيقتهم، وأطلقوا على أنفسهم ألقاب: مُبارك وميمون وسعيد. فلقب ميمون الذي أطلق على أحد أولاد جعفر الصادق هو الذي قاد إلى هذا الخلط، وقد علّل الداعي المُطلق إدريس عمادُ الدين هذا الأمر بقوله: «وَكَانَ الدُّعَاءُ أَيَّامَ الأئِمَّةِ المُسْتَوْرِينِ مُنْذُ اسْتَبَارِ الإِمَامِ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْمَاعِيلَ، يُسَمُّونَهُمْ بِغَيْرِ أَسْمَائِهِمْ، وَيَخْتَلِفُونَ فِي الأَسْمَاءِ إِخْفَاءً لِأَمْرِ اللهِ، وَسَتْرًا لِأَوْلِيَائِهِ لِتَغْلِبِ الأَصْدَادِ، وَقُوَّةِ أَهْلِ العِتَادِ، لِذَلِكَ وَقَعَ الأَخْتِلَافُ فِي الأئِمَّةِ المُسْتَوْرِينِ، وَكَثُرَ حَوْضُ الحَايِضِينَ وَقَوْلُ القَائِلِينَ».

وبناءً عليه فإنّ تسلسل الأئمة يُصبح كالآتي: عبدُ الله بن جعفر الصادق، ثمّ عبدُ الله بن عبدُ الله، ثمّ أحمد بن عبدُ الله، ثمّ مُحمّد بن أحمد، وتسمّى كُلُّ واحدٍ من هؤلاء مُحمّد لأنّ المهدي سيكونُ مُحمّد بن إسماعيل، فكان كُلُّما قام فيهم إمام تسمّى بِمُحمّد باستثناء عبدُ الله بن جعفر، فقد تسمّى بإسماعيل، إلى أن يظهر صاحب الظهور الذي هو مُحمّد بن إسماعيل، فتزول التقيّة.

ويُشيرُ جعفر بن منصور اليميني الذي حفظ هذه الرُسالة، أنّ الإمام مُحمّد بن أحمد أوصى إلى ابن أخيه، وأعطاه باختيار الله، أمره كُلُّه، وتسمّى بسعيد بن الحسين، وصارت إليه الدعوة زمانًا، فلمّا آن وقت الظهور، أظهر مقامه، وأظهر اسم «عبيد الله»، وظهر معه كذلك أبو القاسم مُحمّد القائم بأمر الله.

ويتوافق نسب عبيد الله المهدي الذي أورثه في رسالته 3 مع ما جاء في بعض كُتب الأنساب والفرق، فيذكر العلامة عليّ بن حزم الأندلسي أنّ ولاة مصر قد ادّعوا

في أوّل أمرهم، إلى عبد الله بن جعفر بن مُحَمَّد، فلمّا صحَّ عندهم أنّ عبد الله لم يعقب إلا ابنةً واحدة اسمها فاطمة، تركوه وانتموا إلى إسماعيل بن جعفر بن مُحَمَّد.

ويذكر النوبختي والقمي أنّ عبد الله لم يُخلف أولادًا، ولكنّ الثاني يذكر في مكانٍ آخر أنّ عبد الله وُلد له ولدًا اسمه مُحَمَّد، وأنّه أرسله إلى جهة اليمن، وانتقل بعد وفاة والده إلى خُراسان، وأنّه الإمام بعد أبيه، وهو القائم بأمر الله.

ويذكر الداعي المطلق إدريس عماد الدين أنّ الإمام عبد الله الرضي بن مُحَمَّد بن إسماعيل استخلف أخاه الحُسين مكانه، وأمر أتباعه بطاعته، غير أنّ الحُسين قُتل في حياة أخيه، فعُهد إلى ابنه أحمد بالإمامة، وهو الإمام التقي أحمد بن عبد الله الذي رُزق بولدٍ سمّاه الحُسين، وهو الإمام الرزي ووالد المهدي. ولمّا شعر الإمام الحُسين بذنوّ أجله، عيّن أخاه مُحَمَّدًا الملقّب بسعيد الخير وصيًا على ابنه الإمام المهدي. وأراد سعيد الخير أن يجعل الإمامة في عقبه، ويحوّلها عن الإمام المهدي، لكنّه فشل في ذلك.

واستنادًا إلى كتاب التراتيب فإنّ أسماء الأئمة تختلف عن غيرها ممّا جاء في غالبية المصادر الإسماعيلية وغير الإسماعيلية، فذكر أنّ إسماعيل ستر على نفسه حجابًا يعظم الفترة وتعلّب الضد. وانتسب الإمام الحق بعد إسماعيل إلى ابن أخيه، وهو مُحَمَّد. ولمّا حضرته الوفاة، سلّم هذا الأمر إلى ولده الرضي، وهو أوّل الأئمة المستورين، فقام أحمد بالإمامة، وكان حاجبه الذي احتجب به، وسرته الذي ستره، والذي نصبه وأقامه مقامه، هو ميمون القُدّاح، وأمره الإمام أن يأخذ العهد لنفسه، أي ميمون سالف الذكر، ففعل ما أمره به الإمام، ولم يزل قائمًا بالأمر إلى أن توفي أحمد، فسلّم الإمامة إلى ابنه مُحَمَّد، وأمر عبد الله بن ميمون القُدّاح أن يقوم مقامه، ويأخذ العهد لنفسه كفعل أبيه، فلم يزل قائمًا بالأمر حتّى توفي مُحَمَّد، فسلّم الأمر إلى ابنه أحمد، فعين الأخير أخاه إمامًا مُستودعًا، على أن يقوم مقام ولده مُحَمَّد المهدي ويكون حاجبًا له، فقام المهدي بالإمامة، وقام عمّه بالخِلافة. وحاول هذا العمُّ أن يحوّل الإمامة إلى أولاده ففشل في ذلك.

وهناك أمرٌ آخر غير مؤكّد فيما يتعلّق بصلة القرابة بين عُبيد الله المهدي، وبين مُحَمَّد القائم بأمر الله الذي خلفه في الحُكم. فقد يكون القائم ليس إبنًا لعُبيد الله المهدي، مع أنّ الأخير كان يُعدّه إبنًا له من الناحية الرسميّة، وكان تصرّفه تجاهه عندما دخل رقّاده، يُشير إلى أنّه يُعدّه المهدي المنتظر، فقد عامله بتوقيرٍ شديدٍ، ورفع مقامه عن مقامه هو شخصيًّا.

ففي حين تُؤكّد كُتب الظاهر المُوجهة للعامة أنّ الخليفة الفاطميّ الثاني، أي القائم بأمر الله، هو ابن عُبيد الله المهدي، تنفي بعض النُصوص الباطنيّة المُوجهة للخاصّة والمُطلعين على الأسرار، بُنوّته إلى عُبيد الله المهدي، وتُنسب الأخير إلى أصلٍ غير علويّ بل ميمونيّ.

وعليه، كان دور عُبيد الله المهدي حمل الوديعة، أي الإمامة، ليردّها إلى مُحَمَّد القائم بن الحسين بن أحمد، وبالتالي يكون عُبيد الله المهدي الوحيد الذي لا ينتسب إلى عليّ بن أبي طالب. ويقول المؤرّخ برنارد لويس أنّ التناقض بين النسب الرسمي والنسب الذي يربط الفاطميين بميمون القُدّاح مرده وجود إمامتين ظهرتتا بعد وفاة الإمام إسماعيل بن جعفر الصّادق: الإمامة المُستقرّة والإمامة المُستودعة، فالمُستقرّة بدأت مع مُحَمَّد بن إسماعيل وتُفضي إلى القائم بأمر الله، وهي إمامة حقيقيّة في ذُرّيّة الحسين، أمّا المُستودعة فقد بدأت مع عبدُ الله بن ميمون القُدّاح وتُفضي إلى عُبيد الله المهدي، وهي إمامة بالوصاية في أعقاب عائلة القُدّاح. والإمام المُستقر هو المُؤهل لنقل الإمامة إلى ابنه الذي يحجّبه الإمام المُستودع إلى أن يأتي اليوم الذي يُسلمها فيه إليه.

وبناءً على ذلك، فإنّ عُبيد الله المهدي، الذي هو الإمام المُستودع، لم يكن سوى الوصيّ والأب الروحيّ لمُحمّد القائم بأمر الله، الذي هو الإمام المُستقر، وقد سلّمه عُبيدُ الله الإمامة المُستودعة لديه. فالحاكم الأوّل المكشوف والإمام الفاطميّ الشرعيّ وفق هذا التفسير هو مُحَمَّد القائم بأمر الله، أمّا عُبيد الله المهدي فهو مُستودعه، وينتمي إلى أسرة القُدّاح.

وقد نقض فلاديمير إيفانوف نظرية برنارد لويس، وقال أنّها وُضعت أيام الأئمة المكشوفين لتبرير انتقال الإمامة بالوراثة، وعلى هذا الأساس فإنّ الخلفاء الفاطميين بما في ذلك عبّيد الله المهدي، ينتمون إلى نسب علويٍّ صحيح

الباب الثاني
البدايات وقيام الدولة
الفكر والدعوة

داعية الباطنية في الشمال الإفريقي

أبو عبد الله الشيعي

وقع الاختيار على اليمن لكي تكون مركزاً لدعوة الشيعة الإسماعيلية لبعدها عن أنظار الدولة العباسية، ومن هناك بدؤوا في إعداد القوة العسكرية السرية التي هي عدتهم في المستقبل، وتسلم القيادة في اليمن رجل يدعى رستم بن حوشب الذي استطاع أن يستقطب بعض الفرس المعادين للمسلمين، إلا أن ابن حوشب رأى أن أرض المغرب خصبة للبذور الشيعية، فأرسل من اليمن رجلين من أنصاره هما «سفيان والحلواني» إلى طرابلس وتونس لنشر المذهب الشيعي، واستطاعا أن يتوغلا بأفكارهما في قبائل البرانس ذات القوة والشكيمة والعدة والعتاد، والتي تتطلع إلى إقامة دولة في المغرب على نهج الأدارسة في المغرب الأقصى، والأغالبة الذين عاصمتهم تونس.

ومن بين الذين اختارهم ابن حوشب في اليمن: أبو عبد الله الشيعي حسن بن أحمد بن محمد بن زكريا الشيعي من أهل صنعاء، وكان قد وقع اختيار ابن حوشب على هذا الرجل لما لمس فيه من صفات قيادية بارزة من علم وذكاء ومقدرة في التعامل مع الناس، ويعتبر أبو عبد الله الشيعي اليماني الصنعاني المؤسس الفعلي لدولة العبيديين الرافضية الإسماعيلية في المغرب، فأرسله ابن حوشب بعد موت الحلواني وأبي سفيان الداعيتين بالمغرب، وقال له: «إن أرض كتامة في بلاد المغرب قد حرثها الحلواني وسفيان، وقد ماتا، وليس لك غيرها فبادر فإنها موطأة ممهدة لك»⁽¹⁾.

وفي ما بين 288هـ إلى 289هـ وصل أبو عبد الله الشيعي الرجل الداهية المرازخ الماكر صاحب الحيل العجيبة إلى مكة، ويبحث عن وفود المغاربة التي جاءت

(1) انظر: موسوعة المغرب العربي (ج2/57) للدكتور عبد الفتاح الغنيمي.

لحج واستطاع أن يتعرف على حبيج كنامة، وتقرب إليهم بما أظهره لهم من زهد وفقه وعلم، وتمكن هذا الداعية من قلوب الشيوخ الكتامين، ورجع معهم موهبًا إياهم أنه يريد مصر لتعليم الأولاد القرآن، وعرضوا عليه الذهاب معهم إلى المغرب، فأظهر عدم الرغبة، ثم بسياسة الماكرة لبى طلبهم ونزل في القيروان لبحث عن مواطن الضعف في دولة الأغالبة، ويجمع المعلومات لمعرفة أقوى القبائل، وما هي الوسائل النافعة للدخول في بلاد المغرب، وبعد أن أيقن أن أقوى القبائل في المغرب هي الكنامية قرر الذهاب إلى بلدة تسمى «إيكجان» وهي بلدة في جبل وعر، وعرف أنها منازل قبيلة «سكتانة» التي هي بطن من بطون كنامة⁽¹⁾، ونهج في حياته نهج المعلم المؤدب الورع، وسلك سلوك الزهد والعفاف حتى تملك قلوبهم، واشتهر صيته، وأقبلت عليه القبائل البربرية وتصدى لتعليمهم وتفقيهم المذهب الشيعي، ثم دخل في الأمور السياسية ونظام الحكم ودور الإسلام في الحكم بالشورى، وفضل العلويين وأحقيتهم في الحكم.

وبسبب الظلم الذي مارسه دولة الأغالبة على الناس استجابت بعض القبائل للداعية الشيعي الذي رأوا فيه المخلص وبدأ الصدام مع الأغالبة، وانتقل أبو عبد الله الشيعي إلى حصن منيع في جبال الأوراس في بلدة «تازروت» ومن هناك كان يوجه الضربات المتتالية لدولة الأغالبة، واعتمد في ذلك على فضح الأغالبة ونشر ظلمهم، وبيان أن حكمهم خارج عن الإسلام وشريعة الرحمن، وأثار الأحقاد القديمة بين الدولة الأغلبية وبعض القبائل، وأعطى عهدًا ومواثيق لرجال وزعماء كنامة أن المستقبل والدولة والتمكن لهم، فخضعت له القبائل وتوالت المدن في السقوط، وغنم غنائم عظيمة واشتد حماس أتباعه، وساعده على ذلك انحلال وضعف دولة الأغالبة وانغماسهم في الترف، وتذمر الناس من الأمراء ومن ظلمهم، وأظهر أبو عبد الله من الحزم والشجاعة والمقدرة السياسية والكفاءة العسكرية ما جعله ثقة لمن حوله

(1) موسوعة المغرب العربي (ج2/56).

من القادة والجنود، فأعطاه ذلك شعوراً بأن الوقت حان لكشف دعوته بأن يدعو للرضى من آل البيت النبوي الذي سيظهر عن قريب وتولى أمور الحكم.

واستطاع أبو عبد الله الشيعي أن يستولي على جميع النقاط الحربية ما بين حصنه في جبال الأوراس حتى عاصمة الأغالبة.

وفي أوائل جمادى الأولى عام 296هـ/909م سقطت مدينة الأريس في يد قوات أبي عبد الله الشيعي، وهذه المدينة هي مفتاح دخول القيروان العاصمة السياسية للبلاد، فعجل زيادة الله الأخير بالرحيل إلى مصر في جمادى الآخرة عام 296هـ ودخل أبو عبد الله الشيعي القيروان⁽¹⁾.

وأعلن أبو عبد الله إثر هذا النصر الحاسم على الأغالبة أن الإمام الحقيقي للمسلمين هو عبيد الله المهدي وأنه قريباً سيصل إلى بلاد المغرب ويظهر العدل والمساواة، فانضم إليه بعض قواد الأغالبة، وأصبح جيشه مائتي ألف مقاتل لكي يدافعوا عن المذهب الشيعي الإسماعيلي والدولة الجديدة، ومعلوم من دراسة التاريخ أن الانتصارات تستحوذ على عوام الناس ويظنون أن المنتصر على الحق، ومع الإشاعة الشيعية القوية والانتصارات الملموسة وإيمان الناس بالمهدي المنتظر، أصبح الناس قادة وجنوداً لا رأي لهم، ولا عقل، بل مثل الآلات في التنفيذ، وحاول أبو عبد الله الشيعي أن يعتمد في نشر مذهبه بالدعاية والمناظرة لإقناع علماء السنة والجماعة من أمثال عثمان بن سعيد الحداد، إلا أنه أسقط في يديه عندما أقاموا الحجّة عليه وعلى دعاته، ولذلك اضطر أخو أبي عبد الله الشيعي «أبو العباس» أن يستخدم القوة لقلع مذهب أهل السنة والجماعة من عاصمة الشمال الإفريقي، فمارس مع علماء أهل السنة أصناف العنف والشدة والتعذيب وضربوا الفقهاء بالسياط وقطعوا ألسنة بعضهم، وضربوا الرقاب، وقطعوا أجزاء الجسم إلى عدة أجزاء، وصلبوا

(1) موسوعة المغرب العربي (ج2/60).

الفقهاء، وصادروا الأموال، ويطحوا الناس على ظهورهم وأمروا عبيدهم بأن يدوسوهم بالأقدام. واشتد الصراع المذهبي، وهز الدولة الوليدة فتدخل الداهية أبو عبد الله الشيعي ومنع المناظرة والمجادلة حسماً للصراع وعزل أخاه عن ولاية القيروان.

ونجح أبو عبد الله الشيعي في تثبيت دعائم الحكم في القيروان بواسطة زعماء قبيلة كتامة وخصوصاً سيدهم ومطاعهم «غزوية بن يوسف» وأخاه وبقية قومه، وأرسل إلى عبيد الله المهدي وابنه القاسم للمجن إلى القيروان، وشد عبيد الله من الشام رحله «من مدينة سلمية» إلى مصر، ثم برقة، ثم طرابلس متخفياً في ثياب التجار، ولفقت قصص عجيبة في نجاته من ولاة الدولة العباسية، ووقع في أسر بني مدرار أمراء سجلماسة⁽¹⁾.

واستطاع أبو عبد الله الشيعي الصنعاني في 297هـ/910م أن يجهز جيشاً ضخماً حطم به دولة بني مدرار وخلص عبيد الله المهدي وابنه من السجن، وفي طريق عودته مر الجيش بتاهرت وأزال دولة بني رستم في عام 297هـ/910م وأصبح المغرب الأوسط إلى تلمسان دولة عبيدية.

وتولى عبيد الله المهدي الذي أعلن قيام الدولة الفاطمية التي نسبها إلى فاطمة الزهراء بنت رسول الله لخداع الناس وتضليلهم.

وبدأت الدولة الفاطمية المزعومة تسعى للقضاء على الخلافة العباسية خصوصاً بعد أن تمكنوا من القضاء على دولة بني مدرار في سجلماسة، ودولة رستم في تاهرت، ودولة الأغالبة في إفريقية «تونس».

وكانت بيعة عبيد الله المهدي في القيروان عام 297هـ/910م وانتهت ولاية

(1) موسوعة المغرب العربي (ج2/65).

بي عبد الله الشيعي بعد أن دامت عشر سنوات على قول بعض المؤرخين⁽¹⁾.

وكطبيرة الثورات تخلص عبيد الله المهدي من أبي عبد الله الشيعي وأخيه أبي العباس وغزوية بن يوسف بمؤامرات متتالية وكل من كان من أنصارهم.

وهذا ملاحظ أيضًا في دراسة التاريخ القديم والحديث، وهو أن الأصدقاء والرفقاء الذين لا تقوى لهم، وإنما تجمعهم مصالح ومبادئ فاسدة يصفون بعضهم بعضًا، وهذا حدث في الثورة الفرنسية 1879م، والثورة الجزائرية، والثورة السورية، والمصرية، والليبية، والعراقية، وهكذا قديمًا وحديثًا.

وظهر لي أن ذلك سنة من سنن الله الجارية في المجتمعات «من أعان ظالمًا سلطه الله عليه» وَكَذَلِكَ نُؤَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا مِمَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ» [الأنعام:129].

وذكر المؤرخون أن الخلاف وقع بين عبيد الله المهدي، وأبي عبد الله الشيعي على الأموال التي استأثر بها النزق الكاذب عبيد الله المهدي، وبعضهم يرى أن أبا عبد الله الشيعي شك في عبيد الله المهدي بأنه ليس المهدي المنتظر.

وصاحب موسوعة المغرب العربي الدكتور عبد الفتاح مقلد الغنيمي ذكر السببين⁽²⁾ ولم يرجح، ثم إنه دافع عن نسب العبيدين وأنه في رأيه يرجع إلى فاطمة الزهراء، وشن حملة على من طعن في نسب العبيدين ونسبهم إلى اليهود، أو إلى المجوس، واتهمهم أنهم موالون للخلافة العباسية في بغداد أو الأموية في الأندلس وأن الخلافتين شنتا حملة شعواء على النسب العبيدي.

وأقول: إن ابن كثير -رحمه الله- الذي نقل أقوال العلماء في البداية والنهاية في الطعن في النسب العبيدي أقوى حجة، وأمتن سندًا، وأعرف بحقائق الدول ومؤسسيها، وعرف بالصدق والأمانة المتناهية، وكلامه واضح في البداية والنهاية، وأما

(1) المرجع السابق ص (70).

(2) انظر: موسوعة المغرب العربي ص (70).

ابن الأثير فلم يجزم ومال إلى إثبات النسب بدون تصريح، وذلك في «الكامل في التاريخ»⁽¹⁾ وهو معروف بميوله الشيعية، وابن تيمية في الفتاوى يؤكد ويصرح على عدم ثبات النسب الفاطمي، وإليك شهادة المؤرخ القدير ابن خلكان حيث قال: «والمحققون ينكرون دعواه في النسب، وينصون على أن هؤلاء المنتسبين بالفاطميين أدعياء، وأنهم من أصل يهودي من سلمية بالشام، وأن والده لقب بالقداح، لأنه كان كحالاً يقده العيون، وقد هلك عبيد الله سنة 322هـ وتمكن حفيده المعز من الاستيلاء على مصر، واستمر ملك العبديين نحو قرنين من الزمان إلى أن قضى عليهم بطل الإسلام صلاح الدين الأيوبي في سنة 564هـ وأزال منها كل آثار العبديين، وقطع شروهم عن الناس وأراح الله العباد منهم»⁽²⁾.

(1) انظر: الكامل في التاريخ (ج5/11) وما بعدها.

(2) فرق معاوية (ج1/289).

عبيد الله المهدي الخليفة الشيعي الراضي الأول

(297-322هـ/ 910-934م)

ذكر الإمام الذهبي ترجمة لعبيد الله المهدي في سير أعلام النبلاء فقال: «عبيد الله أبو محمد أول من قام من الخلفاء الخوارج العبيدية الباطنية الذين قبلوا الإسلام، وأعلنوا بالرفض، وأبطنوا مذهب الإسماعيلية وبثوا الدعاة يستغنون الجبلية والجهلة»⁽¹⁾.

وذكر ما قيل عنه في نسبه ثم قال: والمحققون على أنه دعي بحيث إن المعز منهم لما سأله السيد ابن طباطبا عن نسبه، قال: غداً أخرجه لك، ثم أصبح وقد ألقى عُرْمَةً من الذهب، ثم جذب نصف سيفه من غمده، فقال: هذا نسبي، وأمرهم بنهب الذهب، وقال: وهذا حسبي⁽²⁾. أما مفتي الديار الليبية -رحمه الله- الشيخ طاهر الزاوي فقد قال في ترجمة عبيد الله المهدي: «هو مؤسس الدولة العبيدية وأول حاكم فيها، وهو عراقي الأصل، ولد في الكوفة سنة 260هـ واختبأ في بلدة سلمية بؤرة الإسماعيلية الباطنية في شمال الشام. ومن يوم أن ولد إلى أن استقر في سلمية كان يعرف باسم سعيد بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن ميمون القداح.

وفي منطقة سلمية مقر الإسماعيلية مات علي بن حسن بن أحمد بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق، وأقام له الإسماعيلية مزارات سرية، وقرروا نقل الإمامة من ذرية إسماعيل بن جعفر الصادق إلى ابنهم بالنكاح الروحي⁽³⁾، ثم قال: «هذا أصل عبيد الله المهدي، وهذا أصل العبيديين المنسوبين إليه».

(1) انظر: سير أعلام النبلاء (ج15/141).

(2) المصدر السابق (ج15/142).

(3) تاريخ الفتح العربي في ليبيا ص (253).

وقد خالفهم في نسبتهم إلى إسماعيل بن جعفر الصادق جميع المسلمين في المغرب وفي كل مكان، وفي مقدمة الذين أنكروا عليهم هذا النسب الأشراف العلويون، وإنما هم منسوبون إلى سعيد بن أحمد القداح الذين ادعوا أنه ابن إسماعيل بن جعفر الصادق من طريق النكاح الروحي الذي ذكرناه آنفاً.

وبعد أن تخلص عبيد الله المهدي من خصومه أراد أن ينشر مذهبه في القيروان، ومن ثم الشمال الإفريقي، ولكن طلائع علماء أهل السنة والجماعة نابذوه العداء، وأقنعوا الناس بأن دولة العبيديين كفرة بعيدة عن الشريعة الإسلامية، وحدث بين العبيديين وأهل السنة حروب طاحنة فانتقل عبيد الله المهدي إلى المهديية بعد أن بذل في بنائها وتحصينها أموالاً طائلة، إلا أن شعور الاستقرار والاطمئنان جانب العبيديين في الشمال الإفريقي لضراوة المقاومة التي قادها علماء أهل السنة ضدهم، فأخضع المدن بقوة السلاح، وفكر في الانتقال إلى مصر، وأرسل عدة حملات إليها إلا أنها فشلت أمام جيوش العباسيين التي قادها «مؤنس الخادم».

وكانت أشد هذه الحملات خطراً على مصر الحملة التي كانت في عام 321هـ واستطاع العباسيون صد هذه الحملة بفضل جهود «محمد الإخشيدي»⁽¹⁾.

واستمر عبيد الله في حكمه إلى أن هلك في عام 322هـ وله اثنان وستون سنة، وكانت دولته خمساً وعشرين سنة وأشهر⁽²⁾.

وبهذا نلاحظ أن قبائل المصاميد وكتامة التفت حول الدعوة العبيدية لظنهم أنه هو المهدي المنتظر، ونجد في التاريخ الإسلامي كثيراً من الثورات والدول التي قامت واعتمدت على هذا المعتقد. فرأيت من المناسب والمهم في بناء السياج العقائدي الصحيح على أصول أهل السنة والجماعة في هذه المسألة أن أبين معتقد أهل السنة في

(1) موسوعة تاريخ المغرب (ج2/76).

(2) انظر: سير أعلام النبلاء (ج15/151).

قضية المهدي المنتظر، حتى يسهل على الناس كشف الدجالين الأفاكين، وسأجعل معتقد أهل السنة في المهدي عقب انتهاء ترجمة العبيدي.

كما نجد أن عبيد الله المهدي اعتمد على ادعائه على هذه الدعوى، حتى بعد أن استطاع أبو عبد الله الشيعي أن يززع ثقة البرابرة فيه ذهب إليه كبير كتامة وقال لعبيد الله المهدي: قد شككنا فيك، فانت بآية، فأجاب بأجوبة قبلها عقله وقال: إنكم تيقنتم، واليقين لا يزول إلا بيقين لا بشك.

وكانت المسائل التشكيكية في المهدي التي طرحها أبو عبد الله الشيعي على زعماء كتامة من أن الإمام يعلم الأمور قبل وقوعها، وهذا قد دخل معه بولدين، ونص أن الأمر في الصغير بعده، ومات الولد بعد عشرين يوماً، فلما سأل كبير زعماء كتامة عبيد الله المهدي عن الطفل قال عبيد الله المهدي: إن الطفل لم يم، وإنه إمامك، وإنما الأئمة ينتقلون، وقد انتقل لإصلاح جهة أخرى، قال كبير زعماء كتامة: أمنت.

وقال أبو عبد الله الشيعي: إن الإمام لا يلبس الحرير والذهب، وهذا قد لبسهما، وليس له أن يطأ إلا ما تحقق أمره، وهذا قد وطن نساء زيادة الله التغلبي، يعني عبيد الله المهدي، فلما سأل كبير كتامة عبيد الله المهدي فأجاب: أنا نائب الشرع أحل لنفسي ما أريد، وكل الأموال، وزيادة الله كان عاصياً⁽¹⁾.

والمقصود في نقلي هذا اعتماد الدجالين على استخفاف عقول الناس وتغريبهم لجهلهم، واعتمادهم على معتقدات في الأئمة من تعظيم آل البيت والإيمان بالمهدي المنتظر، وغير ذلك، فالمقام مناسب لبيان عقيدة أهل السنة في المهدي المنتظر.

(1) انظر: سير أعلام النبلاء (ج15/146).

ثورة قبيلة هواراة في طرابلس

بعد أن احتل عبيد الله المهدي طرابلس عين ماكنون بن ضبارة اللحياني الكتامي واليًا عليها، واثارت قبيلة هواراة على والي طرابلس لعدم استقرار الأمور، وحاولت أن تستفيد من فرصة العهد الجديد الذي لم تستقر فيه الأحوال في الشمال الإفريقي.

وانضمت قبائل من زناتة ولماية وغيرها من القبائل البربرية إلى قبيلة هواراة، وقاد هذه الثورة ضد العبيديين في طرابلس أبو هارون الهواري، وحاصروا طرابلس واحتفى ماكنون بسور المدينة. وأنجده عبيد الله المهدي بجيش بقيادة تمام بن معارك «أبازاكي- وهو ابن أخي ماكنون».

واستطاعت جيوش العبيديين أن تقضي على هذه الثورة الوليدة في مهدها.

وأوعز عبيد الله المهدي إلى ماكنون بن ضبارة للتخلص من تمام بن معارك بزعمه أنه يتآمر عليه، فقتل العم ابن أخيه تمام في غرة ذي الحجة سنة 298هـ وشعر ماكنون بأمان واستقرار، فتطاول في الحكم وسمح لبني قومه من كتامة بالتعدي على أموال الناس والاستهانة بأعراضهم والتدخل في أمورهم، فثار به أهل طرابلس سنة 300 هـ وأخرجوه منها، فلاحق بالمهدي برقادة وقتل أهل طرابلس من كان فيها من أنصار ماكنون الكتامين، وأغلقوا أسوار المدينة، فأرسل عبيد الله المهدي أسطولاً بحرياً استطاع الأسطول الطرابلسي أن يحرقه وأن يقتل من فيه، فأرسل عبيد الله ابنه أبو القاسم بجيش عرمرم بطريق البر فاعترضت له هواراة، إلا أنه استطاع أن يهزمها ووصل إلى أسوار المدينة وضرب عليها حصاراً أفنى ما بقي من أقوات الناس في المدينة حتى أكلوا الميتة، ولم يستطع ابن إسحاق أن يواصل المقاومة، وتفاوض أعيان طرابلس مع أبي القاسم الشيعي وطلبوا منه الأمان فأمنهم بشرط أن يسلموا محمد بن

إسحاق، ومحمد بن نصر، ورجلاً آخر يقال له: الحوحة فقبلوا ذلك وسلموهم إليه، ودخل طرابلس وأرهب أهلها بغرامة مالية قدرها ثلاثمائة ألف دينار، وتخلص أبو القاسم الشيعي من الأغلبية الذين كانوا في المدينة مدعياً أنهم هم الذين حرضوا على الفتنة.

وتولى جباية مال الغرامة رجل يقال له الخليل بن إسحاق من أبناء جند طرابلس.

وجابي مال الغرامة هو الذي أتم بناء جامع طرابلس الكبير أيام العبيديين وبنى منارته، وقد قتل على يد ابن كيداد اليفرني لما استولى على القيروان سنة 322هـ.

ويعد أن استقرت الحال في طرابلس قفل أبو القاسم الرافض إلى رقادة، وطاف بالرجال الثلاثة الذين تسلمهم من طرابلس في شوارع القيروان على الجمال تشهيراً بهم ثم قتلهم⁽¹⁾.

ويتضح من هذا الثورة المبكرة ضد العبيديين أن أهل طرابلس غير راغبين في الحكم العبيدي إلا أنهم خضعوا له بقوة السلاح.

وكتب التاريخ تؤكد على دور علماء وفقهاء طرابلس وجهادهم في مواجهة الفكر الشيعي والمد الرافض والمعتقد الباطني الذي تكفلت دولة بني عبيد بنشره في الشمال الإفريقي.

زحف العبيديين على برقة

فلما استقر أمر طرابلس أرسل عبيد الله جيوشه نحو برقة بقيادة حباسة بن يوسف الكتامي، وكان قاسياً شديداً نزع الرحمة من قلبه، فتوجه في عام 301هـ نحو سرت، لأنها لا زالت تحت حكم الأغلبية فدخلها بدون حرب، وهجرها من كان فيها

(1) انظر: تاريخ الفتح العربي في ليبيا، ص (246، 247).

من جنود العباسيين والأغالبة، ثم تقدم حباسة إلى أجدابية فهجرها من كان فيها من العباسيين والأغالبة، وطلب أهلها الأمان فأمّنهم ودخلها بدون قتال، واحتل مدينة برقة وكانت جيوش العبيديين تتدافع نحو حباسة بدون انقطاع.

وكان حباسة هذا لا يفي بوعد، وكلما دخل مدينة قتل أهلها وأخذ أموالهم وسبى نساءهم، ومن فظاعة أعماله التي ذكرتها كتب التاريخ ما فعله بمجموعة من الناس كانوا يلعبون بالحمام في برقة فأمر بهم فأجلسهم حول النار، وأمر بلحومهم أن تقطع وتشوى، ثم أمر بهم فألقوا في النار. إن هذه الأعمال الوحشية تدل على عداوة العبيديين لكل من له رائحة سنية، وربما يتقربون بها إلى الله على زعمهم الفاسد.

ومن أعماله الشنيعة ما قام بإعلانه في برقة: من أراد العطاء فليأت إلينا، فحضر إليه من الغد ألف رجل، فأمر بهم فقتلوا جميعًا، ثم وضع جثثهم بعضًا على بعض، وجيء له بكرسي فوضع على الجثث وجلس عليه، وأمر بالوجهاء من أهل البلد فدخلوا عليه فحبسهم وأهانهم، وقد مات منهم أناس من هول ما رأوا، وقال لهم: إن لم تأتوني غدًا بمائة ألف مثقال قتلتمكم جميعًا، فأحضرها له.

وانتقم من حارث ونزار ابني جمال المزاتي في نفر من أبناء عمومتهم في مدينة برقة، وباع نساءهم وأخذ جميع أموالهم وخيراتهم، وقد اغتم أهالي برقة من هذه الأفعال الشنيعة والأعمال القبيحة فأرسلوا إلى عبيد الله المهدي، فاعتذر الملعون وحلف ميمينًا كاذبًا أنه ما أمر بشيء من ذلك، وكتب إلى حباسة أن يرحل عن برقة فرحل إلى جهة مصر، وأتى أموري أقبح مما كان يفعله في برقة⁽¹⁾.

وفي سنة 302هـ تقدمت جيوش أبي القاسم الرافضي إلى الإسكندرية ولم ينل ما أرادته ورجع مهزومًا، ذلك أن أبا القاسم أرسل قسيده إلى بغداد يفخر فيها ببيته وبما وصل إليه ملكهم فرد عليه الصولي بقسيده على وزنها ومنها:

(1) انظر: تاريخ الفتح العربي في ليبيا، ص (247).

فلو كانت الدنيا مثلاً لطائر لكان لكم منها مما حزتم الذنب

فغضب من هذا البيت وقال: «والله لا أزال حتى أملك صدر الطائر ورأسه إن قدرت أو

أهلك دونه»⁽¹⁾.

ثورة أهل برقة على العبيديين:

وفي هذه السنة 302هـ انتقم أهل برقة من العبيديين فقتلوا عاملهم وكثيراً من رجال كتامة،

فأرسل المهدي جيوشه سنة 303هـ لتأديبهم والانتقام منهم، وقاد هذه الجيوش أبو مديني ابن فروخ

السهيفي، وحاصر مدينة برقة ثمانية عشر شهراً ودخلها سنة 304هـ عنوة، فقتل أكثر أهلها، وأحرق

دورها، وهتك أعراض نساءها وبعث بالأسرى إلى عبيد الله الذي أمر بقتلهم، وبقي أبو مديني ببرقة

إلى أن مات بها سنة 306هـ⁽²⁾.

وفي سنة 304هـ حارب العبيديون أهل صقلية وغزوا مصر في ذي القعدة سنة 306هـ واستولوا

على الإسكندرية وأكثر الصعيد ولم يستقروا بل رجعوا.

وفي سنة 308هـ تم بناء المهديّة وانتقل إليها المهدي، وفي سنة 310هـ خرجت نفوسة على

عبيد الله وقدموا عليهم أبواباً، فقوى شأنه وعظمت شوكته وكان مذهبهم إباضيّاً فأرسل إليهم

عبيد الله جيشاً بقيادة علي بن سليمان الداعي فانهزم جيش العبيديين وفر علي إلى طرابلس، ثم

أعاد الكرة على نفوسة وحاصروها.

وعين محمد بن عمر النفطي قاضيّاً على طرابلس، واستطاعت الدولة العبيدية أن تفرد نفوذها

بقوة السلاح على إفريقية، وطرابلس، وبرقة، وجزيرة صقلية في حكم عبيد الله المهدي.

(1)، (2) انظر: تاريخ الفتح العربي في ليبيا، ص (248).

جرائم العبيدين في الشمال الإفريقي

لقد ارتكب الباطنيون الروافض الشيعة في أهالي الشمال الإفريقي من أهل السنة ما تشيب منه الولدان ولا تصدقه العقول، وأنزلوا غضبهم وصبوا سخطهم على العلماء خاصة:

1- فعندما ادعى عبيد الله الرسالة أحضر فقيهين من فقهاء القيروان وهو جالس على كرسي ملكه وأوعز إلى أحد خدمه، فقال للشيخين: «أتشهدان أن هذا رسول الله؟ فقالا بلفظ واحد: والله لو جاءنا هذا والشمس عن يمينه والقمر عن يساره يقولان: إنه رسول الله، ما قلنا ذلك. فأمر بذبحهما»⁽¹⁾ وهذا الشيخان المغربيان هما: ابن هذيل وابن البردون.

قال الذهبي عن ابن بردون: «هو الإمام الشهيد المفتي، أبو إسحاق، إبراهيم بن البردون الضبي مولاهم الإفريقي المالكي، تلميذ أبي عثمان الحداد»⁽²⁾.

وطلب منه لما جرد للقتل: أترجع عن مذهبك؟ قال: أعن الإسلام أرجع؟ وقيل: في سنة تسع وتسعين ومائتين⁽³⁾ إن عبيد الله المهدي الزنديق لم يدع الرسالة فحسب، بل سمح لأتباعه أن يغرقوا في كفرهم حتى ألهوه فقد كانت أيمانهم المغلظة: «وحق عالم الغيب والشهادة، مولانا الذي بركادة». ومن أهم ما ادعى معرفة الغيب، والغيب لا يعلمه إلا الله، وهذا الأمر من خصوصيات الألوهية، فمن ادعاه لغير الله يقع في الشرك والكفر العظيم، قال تعالى: وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يُعَلِّمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبُرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ [الأنعام: 59].

(1) سير أعلام النبلاء (ج14/217).

(2) المصدر السابق (ج14/215).

(3) المصدر نفسه (ج14/215).

«قُلْ لَا يَتَعَلَّمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا اللَّهَ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ» [النمل:

65].

كما أن الحلف لا يكون بمخلوق وإنما يكون بالخالق. قال رسول الله «من كان حالماً فليحلف بالله أو ليصمت...» وجاءت الأحاديث في النهي عن الحلف بالآباء⁽¹⁾.

2- لقد كان شعراء الدولة العبيدية يمدحون خلفاءهم إلى درجة الكفر البواح وينشرونها بين الناس، وقد ظهر ذلك في شعر ابن هانئ الأندلسي في مدحه للمعز وكان أحد شعرائهم، مدح عبيد الله فقال:

حلل برقادة للمسيح حلل بها آدم ونوح
حلل بها الله ذو المعالي فكحل شيء سواه رايح⁽²⁾

كما شبه شعراؤهم المهديّة بمكة المكرمة وقصر المهدي بالكعبة.

هي المهديّة الحرم للموقى كما بتهامة البلد الحرام
وإن لثم الحجيج الركن أضحى لنا بعراض قصركم التثام⁽³⁾

3- شنوا حرباً نفسية على أهل السنة وذلك بتعليق رؤوس الأكباش والحمير على أبواب الحوانيت والدواب، وكتبوا عليها أسماء الصحابة رضي الله عنهم، (لعنهم الله أنى يؤفكون)، وأظهروا سب الصحابة رضي الله عنهم، وطعنوا فيهم وزعموا أنهم ارتدوا بعد النبي صلى الله عليه وسلم وخصصوا دعاة للنداء بذلك في الأسواق.

ومن ذكر الصحابة بخير أو فضل بعضهم على علي عليه السلام قتل أو سجن⁽⁴⁾.

(1) انظر: كتاب التوحيد لمحمد بن عبد الوهاب ص (90).

(2) مدرسة الحديث في القيروان (ج 72/1).

(3) البيان المغرب (ج 184/1).

(4) مدرسة الحديث في القيروان (ج 73/1).

4- عمل العبيديون على إزالة آثار بعض من تقدمهم من الخلفاء السنين؛ ولذلك أصدر عبيد الله أمراً بإزالة أسماء الحكام الذين بنوا الحصون والمساجد، وجعل اسمه بديلاً منهم، واستولى هذا الراضي الخبيث على أموال الأحماس وسلاح الحصون، وطرد العباد والمرابطين بقصر زياد الأغلبي وجعله مخزناً للسلاح⁽¹⁾.

5- حرص العبيديون على منع التجمعات خوفاً من الثورة والخروج عليهم؛ ولذلك جعلوا بوقاً يضربونه في أول الليل، فمن وجد بعد ذلك ضرب عنقه، كما أنهم كانوا يفرقون الناس الذين يجتمعون على جنازة من يموت من العلماء⁽²⁾.

وهذا الفعل لا يزال مستمراً في الأنظمة القمعية البوليسية التي لا ترى إلا ما يراه حاكمها وطاغوتها وفرعونها ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيلاً الرشد" [غافر: 29].

6- أتلّفوا مصنفات أهل السنة، ومنعوا الناس من تداولها كما فعلوا بكتب أبي محمد بن أبي هاشم التجيبي (ت 346هـ) الذي توفي وترك سبعة قناطير كتب، كلها بخط يده، فرفعت إلى سلطان بني عبيد فأخذها «ومنع الناس منها كيّداً للإسلام وبغضاً فيه»⁽³⁾.

7- حرموا على الفقهاء الفتوى بمذهب الإمام مالك، واعتبروا ذلك جريمة يعاقب عليها بالضرب والسجن أو القتل أحياناً، ويعقب ذلك نوع من الإرهاب النفسي، حيث يدار بالمقتول في أسواق القيروان وينادي عليه: «هذا جزء من يذهب مذهب مالك»، ولم يبيحوا الفتوى إلا لمن كان على مذهبهم كما فعلوا بالفقيه

(1) انظر: رياض النفوس (ج2/56).

(2) المصدر السابق (ج2/29). وجل هذا المبحث من كتاب مدرسة الحديث في القيروان مع تصرف واضح.

(3) المصدر السابق (ج2/423).

المعروف بالهزلي «أبو عبد الله محمد بن العباس بن الوليد» المتوفي عام تسع وعشرين وثلاثمائة⁽¹⁾.

8- منعوا علماء أهل السنة من التدريس في المساجد، ونشر العلم، والاجتماع بالطلاب، فكانت كتب السنة لا تقرأ إلا في البيوت خوفاً من بني عبيد، فكان أبو محمد بن أبي زيد، وأبو محمد بن التبان وغيرهما، يأتیان إلى أبي بكر بن اللباد، شيخ السنة بالقيروان في خفية، ويجعلان الكتب في أوساطهما حتى تبتل بالعرق خوفاً من بني عبيد⁽²⁾.

وهذا المسلك لا زالت الدول القمعية في العالم الإسلامي تمارسه على شعوبها فبعضها تمنع هذا الأمر كلياً، وبعضها تسمح ببعض أمور الدين التي لا تصطدم مع مصالح الدول الكبرى.

9- أجبروا الناس على الدخول في دعوتهم فمن أجاب تركوه، وربما ولوه بعض المناصب، ومن رفض قُتل، كما فعلوا عقب أول جمعة خطبها عبيد الله بالقيروان، وقعت بين الدولة العبيدية وأهل القيروان مقتلة عظيمة، فأمر الشيعي بالكف عن العوام، وافتعل مناظرات صورية، فدارت على علماء السنة محن عظيمة، وقتل منهم عدة آلاف بسبب تمسكهم بإسلامهم ودفاعهم المستميت عن السنة، قال القابسي: «إن الذين ماتوا في دار البحر -سجن العبيديين- بالمهدية من حين دخل عبيد الله إلى الآن أربعة آلاف رجل في العذاب، ما بين عالم وعابد ورجل صالح⁽³⁾». هذا عدا من كانوا يقتلون دون سجن ويمثل بهم في شوارع القيروان، فآثر ذلك على سير الحياة العلمية، وقد خمل ذكر كثير من العلماء

(1) المصدر السابق (ج2/56).

(2) انظر: مدرسة الحديث بالقيروان (ج1/76).

(3) المصدر السابق (ج1/74).

الذي أثروا اعتزال الفتنة، مثل أبي محمد الورداني⁽¹⁾، ومع ذلك فإن هذه المحنة لم تزد أهل الشمال الإفريقي إلا عزيمة وصبرًا واحتسابًا وتمسكًا بأصول أهل السنة والجماعة⁽²⁾.

10- عطلوا الشرائع، وأسقطوا الفرائض عمن تبع دعوتهم حيث يتم إدخالهم إلى داموس ويدخل عليهم عبيد الله لابسًا فروًا مقلوبًا، دابًا على يديه ورجليه، فيقول لهم: «بَحْ» ثم يخرجهم ويفسر لهم هذا العمل بقوله: «فأما دخولي على يدي ورجلي فأنا أردت بذلك أن أعلمكم أنكم مثل البهائم لا شيء، لا وضوء، ولا صلاة، ولا زكاة، ولا أي فرض من الفروض، وسقط جميع ذلك عنكم، وأما لبس الفرو مقلوبًا فأنا أردت أن أعلمكم أنكم قلبتم الدين، وأما قولي لكم بَحْ، فأنا أردت أن أعلمكم أن الأشياء كلها مباحة لكم من الزنى وشراب الخمر...»⁽³⁾.

ويعجبني في هذا المقام ما قاله شاعر أهل السنة في الشمال الإفريقي أبو القاسم الفزاري في

هجاء بني عبيد:

عبدوا ملوكهم وظنوا أنهمم	نالوا لهم سبب النجاة عمومًا
وتمكن الشيطان من خطواتهم	فأراهم عوج الضلال قويمًا
رغبوا عن الصديق والفاروق	في أحكامهم لا سلموا تسليمًا
واستبدلوا بهما ابن أسود نابحًا	وأبا قدرة واللعين تميمًا
تبعوا كلاب جهنم وتأخروا	عمن أصارهم الإله نجومًا
ياليت شعري من هم إن جهلوا	دنيا، ومن هم إن عدت صميمًا
أمن اليهود؟ أم النصارى؟ أم هم	دهرية جعلوا الحديث قديمًا

(1)، (4) المصدر السابق (ج75/1).

(3) رياض النفوس (ج504/2).

أم هم من الصابين أم من عصابة
عبدوا النجوم وأكثروا التنجيمًا
أم هم زنادقة معطلّة رأوا
أن لا عذاب غداً ولا تنعيمًا؟
أم عصابة ثنوية قد عظموا
النورين عن ظلماتهم تعظيمًا؟
من كل مذهب فرقة معلومة
أخذوا بفرع وادعوه أروما⁽¹⁾

وستأتي قصيدته الرائية التي هجا فيها بني عبيد وكيف نجاه الله منهم بإذن الله تعالى.

11- زادوا في الأذان: «حي على خير العمل»، وأسقطوا من أذان الفجر «الصلاة خير من النوم»، ومنعوا الناس من قيام رمضان، وليس شيء أشد على بني عبيد من هذه الصلاة، ومنعوا صلاة الضحى، وقدموا صلاة الظهر لفتنة الناس، أما خطبة الجمعة فقد أظهروا فيها سب الصحابة وضروبًا من الكفر، فتركها الناس، وأفقرت المساجد في زمانهم، وكان بعض أئمتهم يصلون إلى رقادة، فلما انتقل عبيد الله إلى المهديّة صلوا إليها⁽²⁾، وكثيرًا ما كانوا يجبرون الناس على الفطر قبل رؤية هلال شوال⁽³⁾ بل قتلوا من أفتى بأن لا فطر إلا مع رؤية الهلال كما فعلوا بالفقيه محمد بن الحبلي قاضي مدينة برقة.

قال الذهبي رحمه الله في ترجمته: «الإمام الشهيد قاضي مدينة برقة، محمد بن الحبلي. أتاه أمير برقة، فقال: غدا العيد، قال: حتى نرى الهلال، ولا أفطر الناس، وأتقلد إمامهم، فقال: بهذا جاء كتاب المنصور، وكان هذا من رأي العبيدية يفطرون بالحساب، ولا يعتبرون رؤية فلم ير هلال، فأصبح الأمير بالطبول والبندود وأهبة العيد، فقال القاضي: لا أخرج ولا أصلي، فأمر الأمير رجلاً خطب، وكتب بما جرى

(1) المصدر نفسه (ج2/494/495).

(2)، (2) انظر: مدرسة القيروان (ج1/73).

إلى المنصور، فطلب القاضي إليه، فأحضر، فقال له: تنصل، وأعفو عنك، فامتنع، فأمر، فعلق في الشمس إلى أن مات، وكان يستغيث من العطش، فلم يسق، ثم صلبوه على خشبة. فلعنة الله على الظالمين»⁽¹⁾.

12- من جرائم عبيد الله الكثيرة أن خيله دخلت المسجد، فقبل لأصحابها: كيف تدخلون المسجد؟ فقالوا: إن أروانها وأبوالها طاهرة، لأنها خيل المهدي، فأنكر عليهم قيم المسجد، فذهبوا به إلى المهدي فقتله، يقول ابن عذاري: وامتنح عبيد الله في آخر حياته بعلقة قبيحة: دود في آخر مخرجه يأكل أحشاه فلم يزل به حتى هلك»⁽²⁾.

إن أجيال المسلمين الذي يقرؤون تاريخ العبيديين لا يعلمون إلا ما كتب لهم عن التاريخ السياسي لهذه الدولة، ذهب فلان وخلفه فلان، وأنها دولة تحب العلم وتنشره، والمقصود نشر كتب الفلاسفة ولكن لا أحد يذكر -عدا الذين ترجموا للعلماء- بطش هؤلاء الأوغاد الظلمة بالعلماء من أهل السنة، بل إن الطلبة الذين يدرسون التاريخ الإسلامي يذكرون معد بن إسماعيل الملقب بالمعز، يذكرونه وكأنه بطل من أبطال التاريخ⁽³⁾.

وقد سلك العبيديون الفاطميون مسلك العباسيين عند تأسيس دولتهم فمهدوا لدولتهم بالدعوة إلى الفكرة الشيعية في مصر والمغرب واليمن، وأصبح لها أتباع وأنصار بكل من هذه البلاد، بل استطاعوا أن يستميلوا وزراء العهد الأخير للأغالبة، وكان داعي دعائها في المرحلة الأخيرة قبل قيام دولتهم أبو عبد الله علي بن حوشب

(1) الذهبي، سير أعلام النبلاء، (ج374/15).

(2) أيعيد التاريخ نفسه؟ محمد العبد، ص (39).

(3) أيعيد التاريخ نفسه؟ محمد العبد، ص (40).

الشيعة، فعمل على نشر الدعوة للعبيديين الفاطميين في بلاد المغرب منذ سنة 280 هـ ثم شمال إفريقيا سنة 289 هـ.

استطاع أبو عبد الله أن يحشد جيشًا من أتباعه ويواجه دولة الأغالبة في حروب امتدت حوالي خمس سنوات حتى سنة 296، والتي استطاع فيها أن يقضي تمامًا على دولة الأغالبة وامتد نفوذ العبيديين الفاطميين في ذلك الوقت إلى أكثر أجزاء بلاد المغرب حتى أصبحوا أصحاب السلطان المطلق في جميع الجهات الواقعة غرب مدينة القيروان.

عبيد الله المهدي والنشأة

أثناء هذه الحروب أرسل أبو عبد الله إلى عبيد الله يدعوه للقدوم إلى بلاد المغرب، وبالفعل عزم عبيد الله على الرحيل إلى المغرب، ولكنه احتاط واستخفي ومر في طريقه بمصر فرحب به أتباعه ودعائه بمصر، وصادف بعد ذلك بعض المتاعب، حتى وصل إلى سجلماسة بالمغرب الأقصى وكان يعيش بها آمنًا بسبب إغداقه المال على واليها اليسع ابن مدرار، غير أن معاملة الوالي تبدلت بعد انتصار أبي عبد الله الشيعي على الأغالبة سنة 296، فقبض على عبيد الله وزجه وأتباعه في السجن، فلما امتد نفوذ أبي عبد الله ووصل إلى سجلماسة فر واليها، فأطلق سراح عبيد الله من سجنه في سجلماسة وأخذت لعبيد الله البيعة ثم سار في جيش كبير من الجند حتى وصل رقادة (عاصمة الأغالبة سابقًا) فتلقاه أهلها بالترحاب واتخذها عاصمة له، وأمر بذكر اسمه في الخطبة على منابر البلاد وتلقب بالمهدي أمير المؤمنين، وبذلك قامت الخلافة العبيدية الفاطمية في شمال إفريقيا.

معاناة العبيديين (الفاطميين) من القلاقل والاضطرابات المتتالية ببلاد المغرب

مقتل أبي عبد الله الشيعي

ولأن أبا عبد الله الشيعي هو صاحب الفضل الأول في التمكين لعبيد الله فقد علت مكانته بين أهالي بلاد المغرب و قبيلة كتامة (إحدى القبائل البربرية التي ساعدت عبید الله مساعدة عظيمة). ومن ثم حنق عليه عبید الله وخشي أن يضعف نفوذه، فأمر بقتل كل من أبي عبد الله وأخيه العباس في جمادى الآخرة سنة 298، فثار أهالي المغرب عليه خاصة الكتاميون ولكنه استطاع أن يخمد هذه الثورة.

القضاء على الأدارسة

ازدادت طموحات عبید الله في إخضاع المغرب كله له واستطاع القضاء على نفوذ الأدارسة سنة 312 هـ على يد موسى بن أبي العافية، الذي بدوره أخذ نفوذه في الازدياد حتى خلع طاعة الفاطميين، ودخل في طاعة عبد الرحمن الناصر الأموي بالأندلس، فأرسل عبید الله ابنه وولي عهده أبا القاسم القائم سنة 315 إلى موسى، واستطاع أن يعيد للعبيديين (الفاطميين) نفوذهم.. وأقام عبید الله مدينة المهديّة واتخذها عاصمة لدولته، وكان البحر يحيط بها من ثلاث جهات وبنى بها دارا للصناعة تسع أكثر من مائتي مركب ثم بنى بجوارها مدينة زويلة.

ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد

وفي سنة 316 ثار أبو يزيد مخلد بن كيداد، وامتدت ثورته إلى زمن القائم الذي تولى بعد وفاة أبيه عبید الله، وأبو يزيد هذا نشأ في مدينة تورز وتعلم القرآن واعتنق فكر الخوارج الصفرية، وعادي الشيعة واجتمع إليه سائر الخوارج، وبعض قبائل البربر وبايعوه سنة 331 هـ على قتال الشيعة، وكان البربر يرون أنهم فتحوا الأندلس وبذلوا جهدهم لتولية العبديين (الفاطميين) الخلافة دون أن ينالوا شيئاً، لذلك تزعم أبو يزيد ثورة هؤلاء البربر ليستعيد سلطانهم..

كان أبو القاسم القائم شرًا من أبيه، زنديقًا ملعونًا، أظهر سب الأنبياء، وكان مناديه ينادي:

العنوا الغار وما حوي، وقتل خلقًا من العلماء، ومات عام 334 هـ

أرهب أبو يزيد العبيدين (الفاطميين) حتى قضا على ثورته سنة 336 هـ ولكن نفوذ

العبيدين (الفاطميين) تضاعف في بلاد المغرب وساءت حال البلاد في شمال إفريقية من جراء تلك الثورات.

إخضاع المغرب للسيطرة العبيدية (الفاطمية)

وتولى أمر الخلافة العبيدية (الفاطمية) بعد القائم إسماعيل أبو طاهر المنصور سنة 334 هـ

وفي سنة 337 هـ أسس المنصور مدينة المنصورية واتخذها حاضرة له ولها خمسة أبواب القبلي والباب الشرقي وباب زويلة وباب كتامة وباب الفتوح. وكانت جيوش العبيدين (الفاطميين) تخرج من باب الفتوح. وازدهرت بها التجارة..

ثم جاء المعز بن المنصور فعمل على توطيد نفوذه في بلاد المغرب فعهد إلى جوهر الصقلي

بإخضاع الأمراء الثائرين في نواحي البلاد ونجح في إقامة الدعوة للعبيدين (الفاطميين) على جميع منابر المغرب عدا سبتة وطنجة.

صعود الفاطميين

الدولة الفاطمية في أقصى اتساعها

مؤسس الأسرة عبيد الله المهدي (909-934 م) نجح صاحب دعوته في القضاء على دولة الأغالبة و حمله إلى السلطة، معتمدا في ذلك على كثرة جموع قبيلته كتامة الأمازيغية، ثم اختط مدينة المهديّة بتونس وجعل منها عاصمة له، إلا أن الفاطميين وحلفاءهم بعد ذلك زحفوا إلى المشرق واختطوا القاهرة مع رابع خلفاء الفاطميين المعز لدين الله الفاطمي، ولم يتبق منهم في المغرب إلا القليل. استولى الفاطميون على شرق الجزائر، ثم تونس، ثم ليبيا ثم صقلية التي بقيت في حكمهم حتى 1061 م. سنة 969 م استولى المعز (953-975 م) على مصر وبنى مدينة القاهرة. بقيادة جوهر الصقلي.

دخل الفاطميون في صراع مع العباسيين للسيطرة على الشام. كما تنازعا السيطرة على شمال إفريقيا مع أمويي الأندلس. كما تمكنوا من إخضاع الحجاز والحرمين مابين سنوات 965-1070 م. ازدهرت التجارة ونما اقتصاد البلاد ونشطت حركة العمران أثناء عهد العزيز بالله الفاطمي (965-996 م) ثم الحاكم بأمر الله الفاطمي (996-1021 م). آخر الخلفاء وهو العاضد لدين الله الفاطمي وقع تحت سيطرة القادة العسكريين الأيوبيين. قام صلاح الدين الأيوبي والذي تولى الوزارة منذ 1169 م، وقام بخيانة الدولة ودبر الانقلاب سنة 1171 م. وأعاد ذكر الخليفة العباسي.

الفاطميون في أفريقيا

انقسمت حياة هذه الدولة إلى فترتين: الفترة الأولى هي الفترة الأفريقية والتي تولى الإمامة فيها عبيد الله المهدي (297-322هـ) والقائم (322-334هـ) والمنصور

334-341هـ) والمعز لدين الله (341-365هـ) وفي سني إمامة المعز سيطرت قواته على مصر، فانتقل إليها واتخذها مقراً لدولته.

دخل عبيد الله المهدي القيروان في 6 يناير 910م، وسرعان ما باشر أعمالاً يمكن تلخيصها بأنها تنظيم للدولة ومباشرة الحكم فيها بنفسه، وفي سنة 309هـ استقر في العاصمة الجديدة التي بناها والتي أطلق عليها اسم المهديّة، وتدل المعطيات الأثرية التي درسها مارسيه على أنها كانت ميناءً حربيّاً في غاية المنعة، مزوداً بدار للصناعة وفيها مسجد وقصر، إلا أنها بعيدة عن الترف، وتبدو مدينة حربية أكثر منها مقراً ملكياً.

كان الأئمة الفاطميون ينظرون لولاية أفريقيا كنواة لدولة الدعوة التي يجب أن تشمل ديار الإسلام كلها، ويبدو احتلال المشرق بما فيه من المراكز الإسلامية الكبرى والحرمين الشريفين هدفاً له الأولوية، ولكن وقائع الأحداث دلت على عدم زهدهم بالجنّاح الغربي، لأنه يدخل ضمن إطار الدولة الكبيرة، ولأن الشمال الإفريقي في هذا الجناح يكون قاعدة الانطلاق والإمداد للسيطرة على المشرق، وفي نص الدعاء الرسمي في الخطبة ما يدل على حدود هذه الأهداف إذ يدعى للإمام بأن تفتح له مشارق الأرض ومغاربها، ويمدح أحد الشعراء عبيد الله بقوله:

فدولة القائم المهدي قد أزفتُ أيامها والذي أناب به الأثرُ
عن النبي وفيه قطع مدتكم يا آل أغلب أهل الغدر فاقتصروا
وقطع أمر بني العباس بعدكم وقطع آل بني مروان* إذ بطروا
ويعني ببني مروان أمويي الأندلس.

كانت الحملات الأولى بعد سنوات من إقامة الدولة موجهة نحو الغرب، حيث قام أبو عبد الله الشيعي بحملتين قبل اغتياله، قام بالأولى ضد قبائل زناتة عام 298هـ والثانية ضد تاهرت قضي فيها نهائياً على الدولة الرستمية، وفي مدة لا تزيد إلا قليلاً

على عقد واحد من السنين بسط الفاطميون سلطانهم على المغرب كله، لكن هذه السلطة لم تكن مباشرة إلا في إفريقيا، أما في المغرب الأوسط، وشمال المغرب الأقصى وصحرائه، فكان الحكم غير مباشر أو حكم تبعية.

كان جوهر الصقلي مولى المعز لدين الله الفاطمي هو الذي حقق الانتصارات الكبرى للفاطميين في التوسع غرباً، ثم أحرز لسيده نصراً آخر بفتحه مصر سنة 358هـ وبناؤه القاهرة التي انتقل إليها المعز سنة 362هـ واتخذها مقراً له، بدلاً من المهديّة. كان لهذا الانتقال نتائجه، إذ تحول وضع هذه البلاد من قاعدة للفاطميين إلى ولاية يديرها بالنيابة عنهم أتباعهم من بني زييري الصنهاجيين الذين استمروا في السير على السياسة السابقة نفسها لأسيادهم الفاطميين، في اتخاذ المغرب الأدنى (ولاية أفريقيا) قاعدة لهم ومحاولة ضمان سلطانهم بصورة مباشرة أو غير مباشرة على المغرب الأوسط والأقصى.

بعد استقرار المعز لدين الله الفاطمي في مصر، تمّ إحكام نظام إداري للدولة يمكن وصفه بالعلمية لرقية ودقته، كما أحكم نظام الدعوة، ويعدّ يعقوب بن كلس (ت380هـ) وزير العزيز بالله (365-386هـ) أهمّ بناء النظام الإداري والدعوي للدولة الفاطمية، واستطاع هذا النظام أن يبقي الدولة الفاطمية حيّة مدة تفوق القرنين، على الرغم من أن الخلفاء الذين تعاقبوا على عرش القاهرة لم يتسموا بالمقدرة والكفاءة السياسية والإدارية التي اتسم بها من سبقهم من الخلفاء.

وبعد أن توطد سلطان الفاطميين في مصر، صار تحدي [الإسماعيلية] للنظام العباسي والفكر السني أكثر قرباً وأشدّ خطراً، وصار للفاطميين دولة واسعة الأرجاء، شملت وهي في ذروة قوتها، مصر وسورية وشمال إفريقيا وصقلية والحجاز واليمن بما في ذلك المدينتان المقدستان مكة والمدينة، وسيطر الفاطميون على جيش من الدعاة، وعلى ولاء عدد لا يحصى من الأتباع في الأراضي التي كانت خاضعة للحكم العباسي فعلياً أو اسمياً.

إفريقية والمغرب الأوسط (ضمن دولة الأغالبة) حيثُ وجد المذهب الإسماعيلي موطأ قدم بين بعض قبائل البربر.

كانت شمال أفريقيا أرضاً صالحة لنصرة المذهب الإسماعيلي، ذلك أن التشيخ العَلَوِي تركز منذ نشأته في المشرق، وظهر في بيئة الكوفة متعددة الأجناس والقوميّات، وانتشر بين الموالي، ثم انتقل غرباً بعد الملاحقات التي تعرّض لها الشيعة من قبل العبّاسيين، وكانوا جميعاً من فرع الحسن بن عليّ بن أبي طالب، ومركزوا في شمال أفريقيا حيثُ ضعفت السيطرة العبّاسيّة لبعُد المسافة عن مركز اتخاذ القرار في بغداد، ولضعوبة المواصلات، ونشروا التعاليم المُشتركة للمذهب الشيعي ومآثر العَلَوِيين ممّا أدّى إلى انتشار هذا المذهب بين الأمازيغ البربر الذين أدّوا دور الموالي من الفرس في المشرق، على الرُغم من وجود فوارق كُبرى بين الفئتين في طبيعة دعمها للعَلَوِيين بعامة، وفي مؤسساتهما ومُنظماتهما، وفي أهدافهما وعقائدهما. ورُجّما كان العطف على آل بيت الرسول مُحمّد، والاعتقادُ بفضائلهم، كبيراً في المغرب من أيّ مكانٍ آخر، وقد أتاح للأداسة السّيطرة على المغرب الأقصى بدون مشقّة وتأسيس دولتهم المُستقلّة. كما اشتمل المغرب الأوسط في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري، باستثناء الأراضي التابعة لإمام تاهرت، على إماراتٍ شيعيّة بلغ عددها تسع إماراتٍ، ممّا هبّ الأرضيّة الخصبة لزرع وتنمية الدعوة الشيعيّة. لكنّ المذهب الإسماعيلي دخل إلى إفريقية بصورة أكثر تنظيمًا وسريّة قبل نحو مائة وخمسة وثلاثين سنة من قدوم أبي عبد الله الدّاعي، وذلك في أواسط القرن الثاني الهجري المُوافق للقرن الثامن الميلادي، وتركّز في ديار القبيلة الأمازيغيّة كتامة في المغرب الأوسط، التي عُرفت بأنّها أكثر القبائل عدداً وأصعبها مُراساً، إذ كانت تسكن جبال الأوراس الوعرة في جنوب إفريقية، وهي البلاد المُمتدّة من طرابلس الغرب إلى طنجة.

خارطة مُقرّبة لناحية من بلاد البربر، تظهرُ فيها مدينة الناظور حيثُ انتشر التشيع العلوي على يد عبدُ الله بن عليّ بن أحمد الحلواني.

مرّت الدعوة الإسماعيلية في بداية انطلاقتها، بمرحلتين: مرحلة الإعداد العقائدي النظري، وتولّاهما إثنان هما أبو سُفيان الحسن بن القاسم وعبدُ الله بن عليّ بن أحمد، المشهور بالحلواني، ومرحلة الدور العملي، وقامت على أكتاف الداعي أبي عبد الله المُحتسب المشهور بالشيوعي الصنعاني. ففيما يتعلّق بالمرحلة الأولى، فقد بعثت القيادة في المشرق أبا سُفيان والحلواني إلى شمال أفريقيا سنة 145هـ الموافقة لسنة 762م، وأمرتهما بأن يُبسّطا ظاهر علم الأئمة وينشروا فضلهم، وأن يتجاوزا إفريقيا إلى حُدود بلاد البربر، وأن لا يعملوا في منطقة واحدة.

وقد رجّح البعض أن يكون الإمام جعفر الصادق نفسه هو من أرسلهما وزوّدهما بهذه التعليمات.

استقرّ أبو سُفيان في قرية زراعية يُقال لها «تالة» وهي من ضواحي قرية مرماجنة الهوارية الأمازيغية، وتقع إلى الشمال من مدينة تونس المُعاصرة، وتشغّل مركزًا تجاريًا هامًا، فابتنى فيها مسجدًا وتزوّج بامرأة من أهلها واشترى عبدًا وأمة، وعاش حياةً مثالية زاهدة، واشتهر بالفضل والعبادة والذكر، ممّا لفت إليه الأنظار، فهرع إليه سُكّانُ المناطق المُجاورة يسمعون فضائل أهل البيت منه، ويأخذونها عنه. ودعا إلى الإمام عليّ بن موسى الرضا من آل البيت، وبشّر بقرب ظهوره ونعته بالمهدي المنتظر، وأضحت مرماجنة، بتأثيره، دار هجرة للشيعة. وبفضل موقع المدينة التجاري، استقطب أبو سُفيان الثُجّار وأدخلهم في دعوته التي انتقلت بعد ذلك إلى مدينة نفطة، وكثُر فيها التشيع حتّى غدت تُعرفُ باسم «الكوفة الصُغرى»، ثمّ انتشر المذهب الشيعي في الأربس شمالًا.

بالمقابل، توغّل الحلواني في بلاد البربر الأمازيغ، واستقرّ في الناظور على مشارف أرض قبيلة كتامة البربرية، أقوى قبائل تلك الناحية. وسلك نهج زميله أبا

سُفيان، فاشتهر ذكره، وأقبل الناس عليه، وتشيع كثيرٌ منهم على يديه وبخاصةٍ من قبائل كتامة ونفزة وسماتة، وكان يقول لهم: «بُعِثْتُ أَنَا وَأَبُو سُفْيَانَ، فَقِيلَ لَنَا: «إِذْهَبَا إِلَى الْمَغْرِبِ، فَإِنَّكُمَا تَأْتِيَانِ أَرْضًا بُورًا فَأَخْرِجَاهَا وَأَكْرِبَاها وَذَلَّلَاها إِلَى أَنْ يَأْتِيَهَا صَاحِبُ الْبُذْرِ فَيَجِدُهَا مُذَلَّلَةً، فَيَبْذُرُ حَبَّهُ فِيهَا»».

وتوفي أبو سُفيان قبل وصول الداعي أبي عبد الله الشيعي⁴، أما الحلواني فعاش دهرًا طويلًا ومات في الناظور تاركًا ابنة وعددًا من المعارف، عاش بعضهم طويلًا وأدركوا وصول الداعي أبي عبد الله.

خلال تلك الفترة، كانت القيادة الإسماعيلية في سلمية قد أرسلت الداعي أبو عبد الله سالف الذكر إلى اليمن ليتدرّب على يد الحسن بن فرج بن حوشب بن زاذان، أبرز دعاة تلك البلاد، فاستقبله وقربه منه، وكان قد تعرّف عليه في الكوفة. ولم تمض أكثر من سنة، حتّى انضم أبو عبد الله إلى قافلة الحجّاج اليمنيين وخرج معهم إلى مكّة في سنة 279هـ الموافقة لسنة 893م.

ذلك أنّ رؤساء الدعوة الإسماعيلية اتفقوا بعد مشاوراتٍ مُستفيضة على إرساله إلى المغرب لمُتابعة العمل بعد وفاة أبي سُفيان والحلواني، والاستيلاء على الحكم بمُساعدة قبيلة كتامة. وصل أبو عبد الله إلى مكّة، واجتمع بحجّاج كتامة في منى، وكانت الجماعة الكتامية تضم شخصين ينتميان إلى بطن كبير من بطون كتامة، هما حُرَيْث الجميلي وموسى بن مكارم، اللذين اعتنقا المذهب الشيعي بتأثير الحلواني، ودار حديثٌ مُطوّل بين الطرفين حول فضائل الإمام عليّ وبنيه، وتكرّرت اللقاءات وتزايد إعجاب الكتاميين بصديقهم الجديد. ولمّا انتهى موسم الحج، واستعدوا للرحيل، غادر أبو عبد الله مع الكتاميين مُتظاهراً بالتوجه إلى مصر، وخلال الرحلة استقى منهم بعض المعلومات المُتعلّقة بوضعهم السياسي والاجتماعي، وكل ما من شأنه أن يُفيد مهمّته، ولم يكشف لهم عن نواياه ودوافعه الحقيقية.

ولمَّا وصلوا إلى مصر، تظاهر بأنَّهُ يُريد الإقامة فيها لتعاطي مهنة التعليم، فاقترحوا عليه أن يسير معهم إلى بلادهم ليُعلِّم أبناءهم، ووعدهم بمُساندته ومنحه مزايا أكثر مُلائمةً، فاعتذر ببعُد المسافة، ووعدهم باقتفاء أثرهم إن خابت آماله في الحُصول على عملٍ كمؤدِّبٍ في الكُتَّاب، فغاب عنهم بعض الوقت ثُمَّ عاد وقال لهم أنَّه لم يجد في تلك البلاد ما يُريد، وأنَّه قرر السير معهم إلى المغرب.

مكث أبو عبد الله الشيعي في قلعةٍ صغيرةٍ يُقال لها «إيكجان» تقعُ في فج الأُخيار قُرب قسنطينة وتُقيمُ بها قبيلة سكتان البربرية، وأخذ يعمل على دعوة الناس إلى اعتناق المذهب الإسماعيلي، فأحرز نجاحًا كبيرًا وتخطت شهرته حدود إيكجان، زُعم مُعارضة بعض زُعماء القبائل الذين خشوا على سُلطانهم ونُفوذهم.

ومع اتساع نطاق الدعوة وتكاثر عدد المُنضوين إليها، كان من الطبيعي أن تتولَّد ردود فعلٍ عنيفة لدى بعض أصحاب السُلطان في بلاد البربر ولدى صاحب إفريقية. وعند هذه المرحلة بلغت مُهمَّة الداعي أبي عبد الله الروحية ذروة الحسم، وأصبحت مقرونة بمُهمَّة دُنيوية خالصة، ذلك أنَّه لم يعد فحسب الزعيم الديني للمجموعة التي اجتهد في تكوينها في إيكجان، بل أصبح على أهبة التحوُّل إلى زعيمٍ سياسيٍّ يسعى إلى بعث حركةٍ ثوريةٍ في إفريقية ضدَّ السُلطة الأُغلبية

يُيام الدولة مرة أخرى

لمستنصر يحكم لمدة ستين عاماً

تولي الخليفة المستنصر حكم مصر سنة 1035 م / 427 هج بعد وفاة ابيه الظاهر ، و كان يبلغ من العمر سبعة اعوام و استمر في حكم مصر حتي 1094 م ، أي ظل يحكم مصر حوالي 60 عاماً. كانت الفترة الأولى من حكم المستنصر و التي استمرت حوالي 20 عاماً فترة من الرخاء و الازدهار و الاستقرار، و كانت القاهرة فيها من أهم مراكز القوة في

العالم الإسلامي. و امتد سلطان الفاطميين علي بلاد الشام و فلسطين و الحجاز و اليمن و شمال افريقية بجانب مصر.

انكماش سلطان الفاطميين و الشدة المستنصرية

في الفترة الثانية لحكم المستنصر لم يستطع أن يحتفظ بحدود دولته مترامية الأطراف فخرس بلاد المغرب الأقصى سنة 443 هج لدولة المرابطين الفتية، و المغرب الأوسط سنة 475 هج لدولة المعز بن باديس.

وأخيراً خسر الفاطميون سلطانهم في فلسطين و الشام لصالح دولة السلاجقة الذين استولوا من الفاطميين علي القدس سنة 1072 م / 464 هج و علي دمشق و حلب و شرق فلسطين سنة 1075 م / 468 هج.

ولكن في عام 1089 م / 481 هج انتهز الفاطميون فرصة انشغال السلاجقة بالحملات الصليبية القادمة من آسيا الصغرى و استعادوا القدس مرة أخرى.

ويرجع الضعف الذي دب في الخلافة الفاطمية في مصر إلي سببين : أولهما استخدام الخليفة المستنصر للعناصر المغاربية و التركية كجند له، فاستأثروا بشئون الحكم دونه، و كثرت بينهم الصراعات التي دفع الناس ثمناً باهظاً لها. كما استعانت أم الخليفة المستنصر التي كانت جارية حبشية، بعناصر من الجند السود من جنسها لتواجه بهم استفحال سطوة الجنود المغاربة و الأتراك. فكثرت الصراعات بين المغاربة و الأتراك و السود، و سادت حالة من الفوضى و الفساد باتت تنذر بسقوط مبكر للخلافة الفاطمية.

السبب الثاني لضعف الخلافة الفاطمية هو انخفاض منسوب مياه النيل، فعمت المجاعة في أرجاء مصر بصورة لم يسبق لها مثيل و ذلك في عام 446 هج، و استمرت سبع سنوات اتت فيها علي الأخضر و اليابس، و انتشرت الجثث في كل مكان و ظهر

بناء الطاعون الذي قضى علي ثلث سكان مصر و استمر حتي سنة 1064 م / 454 هج.

الوزير بدر الجمالي

الوزير بدر الجمالي هو من أشهر وزراء مصر في التاريخ الإسلامي ، تولى شؤون البلاد في فترة عصيبة سنة 1075 م / 465 هج بعد أن هلك الناس و الزرع في سنوات الجفاف و المجاعة التي سميت بالشدة المستنصرية و التي استمرت سبع سنوات، أكلت الأخضر و اليابس حتي أكل الناس الدواب و الجيف.

كان بدر الجمالي والياً علي عكا، فاستنجد به الخليفة المستنصر ليقتضي علي العناصر التركية و الحبشية المتمردة، التي عاثت في الأرض فساداً ، و زادت من يؤس الناس الذين عانوا من الأمرين، مر الجوع و المرض بسبب المجاعة، و مر الظلم و القتل علي يد أمراء الجند المرتزقة.

فجاء بدر إلى مصر و معه جند الأرمين، و نجح في وضع حداً للفوضى و الجرائم و الفتن، فتخلص من كل رؤوس الفساد و الفتن في مذبحة الجمالية، و أعاد السيطرة علي الحكومة و أعاد سلطة القانون للبلاد، و صار لقبه أمير الجيوش بدر الجمالي، و إليه ينسب حي الجمالية بالقاهرة.

بعد أن أصبح للوزير بدر الجمالي اليد الطولي في حكم مصر، عمل علي أن يرث ابنه الوزارة من بعده، فأخذ عهداً من الخليفة المستنصر علي تولية ابنه الأفضل وزارة مصر من بعده. و يعتبر عهد بدر الجمالي هو بداية عهد سطوع نجم الوزراء و استأثارهم بالحكم و توريث الوزارة في نفس العائلة.

و لم يكتف بدر الجمالي بالسيطرة علي كرسي الوزارة، و إنما سعي إلي السيطرة علي بيت الخليفة أيضاً ، فبدأ في نسج خيوطه حول الخليفة المستنصر، و استخدم في ذلك ابنته ست الملك التي كانت رائعة الجمال، فلم يكذب الخليفة المستنصر يراها حتي

عزم علي الزواج منها. و بالفعل تزوج الخليفة المستنصر من ست الملك، ابنة وزيره بدر الجمالي، و و لدت له ابنه أحمد، الذي لقب بالمستعلي بعد ذلك.

توفي بدر الجمالي في جمادي الأول سنة 487 هج، و خلفه في الوزارة ابنه الأفضل.

كما توفي الخليفة المستنصر سنة 1094 م / 487 هج بعد أن حكم مصر قرابة الستين عاماً، فقام صراع بين ابن ست الملك أحمد و الابن الأكبر للخليفة المستنصر نزار لتولي الخلافة. و وقف الأفضل بن بدر الجمالي إلي جانب ابن اخته أحمد ضد نزار. و انتهى الصراع بهزيمة نزار و قتله و تولى أحمد الخلافة و لقب بالخليفة المستعلي. و ينسب إلي نزار طائفة الشيعة النزارية.

أعمال بدر الجمالي في مصر

بقي لبدر الجمالي آثار كثيرة بناها في القاهرة المعز، أهمها الجامع المعروف باسم جامع الجيوشي الذي شيده سنة 1085 م / 478 هج علي جبل المقطم، و هو أول بناء اشتمل علي جامع و مقبرة في نفس الوقت و هو أول جامع في القاهرة بني من حجر.

كما قام بتجديد سور القاهرة لتأمينها سنة 1087 م / 480 هج، و هو ما يعرف بسور بدر الجمالي، و أعاد تجديد أبواب زويلة و الفتوح و النصر التي بناها جوهر الصقلي قبله بأكثر من مائة عام. لذلك عرفت المنطقة الواقعة بيت سور جوهر و سور بدر الجمالي باسم بين السورين.

وبوفاة الخليفة المستنصر و الوزير بدر الجمالي انتهى العصر الذهبي للخلافة الفاطمية، و بدأ مؤشر الحضارة يتجه للإنخفاض. و يعد العصر الفطمي الثاني هو عصر إضمحلال الخلافة الفاطمية.

جانب من مدينة القيروان، عاصمة الأغالبة التي فتحها الفاطميون سنة 296هـ الموافقة لسنة 908م وأنهوا الولاية الأغلبية على إفريقية.

انفجر الصراع بين الأغالبة والداعي أبي عبد الله بسبب موقف حاكم مدينة ميله من الدعوة الإسماعيلية في أرض كتامة. وكانت ميله تحت حكم موسى بن عائش الذي اشتهر بعدائه لأبي عبد الله الشيعي، خشيةً على مركزه، وشارك في جميع المؤامرات التي حاكها الأغالبة للتخلص منه. وكانت ميله المذكورة تُشكّل مركزاً عربياً في قلب بلاد كتامة البربرية، وكانت الأسر الحاكمة العربية في المغرب توالي السلطة المركزية في بغداد، لذلك كانت أول عائق أمام انطلاق الدعوة إلى الخارج، ولا بُد من تذليلها، فشن عليها الداعي حرباً وانتصر على حاميتها العسكرية، ودخلها خلال شهر ذي القعدة من سنة 289هـ الموافق فيه شهر تشرين الأول (أكتوبر) سنة 902م، وولى عليها أبا يوسف ماكنون بن ضبارة الأجنبي. وهكذا سقطت أول مدينة أغلبية مُحصنة في يد الداعي. لكن سُرعان ما استعادها الأغالبة مُجدداً، بعد أن هزموا جيش الداعي في بلدة «ملوسة».

وخلال شهر رجب سنة 290هـ الموافق فيه شهر حُزيران (يونيو) 903م، اشتبك الأغالبة مع الإسماعيليين في معركة قاسية حالف النصر فيها أبا عبد الله، وتراجع الجيش الأغلبي بعد الهزيمة إلى سطيف، وفي أوائل سنة 291هـ الموافقة لأواخر سنة 903م، استأنف الداعي عمليّاته العسكرية، فاستولى على سطيف، وهي أقرب مدينة مُحصنة من إيكجان بعد ميله، وكانت مدينةً مُعزلةً لتحركاته العسكرية، ومُثلّ قاعدةً لقوات العدو. وفي آخر شهر ذي الحجة سنة 293هـ الموافق فيه شهر تشرين الأول (أكتوبر) سنة 906م، استولى أبو عبد الله على مدينة «طبنة» في طرف إفريقية، وهي قاعدة نهر الرّاب الكبير، وإحدى أكبر وأغنى المُدن الأغلبية بعد القيروان، وعيّن عليها عاملاً شيعياً هو يحيى بن سليمان، كما فتح بلزمة. وبسقوط هاتين المدينتين، نجح الإسماعيليون في فتح ثغرة في الحُصون الغربية التي تحمي إفريقية،

لم يبقَ منها سوى حصن باغاية في أقصى إفريقية بين مجانة وقسنطينة، الذي يؤدي إلى داخل البلاد، ولا بُدَّ من مهاجمته. وفي سنة 296هـ الموافقة لسنة 908م، هاجم الداعي وجنوده وأتباعه الحصن المذكور واستولوا عليه، ثمَّ تحركوا قاصدين الأريس وهزموا الجيش الأغلبيّ هزيمةً قاصمةً ودخلوا المدينة عنوةً، فاستولى الهلع على أمير إفريقية أبو مضر زيادة الله الثالث وكبار رجال دولته وأصحاب الدواوين والموالي والعبيد، فانسحبوا إلى القيروان وسوسة وبعض المُدن الأخرى. ولمَّا وصلت أخبار هروب زيادة الله الثالث، وما حصل في دولته من الفوضى، إلى مسامع أبي عبد الله الشيعي، تحرك بسرعةٍ باتجاه القيروان ورفادة واستولى عليهما، وأبطل ذكر إسم الخليفة العبّاسي في خطبة الجمعة. وبهذا زالت الدولة الأغلبيّة وبالتالي سلطة العبّاسيين الإسميّة والفعليّة عن هذه البلاد، ودخلت إفريقية في مرحلةٍ جديدةٍ من تاريخها.

خارطة توضح التحوّلات الإسماعيليّة في شمال أفريقيا، والمناطق التي أُقيمت بها الدولة الفاطميّة لاحقًا في إفريقية والمغرب.

نجح الداعي أبو عبد الله بالقضاء على دولة الأغالبة في إفريقية سنة 296هـ الموافقة لسنة 908م، بعد حربٍ شديدةٍ دامت خمس سنواتٍ ثمَّ التفت بعد هذا النجاح إلى العمل على إصلاح النظام السياسي في إفريقية بعد الفوضى التي نجمت عن إنهيار الدولة الأغلبيّة، فحرص على إقامة نظامٍ جديدٍ وإضفاء الصبغة الشيعيّة على مؤسسات الدولة الجديدة، وتركيز السُلطة في يده. فأمن الناس على حياتهم وأرزاقهم وممتلكاتهم، وأقرَّ عدّة إجراءات لتهدئة وتأمين كلِّ خائفٍ كان يتولّى منصبًا في الدولة الأغلبيّة، فاطمأنَّ إليه الكثير من الرجال ودخلوا في خدمته، وأوصى دُعائه الكتّامين أن لا يُكروهون أهل السُنّة على التشييع، وأن يستعملوا معهم الإقناع عوض ذلك، وكان يُردد قوله المعروف: «إِنَّ دَوْلَتَنَا دَوْلَةٌ حُجَّةٍ وَبَيَانٍ، وَلَيْسَتْ دَوْلَةً قَهْرٍ وَاسْتِطَالَةٍ، فَاتْرَكُوا النَّاسَ عَلَى مَذَاهِبِهِمْ، وَلَا تُلْزِمُوهُمْ بِاتِّبَاعِ الدَّعْوَةِ الْهَادِيَةِ

لْمَهْدِيَّةِ». وعاش حياة مُتواضعة بعيدةً عن أُبْهة المُلْك، ف شعر النَّاسُ أنه قَرِيبٌ منهم، وأضاف عدَّة علامات عقائديَّة شيعيَّة على نمط الحياة اليوميَّة، فأمر بأن تتضمَّن خطبة الجُمعة الصَّلَاة على الرسول مُحَمَّد وعلى آلِه وعلى أميرِ المؤمنين عليِّ بن أبي طالب وولده الحسن والحسين، وزوجته فاطمة الزهراء، وأن يُزاد في الآذان عبارة «حيِّ على خيرِ العمل». وأنفذ أبو عبد الله الدَّاعي الرُّسل إلى سلميَّة، يُخبرُ الإمامَ المستور (عبيد الله المهدي) بما فُتح من المُدن والأقاليم، ويدعوه للحُضور إلى إفريقيَّة. وفي الأساس، حدثت عدَّة تطوُّراتٍ سياسيَّةٍ خلال تلك الفترة دفعت الإمامَ عبيد الله المهدي إلى مُغادرة مركز الدعوة في سلميَّة5، فخرج في شهر رجب سنة 289هـ المُوافق فيه شهر حُزيران (يونيو) سنة 902م مُصطحبًا معه القائم وعددٌ من أتباعه، وممَّ وجهه صوب المغرب. ولمَّا وصلت هذه الجماعة إلى سجلماسة أقامت في ضيافة واليها حينًا من الزمن قبل أن يُلقِيَ القبض عليها بعد أن اكتشف أمرها. وفي يوم الخميس 15 رمضان سنة 296هـ المُوافق فيه 7 حُزيران (يونيو) سنة 909م، خرج الدَّاعي أبو عبد الله على رأس جيش كبيرٍ لاستقدام عبيد الله المهدي وتنصيبه على العرش، ففتح بطريقه تاهرت وقضى على الإمارة الرُّستميَّة، ثُمَّ تابع زحفه ووصل إلى سجلماسة يوم السبت في 6 ذو الحِجَّة المُوافق فيه 6 آب (أغسطس) من السنة سالفه الذِّكر. اشتبك الجيش الإسماعيلي مع قوَّات والي سجلماسة وأنزل بها هزيمةً فادحة، وفي اليوم التالي دخل الدَّاعي المدينة وأطلق سراح المهدي ورجاله. مكث عبيد الله المهدي مُدَّة أربعين يومًا في سجلماسة، توجَّه بعدها إلى إيكجان وأقام فيها. ثُمَّ خرج من إيكجان إلى رُقَّادة فوصلها يوم الخميس 20 ربيع الآخر سنة 297هـ المُوافق فيه 6 كانون الثاني (يناير) سنة 910م، واستقرَّ في قصر الصحن الذي كان الدَّاعي قد أقام به من قبل، وذكر اسمه على المنابر يوم الجُمعة، وتلقَّب «بالمهدي أمير المؤمنين»، وأبطل ذكر اسم الخليفة العبَّاسي في الخطبة. وهكذا نجح الشيعة الإسماعيليُّون في إقامة دولتهم في شمالي أفريقيا بأقسامها الثلاثة: طرابلس الغرب وإفريقيَّة والرَّاب.

ملامح الدولة الفاطمية

كان للفاطميين أثر كبير في التاريخ الإسلامي بشكل العام والمصري بشكل خاص، حيث تقدمت العلوم والفنون في عهدهم وكانت القاهرة حاضرة زمانها يفدها الطلاب من أنحاء العالم للتزود بالعلم والمعرفة وبنيت بها دار الحكمة والأزهر وانتشرت الكتب وجعل المال من أجل الشعراء والأدباء، وارتبطت الكثير من العادات والتقاليد والطقوس بالدولة الفاطمية في مصر حيث مازال التأثير الفاطمي يظهر في مصر أثناء شهر رمضان والأعياد.

ويقول ول ديورانت في قصة الحضارة أن مصر بدأت نهضتها الحقيقية منذ العهد الفاطمي حيث بدأت الشخصية المصرية تستقل وتبدأ بالظهور من جديد بروح جديدة إسلامية.

بل إن بعض مؤرخي تاريخ المسرح العربي يرون أن بذور المسرح كانت بدأت في الظهور في العصر الفاطمي من خلال ما يسمى بالمهرج والحاوي أثناء الإحتفالات في العصر الفاطمي.

وتميز العصر الفاطمي بالفخامة في كل شيء والإهتمام بالأعياد والإحتفالات ونرى المقرئزي يعن في وصف الإحتفالات والمواكب الخاصة بالخلفاء. ومازل المصريون يتذكرون موكب حصان الخليفة المهيب الذي كان يخرج يوم المولد النبوي فيصنعون حلوى تشبه هذا الحصان.

وفي العصر الفاطمي يعود أقباط ويهود مصر في الظهور على مسرح الأحداث من جديد فإذا استثنينا السنوات الأخيرة من عهد الحاكم بأمر الله نجد أن باقي العهد الفاطمي كان عهد حريات للأقباط واليهود وبعضهم وصل إلى أرقى مناصب البلاط الفاطمي.

الأدب والعلوم في العصر الفاطمي

اهتم الفاطميون منذ أن استقر سلطانهم في مصر بالعمل على نشر الثقافة العلمية والأدبية، فضلاً عن الثقافة المذهبية التي تتصل بالدعوة الإسماعيلية، كالفقه والتفسير، وكان للجامع الأزهر أثر كبير في النهوض بالحياة الثقافية في مصر، وفاقته شهرته جميع المساجد الجامعة في مصر منذ أن أشار الوزير يعقوب بن كلس سنة 378هـ على الخليفة العزيز بتحويله إلى معهد للدراسة بعد أن كان مقصوراً على إقامة الدعوة الفاطمية، فاستأذنه في أن يُعَيَّن بالأزهر بعض الفقهاء للقراءة والدرس على أن يعقدوا مجالسهم بهذا الجامع في كل جمعة من بعد الصلاة حتى العصر، فرحب العزيز بذلك ورتب لهؤلاء الفقهاء أرزاقاً شهرية ثابتة وأنشأ لهم داراً للسكنى بجوار الأزهر، وظل الأزهر مركز الفقه الفاطمي إلى أن بنى الحاكم بأمر الله جامعاً، فانتقل إليه الفقهاء لإلقاء دروسهم.

العلماء والأدباء

وكان لتشجيع الفاطميين للعلماء والكتّاب أثره في ظهور طائفة كبيرة منهم في مصر، فاشتهر من المؤرخين في العصر الفاطمي، أبو الحسن علي بن محمد الشافعي (ت 388هـ) صاحب كتاب الديارات الذي اتصل بخدمة الخليفة العزيز فولاه خزانة كتبه واتخذة من جلسائه، كما نبغ من المؤرخين الأمير المختار عز الملك المعروف بالمسبحي (ت 420هـ) وكان من جلساء الحاكم بأمر الله وخاصته وشغف بكتابة التاريخ، وألّف فيه عدة كتب منها تاريخه الكبير «تاريخ مصر» ومن أعلام المؤرخين أبو عبد الله القضاعي (ت 454هـ) وكان من أقطاب الحديث والفقه الشافعي، له كتاب «مناقب الإمام الشافعي وأخباره» أوفده الخليفة المستنصر بالله سفيراً إلى تيودورا إمبراطورة الدولة البيزنطية سنة 447هـ ليحاول عقد الصلح بينها وبين مصر. ومن الكتاب المؤرخين الذين ظهوروا في أواخر العصر الفاطمي، أبو القاسم علي بن منجب الصيرفي (ت 542هـ) الذي اشتهر ذكره وعلا شأنه في البلاغة والشعر كما

رع في الخط، كذلك نبغ في العصر الفاطمي بعض العلماء من أمثال محمد بن الحسن بن الهيثم الذي أتى مصر من العراق بدعوة من الحاكم بأمر الله لما بلغه أن له نظرية مهمة في توزيع مياه النيل، واشتهر من الأطباء والفلاسفة علي بن رضوان (ت 460هـ) الذي أصبح بفضل جده واجتهاده رئيس الأطباء في البلاط الفاطمي.

الشعر

ولما كان يدره الخلفاء الفاطميون من العطايا الجزيلة والخلع والجوائز والأرزاق على رجال الأدب، أكثر هؤلاء قول الشعر لمدح الخلفاء الفاطميين ودفعت الرغبة في الحصول على هذه الجوائز والهبات الشعراء من أهل السنة إلى محاكاة الشعراء الشيعيين في مدحهم للخلفاء.

من أشهر شعراء الشيعة محمد بن هانئ الأندلسي الذي ولد في إشبيلية ببلاد الأندلس حيث قضى أيام صباه، ثم اتصل بالخليفة الفاطمي المعز الفاطمي الذي بالغ في الإنعام عليه، فلما توجه المعز إلى مصر، تبعه ابن هانئ ثم رجع إلى المغرب لأخذ أولاده واللاحق بمولاه، وأعدّ العدة للرحيل وسار في طريقه إلى مصر، فلما بلغ برقة توفي سنة 362هـ فلما بلغت المعز وفاته وهو بمصر قال: «هذا رجل كنا نرجو أن نفاخر به شعراء المشرق، فلم يقدر لنا ذلك»، ولاشك في أن المعز أصاب فيما قاله، فالمتصفح لديوان ابن هانئ يرى أكثر شعره قد نظم في مدح المعز وأسرته، حتى لقد ذهب به هذا التحمس إلى أن ينسب لحسامه من صفات التشيع ما نسبته إلى نفسه، وبالغ في مدحه للخليفة المعز حتى جعله في منزلة عيسى ومحمد، بل ونسب إليه بعض صفات الألوهية، كقوله فيه:

ما شئت لا ما شاءت الأقدار

احكم فأنت الواحد القهّار

ومن أشهر الشعراء الفاطميين أبو حامد أحمد الأنطاكي، عاصر المعز والعزیز والحاكم بأمر الله وأشاد بذكر جوهر الصقلي ويعقوب بن كلس وغيرهما، ومن قوله مدح يعقوب بن كلس:

لم يدع للعزیز في سائر الأُر ض عدواً إلا وأحمد نـاره
فلهدا اجتباها دون سواه واصطفاه لنفسه واختاره
ذو يدٍ شأنها الفرار من البخل وفي حومة الوغى كـزاره

ومن الشعراء الذين وفدوا على مصر وأفادوا من تشجيع الخلفاء الفاطميين ووزرائهم، أبو الحسن علي بن جعفر بن البُؤين، وهو من أهل معرّة النعمان صار ثقة الوزير الفضل بن بدر الجمالي الذي قربه وأدرّ عليه صلاته، وكذلك أمّنا عماد الدين الأصفهاني (ت 597هـ) بمعلومات عن الشاعر أبي الحسن علي بن محمد الأفش وهو من أشرف المغاربة، مدح الخليفين الأمر (495-521هـ) والحافظ (521-544هـ). ولعل من أشهر الشعراء الذين عاشوا في العصر الفاطمي المتأخر عمارة اليميني السني الشافعي المذهب الذي أصبح من أنصار الفاطميين ومن مشاهير شعراء البلاط الفاطمي في عهد الخليفة الفائز (549-555هـ) والعاقد (555-567هـ) ولكنه أبي أن يعتنق عقائد الفاطميين وأشار إلى ذلك في ديوانه ببضعة أبيات خاطب بها الوزير ابن رزيك الذي ألح عليه في التحول إلى المذهب الشيعي ومنحه 3000 دينار، ووعد أن يزيد في إغداقه عليه إن هو أجابه إلى ما طلبه منه، ولكن عمارة اعتذر بلباقة وهو يشير إلى هذا الاختلاف في العقيدة في هذا البيت:

مذهبهم في الجود مذهبُ سنة وإن خالفوني في اعتقاد التشيع

ظل عمارة على ولائه للفاطميين حتى بعد أن زال سلطانهم وسقطت دولتهم ولكن تحيزه للفاطميين جلب عليه نقمة الأيوبيين، وانتهت حياته الحافلة بالصلب لأنه اتهم بالاشتراك بالتآمر لإعادة سلطان الفاطميين.

الفقهاء

وقد أدى مجيء الفاطميين إلى مصر بمذهب شيعي إلى ظهور فريقين من العلماء يعمل أولهما على تأييده، ويُفند الآخر آراءهم، واستتبع ذلك نشاط علماء الدعوة الفاطمية في تأليف الكتب وكان لابن حيون (ت 363هـ) النعمان بن محمد بن منصور أبي حنيفة التميمي وأبناؤه، وهم جميعاً من كبار رجال القضاء والأدب والفضل الكبير في نشر الثقافة المذهبية التي تتصل بالدعوة الإسماعيلية، ويُعدُّ النعمان من أهم دعائم الدعوة الإسماعيلية، وله في الفقه الإسماعيلي مؤلفات عدة، منها «دعائم الإسلام في ذكر الحلال والحرام والقضايا والأحكام»، وكان دعاة الإسماعيلية يرجعون إلى كتاب دعائم الإسلام في أحكامهم ونهج الوزير يعقوب بن كلس في كتابه «مصنف الوزير» منهج كتاب الدعائم، وأشاد بذكره حميد الدين الكرمانى داعي الحاكم بأمر الله في فارس في كتابه «راحة العقل» حتى جعله في المرتبة التي تلي القرآن والحديث.

ومع أن الفاطميين كانوا متعصبين للمذهب الإسماعيلي ويشجعون فقهاءه فقد ظهر في عهدهم بعض الفقهاء الشافعية والمالكية والحنبلية، منهم أبو بكر محمد النعماني المالكي (ت 380هـ) وكانت حلقاته بجامع عمرو بن العاص تدور على سبعة عشر عموداً لكثرة من يحضرها. وفي سنة 405هـ ولي الحاكم بأمر الله أحمد بن محمد العوام الفقيه الحنبلي منصب قاضي القضاة، فلما قيل للحاكم إنه ليس على مذهبه ولا على مذهب من سلف من آباءك أجابهم بأنه ثقة مأمون، مصري عارف بالقضاء وبأهل البلد وليس بين المصريين من يصلح لهذا الأمر غيره، وأضيف إليه أحكام مصر وبرقة وصقلية والشام والحرمين ماعدا فلسطين، وجعل له النظر في العيار ودار الضرب والصلاة والمواثيق والمساجد والجوامع، ولم يزل على وظيفة القضاء إلى أن مات سنة 418هـ فصلى عليه الخليفة الظاهر بن الحاكم، كما أن الباحث إذا تتبع أسماء قضاة دمشق وجد عدداً منهم لم يكونوا على مذهب الخلفاء الفاطميين، ففي

سنة 369هـ كان قاضي دمشق عبد الله بن أحمد بن راشد الفقيه الظاهري، وفي سنة 375هـ ناب القاضي أبو بكر يوسف بن القاسم الشافعي المحدث عن قاضي قضاة مصر أبي الحسن علي بن النعمان.

المكتبات في عصر الدولة الفاطمية

كانت المساجد مراكز ثقافية و عمل العزيز بالله علي تحويل الجامع الازهر الي جامعة يدرس فيها الفقه الشيعي إلى جانب فقه المذاهب الأخرى والعلوم من لغة وطب ورياضة ووفر الفاطميون للطلاب الوافدين من جميع اناء العالم الاسلامي المسكن والملبس وانشأوا بالازهر مكتبه ضخمة بها مخطوطات في جميع العلوم. اتخذ الفاطميون من قصورهم مراكز لنشر الثقافه الشيعية بصفه خاصة وألحقو بها مكتبات تحتوي الالوف من الكتب مثل مكتبة القصر الشرقي التي انشأها الخليفة المعز لدين الله. ويذكر المؤرخون أن الآلاف من الكتب تعرضت للحرق والنهب إبان انقضاء حكم الفاطميين على يد الأيوبيين، ومن الشواهد المتصلة أن ما يعرف في مصر الآن بتلال الكتب إنما هو في الأصل المكان الذي جمعت فيه كتب ومخطوطات الفاطميين فأحرق معظمها وتُرك الباقي لتغطيه الرمال وتدفنه. يذكر المقرئزي أن عبيد الايوبيين عندما سطوا على القصور الفاطمية ونهبوها كانوا ينزعون الجلود التي تغلف المخطوطات ويتخذون منها نعالاً.

العمارة

الجامع الأزهر، من أشهر معالم القاهرة الإسلامية.

امتدت مرحلة العصر الفاطمي نحو مائتي عام، وسادت روح الترف في هذه الفترة في كل شئ. وفي خطط المقرئزي ما يعكس صورة هذه الحياة بأبهى مظاهرها. وكان مذهب الحاكمين هو المذهب الشيعي، بينما كان أغلب الشعب يتبع مذهب أهل السنة.

وكل ما لدينا عن قصور الفاطميين إنما استقيناه من أقوال المؤرخين. وهي "في تونس" إلا فكرة خيالية عن فخامتها، فكان لهم في القاهرة قصران متقابلان أحدهما الشرقي وله تسعة أبواب ويبلغ طول واجهته 345 متراً.

وترتبط المساجد الفاطمية في القاهرة تارة بآبن طولون في استعمال الأكتاف، وتارة بسيدي عقبة في استعمال المجاز المرتفع الذي يقطع رواق القبلة. وقد اقترن هذا العصر بعدة ظواهر معمارية منها استخدام الحجر المنحوت لأول مرة في واجهات المساجد بدلا من الطوب، ثم تزيين هذه الواجهات بالزخارف المنوعة المحفورة على الحجر. بعد أن كنا نشاهدها في جامع عمرو وجامع ابن طولون عارية من الزخارف. ومن أمثلة هذه الواجهات واجهة مسجد الحاكم والأقمر. حيث نرى في واجهة الأخير وردة بديعة محفورة ومفرغة تذكرنا بالتفوق الفني على نظيرها في طراز قرطبة.

وكانت القباب في ذلك العصر صغيرة وبسيطة. سواء من الداخل أم من الخارج. وظهر تضييعها أول مرة في قبة السيدة عاتكة ق 12م. وتطور أركان القبة نحو المقرنصات المتعددة الحطات. حيث بدأ بطاقة واحدة. كما في جامع الحاكم ثم بحطتين في قبة الشيخ يونس والجعفري وعاتكة.

أما الزخارف المعمارية فقد بلغت الغاية في الجمال سواء أكانت في الجص أم في الكتابة الكوفية المزهرة التي كانت تحتل الصدارة في المحاريب وطارات العقود والنوافذ. وكذلك الزخارف المحفورة في الخشب سواء في الأبواب أم المنابر أم المحاريب المنقولة أو في الروابط الخشبية التي تربط العقود.

ثار الدولة الفاطمية

لمغرب العربي

عني الفاطميون بالعمارة عناية فائقة، وقد ذكرنا أن عبيد الله المهدي أسس مدينة المهديّة بتونس وجعلها حاضرة لدولته الفاطمية، كما أنشأ مدينة أخرى سماها

لمحمدية، وعوّل القائم بأمر الله على إنشاء مدينة كان يريد أن يسميها القايمية، لكن الحروب والثورات حالت دون ذلك، أما المنصور بالله فقد أسس مدينة المنصورية ونقل إليها الدولة والدواوين.

الفلك والمرصد الفلكية في مصر الفاطمية الإسلامية

شهدت مصر في عصر الحكم الفاطمي الإسلامي نهضة علمية كبيرة بداية ببناء أعرق جامعة عربية إسلامية (الأزهر الشريف) منذ ألف عام في القاهرة المعز لدين الله الفاطمي، مروراً ببناء المرصد الفلكية كمرص الجيوشي فوق سطح جامع الجيوشي بجبل المقطم شرق القاهرة ومرصد المأمون بباب النصر حيث سميت هذه المرصد بأسماء الوزراء الذين شيدها.

وفي 30 إبريل 1006م رصد الفلكي العربي المسلم علي بن رضوان ظاهرة حدوث أعظم سوبر نوفا (نجم متفجر) في مدينة الفسطاط (مصر القديمة) جنوب القاهرة حيث قام بتسجيل هذه الظاهرة بتفصيل عال وتحديد موقعها بدقة بالغة في كتابه المسمى (بالأرباع) والذي تُرجم إلى اللاتينية في العصور الوسطى حيث اعتبر كواحد من أهم المراجع الفلكية في أوروبا في ذلك الوقت، ثم تم رصد سوبر نوفا علي بن رضوان بالتلسكوب الفضائي هابل وبالأقمار الصناعية بأشعة إكس وجاما وبالمناظير الراديوية من على سطح الأرض ويعتبر أقوى وأعظم انفجار لنجم في تاريخ البشرية.

كذلك قام ابن يونس المصري بأخذ أرصاد دقيقة للشمس والقمر والكواكب بمرصده فوق المقطم وعليه فقد قام بوضع "الزيج الحاكمي" نسبة إلى الحاكم بأمر الله الخليفة الفاطمي في ذلك الوقت وكان هذا الزيج يعتبر أكثر دقة من نظيرتها البطلمية بمدرسة الإسكندرية. كما عمل ابن يونس في علم اللوغريتمات وأبدع فيه. وعمل الحسن بن الهيثم كراصد وعالم فلك في أثناء إقامته بمصر بجانب عمله في مجال البصريات حيث يعتبره الكثيرون من مؤرخي تاريخ العلوم أنه المؤسس الحقيقي لعلم

البصريات الحديث... وكان لعدم وفاء النيل في عهد المستنصر بالله حدوث مجاعة كبيرة في مصر عرفت في كتب التاريخ بالشدّة المستنصرية.. وكانت هي بداية النهاية للحكم الفاطمي في مصر وما حولها.

لا مراء في أن أثر العرب في النهضة الأوربية واضح لا يجحده إلا مكابر، فقد كانت للعرب عقيدة وفلسفة، وكان لهم نظام حكم، أشاع روح العدل والإنصاف والتسامح، فتعايش الناس ذوي العقائد المختلفة والأجناس المتباينة متجاورين، يودهم الأمن والسلام. فتجاور المسجد والكنيسة والمعبد في كل قطر، بل في كل مدينة، وظل هذا التقليد زماناً طويلاً، حتى بعد انحسار حكمهم عن البلاد التي فتحوها، وما ذلك إلا لأنهم أوجدوا البيئة التي تسمح بنمو روح الإخاء والتسامح، فقد ربوا النفوس التي تؤمن بهذا التعايش والامتزاج، ووجدت مساجد إسلامية، يدرس فيها الرهبان واليهود جنباً إلى جنب، وبعد أن أغلقت أوروبا في العصور الوسطى أكاديمية أفلاطون في أثينا سنة 529هـ وقد قامت مساجد أسبانيا وجامعات فرنسا وصقلية بفضل العرب وعلمهم، بحمل مشعل الابتكار في العلم والفن والفلسفة، وظل العرب قرونًا متطاولة، يحملون رسالة العلماء والخبراء والصناع على أرض جنوب فرنسا وأسبانيا وجنوب إيطاليا وصقلية. فقد كان للعرب أسلوب تجريبي، الأمر الذي كان يحرمه رجال الكنيسة، ويدعو إلى الدقة العلمية في إجراء التجارب، وعدم التسرع في الاستنتاج، إلى جانب ملكة التصنيف والتبويب والتفسير.

تقول الدكتورورة سيجريد هونكه في مقدمة كتابها شمس الله تشرق على الغرب - فضل العرب على أوروبا (أنها سبة أن يعلم أهل العلم من الأوروبيين أن العرب أصحاب نهضة علمية لم تعرفها الإنسانية من قبل، وأن هذه النهضة فاقت كثيراً ما تركه اليونان أو الرومان ولا يقررون هذا. إن العرب ظلوا ثمانية قرون طوالا يشعون على العالم علماً وفناً وأوربا وأدباً وحضارة، كما أخذوا بيد أوروبا وأخرجوها من الظلمات إلى النور، ونشروا لواء المدنية أينما ذهبوا في أقاصي البلاد

ودانيتها سواء في آسيا وإفريقيا أو أوروبا، ثم تنكر أوروبا على العرب الاعتراف بهذا الفضل).

وعلى سبيل المثال فإن ابن رشد (1126 - 1198م) أعظم وآخر فلاسفة العرب، لقد قال بأفكاره لكي يكتب لها الدوام والخلود، إنها أفكار عقلانية تنويرية في أساسها وفي أهدافها، وعار علينا نحن أبناء الأمة العربية إذا نحت أهملنا فكر هذا الفيلسوف العملاق، عميد الفلسفة والتنوير في أمتنا العربية من مشرقها إلى مغربها.. وإذا كان هذا الفيلسوف الذي اهتمت به أوروبا التي تقدمت عن طريق أفكاره إلى الأمام، وأهمله أبناء أمتنا العربية التي رجعت إلى الوراء لأنها ظلت محصورة في الفكر التقليدي، وفكر الغزالي عدو الفلسفة والتفلسف، وأراء ابن التيمية، فإذا الوقت قد حان لدراسة أراء هرم ثقافتنا العربية في الماضي، وهو ابن رشد الفيلسوف والعالم المفكر العربي الأندلسي.

قام العلماء العرب برصدات فلكية على أعظم جانب من الأهمية، درسوا مجسطس بطليموس، عملوا أرصادا وأزياجا، وقالوا بالدوران الظاهري للشمس والنجوم حول الأرض، وأن القمر أقرب الأجرام السماوية إلى الأرض، وقاسوا مواقع أجرام الشمس والقمر والكواكب، ورصدوا الأعتدلين، وقاسوا محيط الأرض، ورسوموا صور الكوكبات. وأنشأوا المراصد وربطوا بين القمر والمد والجزر، ونسبوا زرقاة السماء إلى انعكاسات الضوء على ذرات الغبار العالق بالجو، ويعزى لبني موسى القول بالجابضية العمومية بين الأجرام السماوية مما يربطها بعضها ببعض. وأن الجاذبية الأرضية عقل الأجسام تقع على الأرض، ويعد سارتون كتاب الصوفي في الكواكب الثابتة أحد الكتب الرئيسية التي اشتهرت في الفلك عند المسلمين.

وقد وضع عبد الرحمن الصوفي مؤلف عن النجوم الثوابت به خرائط مصورة جمع فيها أكثر من ألف نجم، ورسومها كوكبات في صورة الأناسي والحيوان، ولازال

أسماء بعضها مستعملاً حتى الوقت الحاضر مثل الدب الأكبر، والدب الأصفر، والحوت، والعقرب.
وكان هناك من المفكرين العرب من لم يكونوا من المؤمنين بالتنجيم، كالكندي والفارابي وابن
سينا، فيذهب ابن سينا إلى أن قول المنجمين بأثر الكواكب على الناس من خير وشر، إنما هو قول هراء،
وقد أخذوه تقليداً من غير برهان ولا قياس.

ويقول ابن طفيل بوحدة القوانين والأنظمة الكونية، وشمولها فيما يسيطر على النبات والماء
والهواء والجماد، يسيطر على الحيوان والإنسان، وعلى سائر الموجودات، وإن العالم بجملته كشيء
واحد، يتحرك في دائرة من القوانين والأنظمة.

والخلاصة إن العلماء العرب، كانوا يرون في الفلك علماً رياضياً مبنياً على الرصد والحساب،
وعلى فروض تفرض لتعليم ما يرى من الحركات والظواهر الفلكية، وكان أساس تقدم علم الفلك عند
العرب ما أقاموه من مراصد، وما ابتكروه من أجهزة وآلات وأدوات، وما قدموه من أزياج وجداول
فلكية.

وقد قسم المستشرقون تاريخ العلوم العربية على النحو التالي :

أ - المرحلة الأولى : 750م.

ب - مرحلة النقل : 750 - 900م.

ج - العصر الذهبي : 900 - 1200م.

د - عصر الانحطاط : 1200م وما بعدها.

وقد أوحى هذا التقسيم المعروف بأن العرب، بحلول العصر الذهبي 900-1200م تقريباً،
أخذوا يعتمدون مصادرهم ومنابع علومهم الخاصة ويتقدمون بأنفسهم، والواقع أنهم كانوا يعتمدون
مصادرهم منذ كانوا يترجمون، لأنهم ما كانوا يترجمون من أجل الترجمة إنما كانوا يترجمون وفقاً
للمقتضيات البحثية الأصلية.

وتقع فترة الحكم الفاطمي لمصر (969-1171م). (358 - 567هـ) في مرحلة العصر الذهبي

لتاريخ العلوم العربية.

وستتناول في هذا البحث أعمال ثلاثة من أعظم الفلكيين العرب خلال الحكم الفاطمي وهم (ابن يونس المصري - حسن بن الهيثم - علي بن رضوان) حسب الترتيب الزمني لهم. كذلك سنتناول المرصد الفلكية الثلاث التي أقامها الفاطميون في القاهرة (مرصد مسجد فيله - مرصد مسجد الجيوشي - مرصد الوزير المأمون بباب النصر).

الوزارة

مسجد زاوية الجيوشي أو الجامع الجيوشي على متن جبل المُقَطَّم بالقاهرة. بناه الوزير بدرُ

الدين الجمالي عندما تولى شؤون الوزارة بمصر. [120]

كانت الوزارة في العهد الفاطمي الأول وزارة تنفيذ لأنَّ السُّلطات كُلَّها كانت بيد الخليفة. ولم يكن الوُزراء إلا مُعاونين للخليفة يُنفذون سياسته وأوامره. أمَّا في العهد الفاطمي المتأخر، فقد زاد نفوذ الوُزراء وأصبحت لهم كلمة في تسيير الأمور واتخاذ القرارات. ولعلَّ أهم ما يميِّز منصب الوزارة في العصر الفاطمي هو أن الكثير من وزراء الفاطميين كانوا من النصارى واليهود، مثل: عيسى بن نسطورس، ويعقوب بن كلس، وعسلوج بن الحسن. وخلال النصف الثاني من العصر الفاطمي تغلَّب الوُزراء وسيطروا على شؤون الدولة كُلَّها، وسلبوا الخُلفاء كُلَّ سُلطانٍ ونُفوذٍ، حتَّى أطلق البعض على هذا العصر اسم «عصر الوزراء العظام». وبلغ من نفوذ الوُزراء في ذلك العصر أن غلب سُلطانهم على سُلطان الخُلفاء بشكلٍ عام، وزاد نفوذ الوُزراء حتَّى أنَّهم كانوا يُعينون بعض الخُلفاء ويعزلونهم، بل ويتآمرون عليهم، كما إتخذوا ألقابًا كلقب «الملك» وألقابًا أخرى تفيد مزيدًا من التفضيل مثل «الأكمل» و«الأفضل» و«الأشرف»، وأصبحت الوزارة أهم وظائف الدولة وأكبرها، حيثُ تضاءلت إلى جانبها وظيفة الخليفة. وأوَّل هؤلاء الوُزراء كان بدرُ الدين الجمالي،

الذي جمع بين إمارة الجيش والوزارة، وكان الأمر النهائي في الدولة ما عدا في الشؤون الدينية.

القضاء في الحكم الفاطمي

أدى تأسيس الدولة الفاطمية إلى ظهور خلافة جديدة في العالم الإسلامي، تتبع المذهب الشيعي عوضاً عن المذهب السني الذي كانت تتبعه الدولة العباسية، وبالتالي فقد ظهر منصب قاضي قضاة جديد بين المسلمين يوازي قاضي بغداد، إلا أنه يتبع المذهب الإسماعيلي ويستند إليه في أحكامه عوضاً عن الحنفي. وكان يستقر قاضي القضاة عادةً في الجامع الأزهر الذي بناه الفاطميون بعد فتحهم لمصر مباشرة. كان أول قاضي قضاة فاطمي هو النعمان بن محمد الذي عينه الخليفة المعز لدين الله، وقد كان أول من يؤسس نظاماً قضائياً بالدولة الفاطمية. عندما كانت لدى المواطنين مظالم على أمر ما، فإنهم كانوا يتجهون إلى حاجب الخليفة، فينظر الحاجب في المظالم، فإذا كانت صغيرة فإنه يحولها إلى قضاة أو ولاة الدولة، أما إن كانت غير ذلك فإنه يجمعها ويعرضها على الخليفة. أما الأحكام الشرعية فإنها تؤول إلى قاضي القضاة ليحكم فيها، والذي كان يمثل أعلى سلطة قضائية في الدولة. كما كان يوجد منصب يلي قاضي القضاة مباشرة في أهميته وقوته، هو داعي الدعاة. [126] اندثر المذهب الإسماعيلي في مصر مع زوال الدولة الفاطمية، وزال معه منصب قاضي القضاة بمصر وسائر المؤسسة القضائية الفاطمية.

النظام العسكري

كان الداعي أبو عبد الله الشيعي أول من نظم الإسماعيلية تنظيمًا عسكريًا دقيقًا ضمن قيادة موحدة، إذ كان الإسماعيليون من كتامة وغيرهم مُتباعين مُتباعين مكانياً، يقوم على إدارتهم مجموعة من المُتنفذين، مما جعلهم غير قادرين على التحرك الفعال ضد القوى المحلية، فأخرج أبو عبد الله الشيعي هذا التشبث ليُشكّل وحدة

سكريّة ذات قيادة مُوحدة، وانطلق بهم من فج الأخيّار قوّة مُوحّدة فعّالة. [128] أقام أبو عبد الله الشيعي مراكز تدريبٍ عسكريّة بعد التنظيم الذي أحدثه في فرز قياداتٍ تدريبيّةٍ وتسليحٍ قويٍّ، مُستمدًّا ذلك من أموال الزكاة وتلك المفروضة على المُنتميين للدعوة، وهكذا بدت القوّة العسكريّة المُعدّة ذات فاعليّةٍ أرعبت الحُكّام المُجاورين. [128]

شكلت كتامة العنصر الأساسي في الجيش الفاطمي في مرحلة قيام الدولة، ثم انضمت إليه عناصر من عرب إفريقيّة وزويلة والمصامدة والبرقية، وهي العناصر التي دخل بها جوهر الصقلي مصر بالإضافة إلى بعض الروم والصقالبة. وفي عهد العزيز بالله، أدخل العزيز الترك والديلم في جيشه، وأكثر من الاعتماد عليهم. وزاد عليهم الحاكم بأمر الله طائفة من العبيد وبالأخص السود، ثم تضاعف عدد هؤلاء العبيد حتى بلغ عددهم 50,000 في عهد المستنصر بالله. ومع توطي بدر الدين الجمالي الوزارة، أدخل الأرمين في خدمة الجيش الفاطمي. وقد بلغ قوام الجيش الفاطمي في آخر أيام الدولة 40,000 فارس، و 36,000 رجل وعشرة سفن محملة بعشرة آلاف مقاتل. وقد انقسم الجيش الفاطمي إلى ثلاث طبقات. الأمراء وهم قادة الألوف والمئات والعشرات، فخواص الخليفة وحرسه الخاص، ثم الجنود.

أما الأسطول، فبدأ الفاطميون الاهتمام به منذ بداية دولتهم، فأسسوا دار للصناعة في المهديّة للسيطرة على غرب حوض المتوسط. وبعد أن انتقلوا إلى مصر، ابتنوا دارين آخرين في القاهرة، وثالثة في دمياط ورابعة في الإسكندرية، كانوا يصنعون فيهم المراكب الحربيّة من مختلف الأحجام تولت تلك السفن حماية الثغور الفاطمية في البحرين المتوسط والأحمر، وكانت تتمركز في قواعد رئيسية في الإسكندرية ودمياط وعيذاب.

وكان يتولى إدارة الجيش والأسطول ديوان عُرف بديوان الجيش يتولى حصر الجند من حيث الأحياء والأموات والمرضى، بالإضافة إلى تنظيم الرواتب وتوزيعها.

العلاقات مع دُول الجوار

مع الدولة الحمدانيَّة

كان الحمدانيون، وهُم سُلالة عربيَّة شيعيَّة اثنا عشريَّة، يحكُمون الجزيرة الفُراتيَّة وشمال الشَّام بِحُلُول زمن الفتح الفاطمي لِمصر، واتخذوا من حلب عاصمةً لهم. ولمَّا سقطت الدولة الإخشيدية بمصر وبسط الفاطميون حُكمهم على القسم الجنوبي من الشَّام بما فيه فلسطين ودمشق ولُبْنان، توجَّس الحمدانيون خوفًا من التمدد الفاطميَّ شمالًا، رُغم أنَّ أمراء بني حمدان كانوا يُقيمون الخُطبة للخليفة الفاطمي في حمص وحلب، ويرفعون الأذان «بحيِّ على خير العمل مُحَمَّد وعليَّ خير البشر»، إلَّا أنَّهم عارضوا الوُجود الفاطميَّ في بلادهم، لذلك كثيرًا ما ساعدوا القرامطة في حربهم ضدَّ الفاطميين، كما ساعدوا أفتكين التُّركي، أحد موالى مُعزِّ الدولة أحمد بن بويه، الذي حالف الخُلفاء العبَّاسيين لاحقًا، في حربه ضدَّ الفاطميين، لمَّا تغلَّب عليهم وبسط نُفُوذَه على الشَّام سنة 364هـ المُوافقة لِسنة 975م. ولمَّا حاول الفاطميون مدَّ حُكمهم إلى شمال الشَّام، وقف أميرُ حلب «سعدُ الدولة أبو المعالي شريف الحمداني» في وجههم، فلم يخسر سوى حمص التي انضمَّ إليها الحمداني إلى الفاطميين. ولمَّا توفي سعد الدولة، خلفه ابنه «أبو الفضائل سعيد الدولة»، فرأى الفاطميون أنَّ الوقت قد حان لضمِّ بقية الدولة الحمدانيَّة إلى دولتهم، فأرسلوا جيشًا كبيرًا لتحقيق هدفهم. فلم يكن من سعيد الدولة إلَّا أن استنجد بالبيزنطيين الذين كانوا يُعاملونه على أساس مُعاهدة صلح عُقدت بينهما. وقد لبَّى قيصر الروم الإمبراطور يوحنا الأوَّل زمسكيس، الشهرير «بابن الشمشقيق» طلبه وأرسل إليه نجدة كبيرة، مُغتنمًا الفرصة أيضًا ليُحقق سياسة سلفه الإمبراطور نقفور الثاني فوقاس القاضية باسترجاع الأراضي المُقدَّسة من أيدي المُسلمين. [141] وقد بقيت حلب عصيةً على الفاطميين حتَّى توفي سعيد الدولة يوم 15 صَفَر 392هـ المُوافق فيه 3 كانون الثاني (يناير) 1002م، فخلفه مولاة لؤلؤ الخادم السيفي، ولمَّا توفي هذا الأخير في آخر ذي الحُجَّة

سنة 399هـ الموافق فيه 27 تموز (يوليو) 1009م، اعترف ابنه وخليفته منصور بسُلطان الخليفة الفاطمي، فأقام الدُّعوة له في حلب. وفي وقتٍ لاحق، عيّن الحاكم بأمر الله عزيز الدولة فاتك أميراً على حلب، ولقبه بأمر الأُمراء، ليكون بذلك أوّل حاكمٍ فاطميٍّ على المدينة. لكنّ الأخير سُرعان ما أخذ يسيرُ بإمارته نحو الاستقلال، وما لبث أن خرج عن طاعة الحاكم بأمر الله سنة 409هـ المُوافقة لِسنة 1018م، واستقلَّ بحُكم حلب وضرب النُقود باسمه ودعا لنفسه على المنابر. ولم يتمكّن الحاكم بأمر الله من التفرُّغ لحلب بفعل ثورة الأهالي عليه في مصر والشَّام، غير أنّه أمر بإعداد الجيوش إلى المدينة، لكن حصل اختفائه بعد ذلك بوقتٍ قصير، فلم تُسرَّ العساكر الفاطميّة إلى الشَّام. وبعد مقتل عزيز الدولة فاتك، استعاد الفاطميّون مدينة حلب وأخضعوها لحُكمهم طيلة ثماني سنوات، إلى أن سقطت بيد المرديسين يوم السبت في 13 ذي القعدة 415هـ المُوافق فيه 18 كانون الثاني (يناير) 1025م. وبقية حلب طيلة فترة من الزمن تتأرجح بين الحُكم الفاطمي وحُكم أمراء محليين إلى أن سقطت بيد السلاجقة في نهاية المطاف.

مع الدولة الأمويّة الأندلسيّة

في إطار سياسة الفاطميين التوسعية، حرص الفاطميّون على إرسال بعض عيونهم للتمهيد لدعوتهم ونشر المذهب الإسماعيلي في الأندلس كأبي جعفر أحمد بن محمد بن هرون البغدادي الذي دخل الأندلس واعظاً وداعياً، والذي زعم المؤرخ ابن الفرضي أنه دخل الأندلس متجسّساً. غير أن ترسّخ المذهب المالكي بين أهل الأندلس، ومحاربة الدولة للمذهب الشيعي حال دون انتشار هذا المذهب. استفاد الفاطميّون أيضاً من مشاهدات الرحالة ابن حوقل الذي وصف وضع الأندلس السياسي والاقتصادي والعسكري خلال رحلته، في تحديد الوضع الداخلي للأندلس في تلك الفترة.

كما لجأ الفاطميون إلى أساليب أخرى لزعزعة الداخل الأندلسي، عن طريق مُساندة الشائرين على سلطة الأمويين في الأندلس ودعمهم مادياً كعمر بن حفصون الذي نجح الأمير عبد الرحمن بن محمد في ضبط عدد من السفن المحملة بالموُن التي أمدّ الفاطميّون بها ابن حفصون، وأحرقها.

جاءت ردة الفعل الأموية لهذه المحاولات الفاطمية للتدخل في الشأن الداخلي الأندلسي، بأن أعلن الأمير عبد الرحمن بن محمد الخلافة الأموية في الأندلس سنة 316هـ [149] ليُثبت أن دولته ليست أقل من الخلافة العبّاسيّة أو الخلافة الفاطميّة، [150] ومساندة دول قبائل بني يفرن ومغراوة الزناتية في المغرب الأقصى مادياً وعسكرياً لمُجابهة قبائل صنهاجة وكتامة البرنستين المواليين للفاطميين، ولتقف كحاجز أمام التوسع الفاطمي غرباً، بالإضافة إلى الاستيلاء على مرفأ مليلة سنة 314هـ وسبته سنة 319هـ ثم طنجة وهي الموانئ المُقابلة لأرض الأندلس، لتكون خط دفاع أوّلٍ أمام أيّ محاولة عبور للفاطميين. ومن ناحيةٍ أخرى، تحالف عبد الرحمن مع بعض أمراء البربر ومنهم موسى بن أبي العافية أمير مكناسة، وأمدّهم بالمال والسلاح، في معاركهم أمام هجمات الفاطميين. كما كان لدخول الإدارة حُلفاء الفاطميين في طاعة الخليفة عبد الرحمن الناصر لدين الله سنة 332هـ ضربة قاصمة لأطماع الفاطميين في الاستيلاء على تلك المنطقة

لم تتوقف محاولات الفاطميين عند هذا الحدّ ففي سنة 344هـ هاجمت بعض سفن الفاطميين شواطئ ألمرية، وردّ الأسطول الأندلسي على ذلك بالإغارة على شواطئ إفريقية. وفي سنة 347هـ هاجم الأسطول الأندلسي مجدداً شواطئ إفريقية، فردّ الفاطميّون الهُجوم بتسيير جيشٍ ضخّم بقيادة جوهر الصقلي مدعوماً من قبائل صنهاجة، زحف به جوهر إلى المغرب، فبلغ بجيشه المحيط، إلا أن هذا الجيش عاد أدراجه دون الاحتفاظ بما اكتسبه من أراضي. وفي سنة 373هـ أمر الخليفة الفاطمي أبو منصور نزار العزيز بالله نائبه بلقين بن زيري بدعم الحسن بن كتون زعيم

الأدارة لاستعادة ما فقده من أراضٍ على أيدي الأمويين وحلفائهم من زناتة، فسير له الحاجب المنصور جيشًا كثيفًا، انهار أمامه جيش ابن كنون سنة 375هـ الذي استسلم لهذا الجيش، إلا أن المنصور أمر قائد جيشه بقتل ابن كنون، وطرده الأدارة من المغرب.

وفي سنة 387هـ دَعَمَ الحاجب المنصور حملة زيري بن عطية المغراوي للتوسع شرقًا في أراضي قبائل صنهاجة الموالية للفاطميين باسم الخليفة هشام المؤيد بالله.

إلا أنه مع انتقال عاصمة الفاطميين إلى مصر في أواخر القرن الرابع الهجري، خَفَّتْ حدة الاهتمام الفاطمي في التوسع غربًا على حساب دولة الأمويين في الأندلس وحلفائهم.

مع الدولة العبّاسيّة

شهدت العلاقة بين الدولتين الفاطمية والعبّاسيّة تباينًا واضحًا. اعتمدت قوة وضعف تلك العلاقة بين البلدين على مدى قوة تأثير البويهيين وسيطرتهم على الخلافة العبّاسيّة. ففي بداية عصر الدولة الفاطميّة، كان البويهيون في أوج قوتهم وتحكّمهم في دولة الخلافة العبّاسيّة. وكان انتماء البويهيين للمذهب الشيعي الزيدي سببًا في التقارب بين الفاطميين والبويهيين، حيث سمح البويهيون لدعاة الفاطميين بنشر عقائد الإسماعيليّة في أماكن نفوذهم، بل واتجه تفكير معز الدولة البويهي لاستبدال الخلافة العبّاسيّة بالفاطيّة، غير أنه تراجع عن تلك الفكرة خشية غدر الفاطميين به متى تمكنوا من الأمر.

غير أنه ومع ضعف دولة بني بويه، وتمكّن الخلفاء العبّاسيون من التدخل في السياسة مُجددًا، ساءت العلاقات بين الفاطميين والعبّاسيين. ففي سنة 382هـ أوقف الخليفة العبّاسي القادر بالله النواح والبكاء في بغداد في يوم عاشوراء ومن تعليق المسوح. وفي سنة 398هـ قمع القادر بالله تمردًا مسلحًا للشيعه في بغداد دعوا فيه لخلافة الحاكم بأمر الله الفاطمي. [163] وفي سنة 401هـ خلع حاكم الموصل

لماعة الخليفة العباسي، ودعا للفاطميين، فأرسل القادر بالله جيشًا نجح في إعادة الموصل إلى طاعة العباسيين. كما أصدر القادر بالله سنة 402هـ مرسومًا يطعن في نسب الفاطميين، ويحمل توقيع كبار الفقهاء ونقيبى الطالبين الأشراف الشريف الرضي والشريف المرتضى. [165] ظل ذلك العداء مستدامًا حتى نهاية دولة بني بويه بدخول طغرل بك السلجوقي بغداد سنة 447هـ.

مع الدولة القرمطية:

رسمٌ قديمٌ لمكة. هاجمها القرامطة وفتكوا بالحُجاج الوافدين إليها وانتزعوا من الكعبة الحجر الأسود، مما أثار غضب الفاطميين عليهم.

القرامطة طائفةٌ سياسيةٌ - دينيةٌ عُرفت بذلك نسبةً إلى أحد دُعائها: حمدان بن الأشعث الملقَّب «بقرمط». كانت العلاقة بين القرامطة والفاطميين علاقةً وثيقةً بادئ الأمر، لكنَّها انقلبت وأصبحت دمويةً لاحقًا، وقد نشبت بين الطرفين عدَّة مواجهاتٍ مُسلَّحة لأسبابٍ مذهبيةٍ وسياسيةٍ، نظرًا لأنَّ القرامطة انشقوا عن الحركة الإسماعيلية الأم واعتقدوا بعودة الإمام مُحَمَّد بن إسماعيل بصورة المهدي المنتظر، وظنُّوا بأنَّ الإمام عُبيد الله المهدي خدعهم، فأوقفوا الدعوة له، وعارضوه في مسألة العصمة، إذ لم تكن عصمة الأئمة معروفة لأحد عند القرامطة. وكان القرامطة يُيحبون سفك دماء خُصومهم، فأثاروا الرُعب والإرهاب في البصرة والأحواز خلال ثورة الرُّنَج، وفي سنة 286هـ الموافقة لسنة 899م تمكَّن القرامطة برئاسة أبو سعيد الحسن بن بهرام الجنابي من تأسيس دولةٍ مُستقلةٍ في البحرين. وأحد أبو سعيد يعمل بشكلٍ شبه مُستقل عن الإمام عُبيد الله المهدي مُستوحياً لمصلحته الخاصة، وكان ذلك يتعارض مع سياسة الفاطميين وزعامتهم. والرَّاجح أنَّ أبا سعيد لم يكن راضيًا عن زعامة عُبيد الله المهدي للحركة الإسماعيلية وإن كان قد اعترف بِسُلطته بوصفه الرئيس الأعلى للطائفة. وشعر عُبيد الله بهذا الفُتور من جانب أبي سعيد، فشكَّ في إخلاصه له، وعمل على التخلص منه، كما حاول في الوقت نفسه إلغاء مبدأ الوراثة في الحُكم بين

القرامطة كما أرادها زعماءهم، تجنّباً لاستبداد هؤلاء بالأمور دون الفاطميين. وفي سنة 301هـ الموافقة لسنة 914م، اغتيل أبو سعيد في الأحساء، ووُجّهت أصابع الاتهام إلى الفاطميين نظراً لأنّ القاتل كان خادماً صقليّاً، والغلمان الصقالبة كانوا غير مُنتشرين في المشرق، بل في المغرب والأندلس، على أنّه يُحتمل أيضاً أن يكون المُحرّض هو الخليفة العبّاسي.

وأشار بعض المؤرخين أنّ القرامطة حافظوا، رُغم كُُلّ شيءٍ على علاقةٍ شبه طبيعيّة مع الفاطميين نظراً لأنّ الهدف الأسمى لكُُلّ منهما يبقى الإطاحة بالعبّاسيين، وقد توافقت مصالحهما من هذه الناحية، فقبل أنّ اتفاقاً سرّياً عُقد بين زعيم القرامطة أبو طاهر سليمان والإمام عبّيد الله المهدي، بأن يُهاجم الأوّل البصرة ليصرف نظر العبّاسيين عن الحملات الفاطميّة على مصر، ويُثير إرباكهم ويشغّلهم عمّا يجري في المغرب. لكنّ أبا طاهر بالغ في حملاته العسكريّة، وأثبت أنّه كان يعمل لمصلحته الخاصّة من دون التنسيق مع الفاطميين عندما أغار في شهر ذي الحجّة سنة 317هـ الموافق فيه شهر كانون الثاني (يناير) سنة 930م، على مكّة، فعبث بالحجّاج وقتلهم في المسجد الحرام، ونهب أموالهم، واقتلع الحجر الأسود من الكعبة وحمله إلى هجر بالأحساء. فأثار ذلك العمل الخليفة الفاطميّ الذي كتب إلى زعيم القرامطة مُستنكراً ومُحذّراً، وأمره برُدّ الحجر الأسود فوراً وإعادة كسوة الكعبة ورد الأموال التي أخذها من الحجّاج، فلم تلقى رسالته أذاناً صاغية. وفي سنة 332هـ الموافقة لسنة 944م، شهدت الحركة المُرمطيّة انقساماً حاداً، فنادى قسّم من القرامطة بإمامة الخليفة الفاطميّ، بينما نادى قسّمٍ آخرّ بالتقارب مع العبّاسيين، وبالتحديد مع بني بويه المُسيطرين على مُقدرات الخلافة العبّاسيّة. فانتصرت النزعة المناهضة للفاطميين وسادت، ودخل القرامطة في نزاعٍ سافرٍ معهم، رُغم أنّهم أعادوا الحجر الأسود إلى مكّة سنة 339هـ الموافقة لسنة 951م. وفي أيّام العزيز بالله تفاقم خطر القرامطة بالشّام، وكان قد استعصى أمرهما على أبيه المُعزّ لدين الله من قبل، ولم يكد العزيز

يوطد سُلطته في مصر حتى وجّه عنايته لاسترداد الشّام وفلسطين بعد سيطرة القرامطة عليهما، فوجّه جوهرًا الصقليّ إلى القرامطة، لكنّه هُزم ولم يستطع استرداد الشّام وفلسطين، ثم أشار جوهر على العزيز بحرب القرامطة بنفسه، فالتقى بجيوشهما في الرملة فهزّمهم وذلك في مُحرم سنة 368هـ وأراح الدولة من شُرورهم.

مع الدولة السُلجوقيّة:

بعد أن أسقط السلاجقة السنيون دولة بني بويه الشيعية، سادت حالة من الاستياء في مصر الفاطمية، واتجهت سياسة الفاطميين لدعم ثورة أبي الحارث أرسلان البساسيري ماديًا، فتمكن من هزيمة جيش العباسيين في سنجار عام 449 هـ ثم دخل بغداد عام 450 هـ مستغلًا خروج طغرل بك إلى الموصل لإنهاء تمرد أخيه إبراهيم ينال. حينئذ، أجبر البساسيري الخليفة العباسي القائم بأمر الله على كتابة عهد يقر بأحقية الفاطميين في الخلافة دون العباسيين، وحُطب للخليفة الفاطمي المستنصر بالله في بغداد. لم يطل الأمر كثيرًا، فبمجرد عودة طغرل بك من قتال أخيه، حتى هزم البساسيري وقتله وأعاد للخليفة العباسي مكانته.

وفي عام 463 هـ قرر السلطان ألب أرسلان غزو حلب، فرأى أميرها الشيعي محمود بن مرداس الموالي للفاطميين خلع طاعة الفاطميين، وأقام الخطبة للخليفة العباسي القائم بأمر الله والسلطان ألب أرسلان. غير أن ألب أرسلان أصر على أن يكون الأذان على مذهب أهل السنة، فامتنع ابن مرداس عن ذلك، فضرب ألب أرسلان الحصار على حلب، إلى أن يأس ابن مرداس وسلم لألب أرسلان، ليخسر بذلك الفاطميون ظهورًا شيعيًا حال بينهم وبين السلاجقة.

وفي العام نفسه، استطاع أتسز بن أوق الخوارزمي ضم الرملة وبيت المقدس من أيدي الفاطميين، بينما صمدت دمشق أمام حصار السلاجقة.

وفي عام 468 هـ استطاع أئسز الخوارزمي دخول دمشق، وعيّن السلطان ملكشاه أخاه تتش حاكمًا عليها لتتأسس دولة سلاجقة الشام، وتدخل المواجهة المباشرة مع الفاطميين.

وفي عام 491 هـ نجح الأفضل شاهنشاه في استعادة بيت المقدس إلى ملك الفاطميين، غير أن لم يدم طويلاً، ففي العام التالي سقطت المدينة في أيدي الصليبيين لتنتقل المواجهة المباشرة مع الفاطميين هذه المرة إلى عدوهم الجديد الصليبيين.

مع الإمبراطورية البيزنطية:

البعثة الدبلوماسية البلغارية من الإمبراطور شمعون الأول، إلى الخليفة الفاطمي عبّيد الله المهدي، والتي كانت تهدف إلى توحيد الجهود في مواجهة الروم البيزنطيين.

دخلت العلاقات البيزنطية - الفاطمية مرحلة التأزم منذ أن فتح الفاطميون جزيرة صقلية، وتمكنوا من دحر الروم وبسط سيطرتهم على البحر المتوسط، فانزوى الروم في موقفٍ دفاعيٍّ ضد الفاطميين. وحاول الخليفة عبّيد الله المهدي أن يدعم موقفه في مواجهة البيزنطيين عبر عقد تحالفٍ مع البلغار، خصوم بيزنطة، فزارت بعثة دبلوماسية بلاط الخليفة في مدينة المهديّة، ولكن سفينتهم، وبرفقتها السفراء الفاطميون، وقعت في أسر الروم أثناء رجوعها إلى بلادها، فأجهض مشروع التحالف.

وفي منتصف القرن الرابع الهجري، تزامنت توسعات البيزنطيين على حساب الحمدانيين جنوباً مع توسعات الفاطميين في الشام شمالاً والتي بلغت دمشق. وفي سنة 384 هـ حاصرت قوات العزيز بالله الفاطميّ عاصمة الحمدانيين حلب لمدة 13 شهراً، فلجأ أميرها أبو الفضائل بن سعد الدولة الحمداني للاستجداد بالإمبراطور باسيل الثاني البيزنطي فأمدّه بجيش، إلا أنه هُزم أمام جيش الفاطميين،

فأثار ذلك باسيل، فتوجه بنفسه للشام لقتال الفاطميين. كان جيش الفاطميين قد انسحب قبل ذلك إلى دمشق لنقص المؤن، فاكسح البيزنطيون الأراضي حتى بلغوا طرابلس ثم قفلوا عائدين إلى القسطنطينية. غضب العزيز وخرج بجيشه يريد قتال البيزنطيين، إلا أنه توفي في الطريق سنة 386هـ.

وفي عهد الحاكم بأمر الله، دارت معركتان بين الفاطميين والبيزنطيين، الأولى بحرية في صور سنة 388هـ، والثانية برية بالقرب من أنطاكية، انتهتا بانتصار الفاطميين، مما دفع البيزنطيين إلى طلب الصلح، وعقدت هدنة لعشر سنين بين الدولتين.

وفي عهد الظاهر لإعزاز دين الله الفاطمي، دبت الفوضى في الشّام، فأغار البيزنطيون على الشّام، فلجأ الظاهر إلى إبرام هدنة مع الإمبراطور قسطنطين الثامن يعيد الظاهر بموجبها بناء كنيسة القيامة التي هدمها الحاكم بأمر الله الفاطمي، ويُجدد قسطنطين الثامن بناء جامع القسطنطينية الذي كان مُسلمة بن عبد الملك قد بناه سنة 96هـ الموافقة لسنة 714م بعد حصاره للقسطنطينية، وأن تقام الخطبة في الجامع للخليفة الفاطمي.

وفي سنة 446هـ أثناء الشدة المستنصرية، أرسل المُستنصر الفاطمي إلى ثيودورا الثالثة إمبراطورة بيزنطة يدعوها إلى إسعاف مصر بالغلال، فاشترطت أن يكون مُقابل ذلك أن يدعمها المُستنصر بالجند في حالة تعرضت لثورة داخلية، وهو ما رفضه المُستنصر، ولم يتم الاتفاق. غضب المُستنصر وجرّد جيشًا أغار على أعمال أنطاكية، فبعثت بيزنطة بثمانين سفينة هزمت الفاطميين، وأسر قائد جيشهم، فطلب المُستنصر الهدنة. ومع بدأ الحروب الصليبية، انقطعت الصلات المباشرة بين الدولتين، بعد أن تباعدت مناطق نفوذ الدولتين بعد تكوّن الإمارات الصليبية.

مع مملكة بيت المقدس:

وصلت جيوش الحملة الصليبية الأولى إلى مدينة القدس عام 492 هـ (1099م) في وقتٍ كانت المدينة فيه تحت سلطان الدولة الفاطمية، وقد خاضت جيوش الفاطميين معركةً قويّةً للدّفاع عن المدينة، إلا أنّ المعركة انتهت بهزيمة ساحقة ومذبحة راح ضحيتها عشرات الآلاف من المقاتلين وسكان المدينة المسلمين على حدّ سواء. وقد الفاطميون بعد سقوط بيت المقدس آخر أملاكهم في بلاد الشام، ممّا جعل سلطانهم ينحصر في مصر وحدها تقريبًا لمعظم ما تبقي من عصرهم. [94] بعد سقوط القدس بشهور، خاض الفاطميون معركةً أخرى للدّفاع عن مدينة عسقلان، وقاد الجيش الفاطمي وزير الدولة الفاطمي الملك الأفضل بنفسه، إلا أنّه خسر المعركة خسارةً ساحقة. عادت عسقلان فيما بعد إلى سلطان الفاطميين لمدة قصيرة، دامت حتى عام 548 هـ (1153م)، عندما تمكّن الصليبيون من انتزاعها مرّةً أخرى. [190] رغم أنّ فلسطين ظلّت تحت سيطرة مملكة بيت المقدس خلال معظم ما تبقي من العصر الفاطمي، إلا أنّ الخلفاء الفاطميين كانوا يحاولون باستمرارٍ استرداد بعض المدن منها، واستمروا بتسيير الحملات العسكريّة إلى فلسطين مرارًا وتكرارًا، مع أنّ الصليبيين كانوا ينجحون بصّدها.

مع مرور الوقت، أخذت الدولة الفاطميّة تضعف وتنهار من الداخل، أما على الجانب الآخر من الأملاك الصليبيّة في الشام، فقد انبثقت دولة الزنكيين التي نجحت بتوحيد المنطقة تحت سلطه قويّة و متماسكة، وبدأت بإضعاف النفوذ الصليبي في المشرق باستمرار. توجّهت أنظار ين نتيجة هذه التغيرات إلى مصر، لأنّها أصبحت الحلقة الأضعف بالمشرق، وكانت من نتائج ذلك سقوط عسقلان سنة 1153م، إلا أنّ أمد الدولة الفاطمية لم يطل بعد ذلك، فتابع صلاح الدين الأيوبي الحرب مع مملكة بيت المقدس حتى زوالها.

مصر الفاطمية الإسلامية :

أحوال مصر عند الفتح الفاطمي

كانت مصر تتبع الدولة العباسية تبعية أسمية حيث بلغت الخلافة العباسية في بغداد درجة كبيرة من الضعف بحيث لم يعد للخليفة أية سلطة عليها بعد أن أستقل حكام الولايات بولاياتهم مع بقاء اعترافهم بالسيادة الدينية للخلفاء العباسيين ممثلة في ذكر اسم الخليفة العباسي في خطبة الجمعة و نقش اسمه علي السكة (العملة).

فاستقلت مصر أيام الدولة الطولونية ثم الإخشيدية ، كما استقل السامانيين بخراسان و بلاد ما وراء النهر، و أنشأ عبد الرحمن الثالث الخلافة الأموية في الأندلس.

و بلغت الخلافة العباسية ضعفاً كبيراً حتي في عقر دارها فأصبح الخليفة العباسي تحت سيطرة قواده من الفرس و الأتراك الذين جاء بهم ليكونوا جنوداً له بدلاً من العرب، فتحول الأمر أن أصبحوا هم القوة الحقيقية المسيطرة، فقامت الدولة البويهية في العراق و بعض مدن فارس، و الدولة الحمدانية في الموصل و ديار بكر، و الدولة الغزنوية في أفغانستان أولاً ثم ما لبثت أن استولت علي بعض أملاك الدولة السامانية و الدولة البويهية.

علي الرغم أن هذه الدويلات المستقلة كانت تمثل تفتيتاً للخلافة العباسية الجامعة و أدت إلي نزاعات كثيرة فيما بينها، إلا أنها في الوقت نفسه أفرزت قادة أقوياء استطاعوا أن يصدوا هجمات البيزنطيين و أن يوسعوا حدود الأمة الإسلامية بفتح دولاً جديداً ما كانت الخلافة العباسية تستطيع أن تصلها بعد ما حل بها من ضعف و ميل إلي الترف و البذخ ، منها علي سبيل المثال بلاد الهند التي فتحها الدولة الغزنوية و كانت سبباً في دخول الإسلام لشبه القارة الهندية (الهند و باكستان و بنجلادش الآن).

وكثرة الدويلات الإسلامية المنفصلة عن الخلافة العباسية قد أدى أيضاً إلى ظهور مراكز حضارية بجانب بغداد هي عواصم تلك الدويلات مثل القاهرة و قرطبة و طشقند و غيرها مما وسع الزخم الحضاري للحضارة الإسلامية.

الفتح الفاطمي لمصر

حاول الفاطميون فتح مصر ثلاث مرات سابقة حتي تولي الخلافة الفاطمية في بلاد المغرب الخليفة المعز لدين الله الفاطمي سنة 341 هج ، و بدأ في تجهيز جيش ضخم ليفتح به مصر وصل عدده إلى 100 ألف جندي ، وولي علي قيادته جوهر الصقلي .

خرجت الحملة في 14 ربيع ثاني سنة 358 هج / فبراير 969 م من مدينة القيروان بقيادة جوهر الصقلي و دخل الاسكندرية فسلمها أهلها بدون قتال. و أدرك أهل الفسطاط أنه لا قبل لهم بصد جيوش الفاطميين فأرسل الوزير جعفر بن الفرات رسولاً من العلويين إلى جوهر الصقلي يطلب منه الأمان ، ووافق جوهر وكتب عهداً بنشر العدل و بث الطمأنينة و ترك الحرية للمصريين في إقامة شعائرهم الدينية.

وفي 17 شعبان دخل جوهر مصر (الفسطاط) وخرج الوزير جعفر بن الفرات و سائر الأشراف و العلماء في استقباله و رحبوا به ، و عسكر جوهر في الموضع الذي بنا فيه مدينة القاهرة. و هكذا زال سلطان الخلافة العباسية و الحكم الإخشيدي في مصر بدون قتال ولا ضربة سيف واحدة و أصبحت مصر ولاية فاطمية في دولة تمتد من المحيط الأطلسي غرباً إلى البحر الأحمر شرقاً و استمرت كذلك لمدة 200 عام.

عمال جوهرالصقلي في مصر

حكم جوهر الصقلي مصر حوالي ثلاث سنوات من 969 م / 358 هج إلى 972 م / 362 هج كإحدى الولايات الفاطمية نائباً عن الخليفة الفاطمي المعز الله الفاطمي .

كان جوهر الصقلي حاكماً عادلاً يجلس للمظالم بنفسه ويرد الحقوق لأصحابها و يضرب علي أيدي المفسدين و مثيري الإضطرابات. ، كما كان يمنع الجند المغاربة من الإعتداء علي الأهالي.

أسس جوهر الصقلي القاهرة ، رابع عواصم مصر الإسلامية ، لتكون مقراً لحكم الخليفة الفاطمي في مصر. و كان مساحتها الأولية 340 فداناً علي شكل مربع طول ضلعه 1200 متر تقريباً ، و كانت تمتد من منارة جامع الحاكم شمالاً إلي باب زويلة جنوباً و يحد من المدينة شرقاً تلال المقطم و من الغرب الخليج الكبير و من الجنوب مدينة القطائع ، كما قام ببناء سور يحيط بمدينة الجديدة من الطوب اللبن له ثمانية أبواب هي : باب زويلة و باب الفرج من الجنوب و باب الفتوح و باب النصر من الشمال و باب القراطين (باب المحروق) و باب البرقية من الشرق و باب القنطرة في الغرب.

اختط جوهر الصقلي قصرأ كبيراً لإقامة الخليفة الفاطمي و كان يقع بالقرب من السور الشرقي لذلك سمي بالقصر الشرقي. و كان يمتد من الموضع الذي يوجد به المشهد الحسيني الآن إلي الجامع الأقمري تقريباً و كانت له تسعة أبواب: ففي الناحية الشرقية كانت توجد أبواب العيد و الزمرد و قصر الشوك و الناحية الغربية كانت توجد أبواب البحر و الذهب و الزهومة ، و الناحية الجنوبية كانت توجد أبواب تربة الزعفران و الديلم و في الناحية الشمالية باب واحد هو باب الريح.

نشر المذهب الشيعي

عمل الفاطميون منذ أول يوم لهم علي تحويل أهل مصر إلي المذهب الشيعي، و لكن بدون إجبار. فأمر جوهر الصقلي المؤذنين في المساجد بأن يؤذنوا بحي علي خير العمل بدلاً من حي علي الفلاح - و هو مذهب الشيعة في الأذان.

كما أنشأ الجامع الأزهر ليكون مركزاً يتلقي الناس فيه عقائد المذهب الشيعي، و الذي سعي إلي نشره بالطرق السلمية و الترغيب. فكان يقوم بتعيين معتنقي المذهب الشيعي من المصريين في مناصب الدولة المهمة.

بدأ جوهر ببناء للمسجد الجامع ، الذي سمي بعد ذلك جامع الأزهر ، في أبريل سنة 970 م / جمادي الآخر 359 هج، و أمه في يونيو سنة 972 م / 361 هج. و كانت مساحة الأزهر عند بنائه نصف مساحته الحالية التي تبلغ الآن 12000 متراً مربعاً.

الجامع الأزهر بالقاهرة

أقيمت في الجامع الأزهر أول صلاة جمعة يوم 6 رمضان سنة 361 هج، ولاحظ الناس أن الخطيب لم يدع للخليفة العباسي كما كان من قبل، و إنما دعي للخليفة الفاطمي المعز لدين الله. كما أمر جوهر بأن يقال في الخطبة: " اللهم صل علي محمد المصطفى، و علي علي المرتضي، و علي فاطمة البتول، و علي الحسن و الحسين سبطي الرسول، الذين أذهب الله عنهم الرجس و طهرهم تطهيراً، و صل علي الأئمة الطاهرين آباء أمير المؤمنين المعز لدين الله ".

أتبع الفاطميون وسائل مبتكرة في الترويج لمذهبهم الشيعي، فإلي جانب تعيين معتنقي المذهب في مناصب الدولة، لجأ الفاطميون إلي استحداث احتفالات دينية لم تكن موجودة من قبل، و ربطها بمظاهر فرح و طقوس يغلب عليها البهجة و

الاستمتاع، و ذلك لتحبيب الناس في المذهب الجديد. من تلك الاحتفالات الاحتفال بالمولد النبوي الشريف و ليلة النصف من شعبان و عاشوراء و احتفالات شهر رمضان، و ابتداءً أكلات و أغاني مخصوصة لهذه الأعياد منها أكلات الكنافة و القطائف في شهر رمضان، و طبق العاشوراء في مولد عاشوراء، و أغنية و حوي يا و حوي التي يغنيها الأطفال و هم يخرجون بالفوانيس في ليالي رمضان.

ضم الشام و فلسطين لسلطان الفاطميين

كان طموح الفاطميين هو التوسع شرقاً علي حساب الخلافة العباسية، فكلّف جواهر الصقلي لذلك جعفر بن فلاح و هو قائد مغربي من قبيلة كتامة بضم فلسطين و الشام لسلطان الفاطميين، و كانت فلسطين و الشام في ذلك الوقت تحت حكم بقايا الإخشيديين. و دارت معركة فاصلة بين الجيش الفاطمي و جيش الإخشيد بقيادة الحسن بن عبد الله بن طنج، و انتصر فيها الفاطميون و تمكنوا من بسط نفوذهم علي دمشق و فلسطين سنة 969 م / 359 هـج و أصبحت الخطبة في بلاد الشام للخليفة الفاطمي.

و لكن الفاطميون لم يهنأوا طويلاً، فقد انقلب عليهم القرامطة في الجزيرة، علي الرغم أنهم شيعيون أيضاً، و زحفوا علي دمشق و استولوا عليها و هزموا الفاطميين الذين ارتدوا إلي مصر فتبعهم القرامطة داخل مصر و تقابل الجيشان شرق القاهرة، و دارت معركة قاسية استطاع فيها الفاطميون صد القرامطة و ردهم إلي الشام

خرج القائد جواهر الصقلي من قبل المعز لدين الله الفاطمي من شمال أفريقيا في فبراير سنة 969م، علي رأس جيش يربو علي مائة ألف، و سرعان ما وصل الإسكندرية التي دخلها دون عناء يذكر، ثم احتل القسطنطين في يوليو 969م. و خطط مدينة القاهرة، لتكون مقراً لملك الفاطميين، و سرعان ما بنى جواهر الجامع الأزهر بالقاهرة، و لم يكن الغرض من إنشائه أول الأمر إقامة الصلاة فقط، بل استهدف

كذلك نشر الدعوة السياسية وتعليم اللغة العربية والدين، وتربية النشء. وسمي الأزهر، نسبة إلى فاطمة الزهراء التي ينتسب إليها الفاطميون وهو أول مسجد أسس بقاهرة المعز لدين الله الفاطمي.

ويعتبر الخليفة العزيز الفاطمي، أول من أوقف الجامع الأزهر على العلم وأول من أقام الدرس به عام 378هـ فتحول من جامع إلى جامعة إذ ما كاد يتولى الخلافة حتى قام معه وزيره أبو الفرج يعقوب بن كلس، وكان من فحول العلماء بتعيين خمس وثلاثين عالماً لتدريس الفقه على مذهب الفاطميين، ودراسة الأدب وعقائد الدين بالأزهر، وأسماهم المجاورين، إذ ابتنى لهم المنازل المجاورة للجامع، وأسكنهم فيها، وأجرى عليهم الأرزاق والمنح والعطايا. وقد رغب الفاطميون أن يجعلوا الأزهر عظيم الشأن، بحيث يجتذب طلاب العلم من كافة أرجاء البلاد الإسلامية، فكانوا يقدمون إليهم المأكول والمشرب والملبس دون أجر.

وقد جدد بناء الأزهر وزاد فيه الحاكم بأمر الله، وأوقف عليه أوقاف ثابتة، كذلك جدد فيه العزيز بالله والمستنصر بالله وغيرهم من الخلفاء الفاطميين وظل الأزهر كعبة للراغبين في المعرفة، ويقف إلى جانب جامع القرويين في فاس، وجامع الزيتونة في تونس. وزاد إقبال الناس عليه، إذ قضت غزوات المغول على معاهد العلم في الشرق العربي، كما قضى الانحلال والتفكك على معاهده في المغرب العربي كذلك.

كانت القاهرة في العصر الفاطمي عاصمة الشرق ومقر نصف الخلافة الإسلامية التي تقاسمتها مع الخلافة العباسية، وقلب العالم الإسلامي، وكانت قبلها ولاية تابعة، وأصبحت الرأس والعاصمة، تضم كلا من شمال أفريقيا غرباً والشام شرقاً واليمن جنوباً.

وكان سادس الخلفاء الفاطميين هو الحاكم بأمر الله (996_1021م) والذي يصفه المستشرق الألماني ميللر (ما زال الحاكم بأمر الله لغزاً.. فهو من أعجب وأعماق

لشخصيات التي عرفها التاريخ).. أما من يروونه أحد الشخصيات التاريخية البارزة فلأنه أنشأ "دار الحكمة" دار العلم الشهيرة، وتجديد الجامع الأزهر. وكان في عهده بداية بناء المراصد الفلكية في مصر وازدهار العلوم ومنها علم الفلك.

ابن يونس المصري :

هو أبا الحسن علي بن عبد الرحمن بن يونس، بن عبد الرحمن يونس، بن عبد الأعلى الصديقي المصري، ولد بمصر عام 341هـ وتوفي بها سنة 399هـ (1009م) وهو سليل بيت اشتهر بالعلم فأبوه عبد الرحمن ابن يونس، كان محدث مصر ومؤرخها، وأحد العلماء المشهورين فيها، وجده يونس بن عبد الأعلى صاحب الإمام الشافعي ومن المتخصصين بعلم النجوم. وقد قدر الفاطميون علمه وفضله فأجزلوا له العطاء وشجعوه على متابعة بحوثه في الهيئة (علم الفلك) والرياضيات وبنوا له مرصدا على جبل المقطم قرب الفسطاط، وجهزوه بكل ما يلزم من الآلات والأدوات، أمره العزيز الفاطمي أبو الحاكم بأمر الله بأن يصنع زيجاً، فبدأ به في أواخر القرن العشر الميلادي، وأتمه في عهد الحاكم بأمر الله وسماه الزيج الحاكمي، يقول عنه ابن خلدون بأنه زيج كبير يقع في أربعة مجلدات، لم أرى في الأزياج على كثرتها أطول منه. ويقول سيديو عن هذا الزيج (أنه يقوم مقام المجسطي والرسائل التي ألفها علماء بغداد سابقاً، ويشتمل على مقدمة طويلة و 81 فصلاً وقد ترجمه كوسان إلى الفرنسية).

وقد رصد ابن يونس كسوف الشمس وخسوف القمر في القاهرة سنة 978م، وقد وصف في زيجه الحاكمي الطريقة التي أتبعها فلكيو العرب في عصر الخليفة المأمون العباسي في قياس محيط الأرض. وهو الذي اخترع البندول، وبذلك يكون قد سبق جاليليو بعده بقرون، وكان يستعمل لحساب الفترات الزمنية أثناء الرصد. كما استعمل في الساعات الدقاقة.

وقد برع ابن يونس في حساب المثلثات وأجاد فيها، وفاقته بحوثه فيها بحوث كثير من الرياضيين، وقد حل مسائل صعبة في المثلثات الكروية، واستعان في حلها، بالمسقط العمودي للكرة السماوية على كل من المستوى الأفقي ومستوى الزوال. وابتدع قوانين ومعادلات، كان لها قيمة كبرى قبل اكتشاف اللوغاريتمات، إذ يمكن بواسطتها تحويل عمليات الضرب إلى عمليات جمع وفي هذا بعض التسهيل لحلول كثير من المسائل الطويلة المعقدة. ولذلك فإنه يعتبر بحق ممن مهدوا لاكتشاف اللوغاريتمات. وحتى عام 1800م نجد الفرنسي (لابلاس) يستفيد من كتب ابن يونس المصري في دراساته وأبحاثه.

حسن بن الهيثم في مصر الفاطمية :

حسن بن الهيثم (354-430هـ / 965-1038م). أحد علماء ثلاثة يزدهي بهم تاريخ العلم العربي والإسلامي وهم: ابن سينا، وابن الهيثم، والبيروني. بلغت الحضارة العلمية الإسلامية في عهدهم الذروة، وذلك من منتصف القرن العاشر إلى منتصف القرن الحادي عشر الميلادي أو منتصف الرابع إلى منتصف الخامس الهجري، وهو كأحد علماء الطبيعة الإسلاميين، يعتبر الأرفع شأناً والأعلى كعباً والأرسخ قدماً. ولعله في مقدمة علماء الطبيعة في جميع العصور والأحقاب. وقد عرفته أوروبا باسم الهازن، وهو تحريف الحسن، وهو الحسن بن الهيثم ولد في منتصف القرن الرابع الهجري (حوالي 354-965م) وعاش أول أمره في البصرة، ثم انتقل إلى القاهرة بدعوة من الخليفة الحاكم بأمر الله، وفيها عاش أغلب عمره وألف معظم كتبه، وظلت كتبه المرجع الذي يعتمد عليه أهل الصناعة في علم الضوء، حتى القرن السابع عشر الميلادي، وكان يسمى علم المناظير.

وكان لدى الحاكم بأمر الله ميل إلى الحكمة والفلسفة، وكانت له رغبة في تشجيع العلم والعلماء أوى كثير من أطباء عصره وأسس في القاهرة دار الحكمة. وعندما بلغه قول ابن الهيثم: لو كنت بمصر لعملت بنيلها عملاً يحفظ ماءه ويحصل به

النفع في كل حالة من حالاته من زيادة ونقص، فقد بلغني أنه ينحدر من موقع عال، وهو في طرف الإقليم المصري فاشتاق الحاكم بأمر الله إلى رؤيته، ولعله أراد أيضاً أن يأويه إليه، ويشمله بعطفه لكي يستأثر بفخر استغلاله ببرايعته وانتسابه إليه، فأرسل إليه مرغبا إياه في الحضور إلى مصر، وخرج الحاكم بأمر الله بنفسه لاستقباله خارج مدينة القاهرة، وأكرم وفادته، وأمر بإكرام مئواه، ولما أرسل ابن الهيثم على رأس بعثة هندسية بأدق المعاني الحديثة لهذه العبارة، وتبع مجرى النيل من القاهرة إلى جنوب أسوان يدرسه ويعاينه، إلا أنه لم يجد الأمر متفقاً وفكرته الهندسية التي خطرت له، لذلك عاد إلى القاهرة وهو في أشد حالات الخجل واعتذر للحاكم بأمر الله. أثار فشله هذا سخط الحاكم بأمر الله وسخريته، فعين ابن الهيثم في وظيفة إدارية لم تدخل إلى نفسه شيئاً من السرور وشاء سوء طالعها أن يرتكب خطأ، وخشي غضب الحاكم بأمر الله وتنكيله به فتظاهر بالجنون ونجحت هذه الحيلة فحدد الخليفة إقامته في داره وضربت الحراسة عليه وعلى بيته واستولت الحكومة على ممتلكاته. عندما أصبح الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله خطراً على مستقبل البيت الفاطمي، تصدت له أخته سيدة الملك، وأمرت بقتله، عندما أمتطى دابته وصعد إلى جبل المقطم ليتأمل السماء والكون في الليل عام 1021م، حيث خرج الحاكم بأمر الله على دابته ولا يعلم بخروجه أحد وعندما بلغ أبواب القاهرة أختفى ولم يعرف له أثر فكان اختفاؤه لغزاً من الألغاز.

وبذلك استطاع ابن الهيثم أن يتحرر من تحديد إقامته وفرض الحراسة عليه وتأميم ممتلكاته فترك سكنه واتجه إلى حي الأزهر حيث أقام هناك واضطر أن يكتسب قوته عن طرق النسخ، وهكذا قضى هذا الرجل التعس حياته حتى توفي. وقد كلفه بعضهم مرة أن ينسخ له مبادئ أويقليد والماجسطي لبطليموس فنسخهما بدون خطأ وفي غاية الدقة ليستطيع أن يتغلب على متاعب الحياة ويحصل على قوته اليومي. ومن الجدير بالملاحظة أن ابن الهيثم أدرك الأخطاء التي تردى فيها هذان العالمان فعارضهما

وانتقدهما وبين أخطاءهما، فقد قال كل من أويقليد وبطليموس أن العين ترسل أشعة بشرية على الأشياء المراد رؤيتها، فأعلن ابن الهيثم خطأ هذا الرأي، وقال: أن العين لا ترسل شعاعاً، وإن هذا الشعاع ليس هو الذي يسبب الرؤية والعكس هو الصحيح فإن الجسم المرئي هو الذي يرسل أشعة إلى العين وإن عدسة العين هي التي تحوله.

وكان هذا الرأي لابن الهيثم كشافاً جديداً قفز بالعالم العربي بخواص الحواس قفزة بعيدة جداً وصحح الخطأ الذي وقع فيه العالم القديم، وفسر لنا ابن الهيثم الضوء ومظاهره، كما أوجده بذلك قانوناً جديداً أثبت صحته وأيده بتجارب كثيرة مختلفة فكان ابن الهيثم هو صاحب النظريات العلمية المعتمدة على التجارب، وابن الهيثم هو وأمثاله من العلماء العرب هم مؤسسوا الأبحاث التجريبية وليس (روجر بيكون) أو (جليلي)، أو (ليوناردو ديفنشي) أو (باكوفون فرولام)، فالعرب سبقوهم وبلغوا بأبحاثهم التجريبية المستوى الرفيع وأصبح اسم الحسن بن الهيثم هو همزة الوصل وهو النجم الذي أضاء الطريق ومهد لقيام الأبحاث الحديثة بعد أن سبق أوروبا إليها.

فإن الهيثم هو الذي استغل الزمن الذي مضاه مختاراً في سجنه، كما استغل أيضاً الأعوام التي تلت خروجه وقام بأبحاثه العلمية وتجاربه الخاصة بالبصريات الهندسية فخلق بذلك علماً مستقلاً.

تقول الدكتورة سيجريد هونكه في كتابها (شمس الله تشرق على الغرب - فضل العرب على أوروبا) الحسن بن الهيثم (965-1039م) هو الذي أثار في أوروبا تأثيراً بعيداً وعرفته تحت مسمى (الحسن) وكان أشهر الأساتذة العرب الذين أخذوا بيدها في هذا المضمار من البحوث، فقد وضع نظرية حول حركات الأفلاك على أطباق غير شفافة وقد شغلت هذه النظرية العصور الوسطى كثيراً كما خلقت لنا أثراً في المكان الخاص بـ "شتمه" بالقرب من مدينة (إينزبروك) حيث توجد إلى اليوم مائدة من خشب القرو ترجع إلى عام 1428م، وقد صنعت في أوجسبرج، وهي تبين حركات الأفلاك الستة حسب نظريته وفي صورة نموذجية.

لكن شهرة هذا العالم العربي لم تقم على هذه النظرية فقط، فضله على علم الفلك يتجلى في اكتشافه أن جميع الأجرام السماوية ومن بينها النجوم الثابتة ترسل نورها، عدا القمر الذي يستمد نوره من الشمس. وهذه النتيجة التي انتهى إليها ابن الهيثم نقلته إلى فكرة أخرى جديدة أدت إلى ثورة عارمة في علم الفلك فقد عارض ابن الهيثم العالمين الاسكندرانيين (أويقليد) و (بطليموس) فأثبت خطأ نظريتهما، وبذلك نجح في فرض أرائه الجديدة. وكيف يقع خسوف القمر إذا كان القمر جسماً غير مضيء؟ وأنه يستقبل ضوءه من الشمس؟ فمثل هذا السؤال الفلكي دفع ابن الهيثم إلى خلق نظرية خاصة بتكوين الظل عن طريق أجسام نورانية.

قدسية ثبات الكون في فكر العصور الوسطى :

بعد أن انتشرت نظرية أرسطو بشأن كمال السماوات، كان من نتائجها إن أوجدت حائلا للتعرف علي أي نجم جديد . فلما كانت الفكرة القائلة بعدم وجود تغير في السماوات قد ثبتت لدي علماء الفلك باتوا يستنكفون الإبلاغ عن أي تغيير إذا كانوا في أوروبا يخشون أن ينال ذلك من مصداقيتهم و من سمعتهم . ولربما كانوا يغمغمون لأنفسهم بأن الوهن بدأ ينال من بصرهم و بأنهم يعانون خداع النظر . فبهذه الطريقة يتحاشون مغبة الإعلان عن أمر يلقي استهجانا من العامة.

بل أن مسألة الإعلان عن أي تغيير قد تصل إلى حد المساس بالمقدسات فلقد كان علماء الفلك المسيحيون في أوروبا في العصور الوسطى يرون في كمال السموات، لا سيما الشمس، رمزا لكمال الإله. ولما كان السعي إلى اكتشاف خلل في هذا الكمال يحمل تشكيكاً في صنع الله. فهو إذاً من الكبائر. بل أن اعتقادهم بعدم كمال الأرض إما كانوا يعزونه إلى معصية آدم وحواء حيث أكلا من الشجرة المحرمة في جنة عدن، وأن لم يكونا قد فعلا ذلك ربما اكتسبت الأرض صفة الكمال مثل بقية السماوات. ومن ثم فرميا يكون تاريخ الفلك القديم قد شهد ظهور نجوم جديدة بين حين وآخر

ولكن إما لم يرصدها أحد من الفلكيين أولم يصدقوا أعينهم أو أنهم لاذوا بالصمت لمجرد إيثار السلامة.

في عام 1006م رصد نجم جديد في برج لوبوس المجاور لبرج قنطورس غير أنه ظهر أيضا في السماء الجنوبية. كان العرب في ذلك الوقت في قمة تفوقهم العلمي وكانوا أفضل من ممارسون علم الفلك في ذلك الحين. فقد ورد أيضا ذكر ذلك النجم ثلاث مرات على الأقل في مدوناتهم. وكان أفضل من رصده وسجله هو علي بن رضوان العالم العربي المصري والفلكي المسلم الذي رصده من مدينة الفسطاط في 30 إبريل 1006م.

ولا غرابة فيما حظي به النجم الجديد من اتساع مجال رؤيته. فقد أجمعت كل التقارير على شدة بريقه. ويقدر بعض علماء الفلك من العصر الحديث بريقه بأنه ينهاز مائتي مثل بريق كوكب الزهرة في ذروته، أي حوالي عشر بريق القمر وهو بدر. وقد ظل في مرمى البصر لحوالي ثلاث سنوات وإن لم تزد الفترة التي كان فيها أكثر بريقا من الزهرة عن بضعة أسابيع.

وكان النجم الجديد على ارتفاع كاف من خط الأفق يتيح رصده من الجنوب الأوروبي. ولعلنا نتصور علامة الدهشة والرهبة التي ترتسم على وجوه الناس في إيطاليا وأسبانيا وجنوب فرنسا لو أنهم تطلعوا ليلا إلى السماء الجنوبية ورأوا ذلك النجم. لكنهم لم يفعلوا، أو على الأقل ليس هناك ما يدل على ذلك. وقد ورد في السجلات المحفوظة في اثنين من الأديرة، واحد في سويسرا والثاني في إيطاليا، ما يوحي بأن شيئا ظهر في السماء في ذلك العام، مما قد يفسر بأنه نجم ساطع.

ولما كان البعض آنذاك في أوروبا يتوقع أن تحل نهاية العالم بعد نحو ألف عام من مولد المسيح، وبما أن النجم الجديد ظهر عام 1006م، فقد يتبادر إلى الذهن أنه كان أحرى بالأوروبيين أن يعتبروه علامة على هذه النهاية، ولكن حتى هذا الاحتمال المرعب لم يبعث فيما يبدو أحدا على مجرد الإشارة إلى ذلك الحدث.

ويعكس الفكر الأوروبي في العصور الوسطى فإن العقيدة الإسلامية كانت تجيز التأمل والتدبر في خلق الكون وكان الهدف من ذلك هو تقرير حقيقة الألوهية الحقة للذي خلق هذا الكون الموجودة مما يؤدي إلى العبرة والعظة (سريهم آياتنا في الأفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق) سورة فصلت : 52.

وقد أدى ذلك إلى انطلاق العقلية العربية والإسلامية من عقال الجاهلية إلى رحاب الفكر العلمي والمنهج التجريبي وقيام الحضارة العربية الإسلامية والتي وصلت إلى أوجه مجدها وتقدمها وتفوقها في العصور الوسطى بينما كانت أوروبا مازالت ترسف في غياهب الظلام والجهل تحت الإرهاب الفكري للكنيسة الكاثوليكية في روما. ولذلك لم يتردد الفلكيون المسلمون والذي اعترف العالم بعقريتهم من أمثال أبو الريحان البيروني وابن البثاني وابن الشاطر وابن يونس المصري في رصد السماء وتدوين ما يرونه ومحاولة تفسيره علميا بعقلية علمية متحررة من الخزعبلات والإرهاب الديني.

سوبر نوحا علي بن رضوان :

ولد علي بن رضوان بالقرب من القاهرة وعاش خلال الفترة من 998 حتى 1061 ميلادية وكان يعمل بالدرجة الأولى كطبيب وكان له اهتمامات كبيرة بالفلك وألف مجلد هام أسماه (التعليقات على الكتب الأربع لفلك البطالمة) وكان لهذا المجلد تأثير كبير على عالم القرون الوسطى وكان علي بن رضوان قد شاهد النجم المتفجر سوبر نوحا عام 1006 ميلادية عندما كان عمره ثمان سنوات ومع ذلك اعتمد في تسجيل هذه الظاهرة في مجلده على وصف الأكبر سنا منه الذين شاهدوها عام 1006 ميلادي. ويقول في مجلده .

سوف أوصف الآن المشهد الذي رأيته عند بداية تعلمي. هذا المشهد ظهر في برج العقرب في الاتجاه المعاكس للشمس. كانت الشمس في ذلك اليوم على بعد 15 درجة في برج الثور (أي على بعد 15 درجة من بداية برج الثور على الدائرة

لكسوفية) وكان المشهد على بعد 15 درجة من برج العقرب. هذا المشهد كان جسم دائري كبير قطره ما بين 2.5 إلى 3 مرات قطر كوكب الزهرة. وكانت السماء تشع بسبب ضوءه العالي. حيث كان ضوءه يزيد قليلا عن ربع إضاءة القمر. وقد ظل في مكانه إلى أن أصبحت الشمس على بعد ستين درجة منه في برج العذراء (السنبلة) فاخفتى. كل ما ذكرته من تجربتي الشخصية وهناك من المهتمين كانوا يتابعون المشهد وقد توصلوا إلى نفس المعتقد (المستخلص) العلمي. وكان مواقع الكواكب كالتالي :

الشمس والقمر تقابلا عند 15 درجة من برج الثور، وكان زحل يبعد $11^{\circ} 12^{\circ}$ من برج السرطان، وكان المريخ على بعد $19^{\circ} 21^{\circ}$ من برج العقرب. والزهرة على بعد $28^{\circ} 12^{\circ}$ من برج الجوزاء، وعطارد كان على بعد $11^{\circ} 5^{\circ}$ من الثور، وعقدة القمر The moon's node على بعد $28^{\circ} 23^{\circ}$ من برج القوس. والمشهد حدث عند الدرجة 15° من برج العقرب. وكان مطلع الاقتران عندما ظهر المشهد في سماء مدينة الفسطاط على بعد $2^{\circ} 4^{\circ}$ من برج الأسد. وأيضا العشر (المنزل) لبرج الثور كان يبدأ من 27° 26° من برج الحمل.

وقد ذكر علي بن رضوان الحروب والمجاعات والكوارث الأخرى التي حدثت بعد ظهور هذا المشهد من برج العقرب. حيث اعتبر أن هذا نذير شؤم للمسلمين. وقد حسبت إحداثيات الأجرام السماوية والكواكب بواسطة علي بن رضوان باستخدام جداول المجسط البطلمي. وكانت عاصمة المسلمين في مصر في ذاك الوقت هي الفسطاط ذات الإحداثيات (خط عرض 30° وخط طول 31.3°) وهي تقع الآن جنوب شرق القاهرة وتعرف باسم "مصر القديمة". في اتجاه الجنوب الغربي - جنوب وجنوب شرق القاهرة - فإن المنطقة لها مستوى مقبول، لذلك أمكن رؤية النجم المتفجر.

والتعبيرات "Ascendant of Conjunction" و "Beginning of the Tenth House"

تحتاج للتوضيح. حيث أن الاثنان لهما لحظة معينة. فمطلع الاقتران هي

النقطة على دائرة البروج التي تشرق عند زمن مختار، بينما بداية المنزل العاشر هي اللحظة الخاطفة للصعود الأعلى لدائرة البروج.

وبالرغم من أن يوم الأرصاء غير معلوم، إلا أنه يمكن اشتقاقه من مقارنة حسابات علي بن رضوان. فوضع الشمس والقمر والكواكب التي ذكرت بواسطة علي بن رضوان تدل على أن وقت الأرصاء كان يوم 30 إبريل عام 1006 ميلادي. والمواقع التي حسبت بواسطة علي بن رضوان قد تمت مقارنتها بتلك التي تم حسابها بالنظريات الحديثة. وقد تمت الحسابات الحديثة على أساس أن الوقت المحلي لمدينة الفسطاط كان 10.83 ساعة في 30 إبريل 1006. والوقت المحلي هنا يعني الوقت المحلي الظاهري حيث أن هذا النظام كان هو المتبع بكثرة في عالم العصور الوسطى حيث تكون الشمس على دائرة الزوال للرصد في الساعة الثانية وعشر تماماً في الظهر. وقد تم هذا بناء على ما دونه علي بن رضوان حول طالع الاقتران "The Ascendant of the Conjunction" وبداية المنزل العاشر. و "Beginning of the Tenth House" وتأخذ طالع الاقتران ومقداره $4^{\circ} 2'$ في برج الأسد (أي خط الطول 124.03" على الدائرة الكسوفية) فإنه يعطي وقت محلي مقداره 10.84 ساعة يوم 30 إبريل 1006.

وكذلك فإن الوقت المحلي المستنتج من بداية المنزل العاشر كان خط طوله على دائرة الكسوف $26^{\circ} 27'$ في برج الحمل (أي خط طول مقداره 26.45" على دائرة الكسوف) هو 10.82 ساعة. ولكن لماذا اختيار هذا الوقت في الصباح الباكر ليوم 30 إبريل 1006. وهناك تفسير محتمل وهو أن النجم لم يري في الليلة السابقة ليلة (30/29 إبريل) ولكن تمت رؤيته في ليلة (30 إبريل / مايو). ولأسباب تنجمية فإن ابن رضوان حدد هذا الوقت لأول ظهور لهذا النجم المنفجر (سوبر نوبا). والجدول التالي يوضح الأرقام المسجلة في كتاب ابن رضوان وتلك التي تم حسابها بفيلم الفلك الحديث يوم 30 إبريل 1006م عند الوقت المحلي 10.83 ساعة.

خطوط الطول على دائرة الكسوف للقمر والكواكب في الساعة 10.83

صباح 30 إبريل 1006 ميلادية

المحسوب بالفلك الحديث	المسجل في كتاب علي بن رضوان	الجرم السماوي
44.36°	44.5°	1- القمر
44.62	44.5	2- الشمس
34.73	35.22	3- عطارد
72.20	72.47	4- الزهرة
228.02	231.32	5- المريخ
100.62	101.35	6- المشترى
131.95	132.22	7- زحل
263.47	263.57	8- عقدة القمر

وعلي بن رضوان قد يكون قد أخطأ عندما ذكر أن النجم المنفجر (الجديد) كان في الاتجاه المعاكس للشمس على دائرة الكسوف أي من منتصف برج العقرب أي بين 224 و225° على الدائرة الكسوفية. حيث لا بد أن يأخذ هذا الرقم ببعض من الحذر. ولكن أهم ملاحظة موجبة هو وصف ابن رضوان للنجم الجديد بأنه ذو طبيعة ثابتة فيقول: " لقد ظل النجم في مكانه ويتحرك يوماً مع برجه على دائرة الكسوف " بمعنى أنه ثابت في موقعه على دائرة الكسوف رغم حركته اليومية الظاهرية فوق الأفق من الشرق إلى الغرب كسائر باقي النجوم.

ويمكن تحديد اليوم الذي اختفى فيه النجم وذلك من معرفة الحركة الظاهرية للشمس على دائرة الكسوف على مدار العام عندما يكون الفرق ما بين خط طول النجم وخط طول الشمس على الدائرة الكسوفية 60 درجة. ويأخذ أن خط طول

نجم الجديد هو 224.5° على دائرة الكسوف عندما ظهر لأول مرة فإن الشمس ستكون على خط طول 164.5° على دائرة الكسوف عند اختفاء النجم أي عندما تكون الشمس في دائرة العذراء أي ما بين خطي طول 150° و 180° على دائرة الكسوف، كما ذكر علي بن رضوان. وهو يقابل تاريخ 2 سبتمبر 1006 ميلادية عند اختفاء النجم الجديد. ويحتمل أن يكون يوم اختفاء النجم الحقيقي هو حول 2 سبتمبر 1006 بأيام قليلة.

ولقد وصف ابن رضوان بأن النجم كان باهر ومتألق وأن السماء كانت مضاءة من شدة لمعانه والتي كانت تقترب من ربيع إضاءة القمر.

الظاهرة في ضوء علم الفلك الحديث :

ويشير خط العرض المجري العالي للنجم المتفجر في عام 1006 ميلادية وشدته العالية في الإضاءة بأنه كان سوبر نوبا Super nova وبالتالي فإن الاتساع الزاوي لبقاياها سوف تكون أكبر من أي مثال له في العمر.

وفي عام 1965 تم اكتشاف مصدر لموجات الراديو في برج الذئبة ووصف بأنه من مخلفات الانفجار السوبر نوبا الضخم الذي وقع عام 1006 على مسافة لا تزيد على ألف فرسخ فلكي (بارسك) من الأرض وتم ترقيمه وتصنيفه بالكود SN 1006.

ولقد قام الفلكي د. روجر من مرصد الدومينيون للفيزياء الفلكية الراديوية بكندا عام 1988 برصد مخلفات سوبر نوبا علي بن رضوان على التردد 843 ميغا هرتز مما أدى إلى دراستها بطريقة مفصلة بقوة تفريق مقدارها دقيقة قوسية. وفي عام 1993 أعيد رصده بعلماء آخرين وبقوة تفريق أكبر. كما تم رصده للمرة الثالثة عام 1997 بواسطة أشعة الراديو وخط الطيف هـ. ألف. ثم تم رصده بالأقمار الصناعية في الثمانينات من القرن العشرين ومنها القمر الصناعي ROSAT بالأشعة السينية. وقد وضحت صور هذا القمر الصناعي أيضا تطابقاً مع صور أشعة الراديو فالغطاء

مضى عند الحافة وأكثر إضاءة عند الشمال الغربي والجنوب الشرقي للغطاء المستدير. كما تم رصد خطوط طيف سينية مضيئة والتي تعزى إلى إشعاع حراري من صدمة بلازما عالية الحرارة - Shock heated plasma وفي تفسير آخر فإن الأشعة السينية من المستعر SN1006 وهو مخلف سوبر نوكفا علي بن رضوان تشير إلى أن هناك إشعاع غير حراري Synchrotron emission مشابه للأشعة السينية الصادرة من السديم The Crab Nebula. وفي عام 1995 قام العالم الفلكي Koyama وآخرين معه والذي رصد مخلفات سوبر نوكفا علي بن رضوان بأشعة سينية ذات طاقة عالية تصل إلى 8 كيلو إلكترون فولت. وقد اتضح أن الأشعة الصادرة من المستعر هي أشعة غير حرارية Synchrotron Radiation عن الحافة بينما في مركز المستعر هي أشعة حرارية وهذا يعني أن الجسيمات الدقيقة حدث لها عملية تعجيل حتى أصبحت جسيمات ذات طاقة عالية أثناء انفجار النجم وانتقالها من المركز إلى الحافة، وقد أيد هذا الرأي العالم Tanimori مع آخرين من أرصاد لمخلفات النجم المتفجر بأشعة جاما بالأقمار الصناعية عام 1998.

وقد دلت الأرصاد على أن قطر الانفجار 25 سنة ضوئية، ومعنى ذلك أن هذا النجم المنفجر كانت له سرعة انفجار تساوي 6500 كيلو متر في الثانية منذ عام 1006م، وهي سرعة الجسيمات الدقيقة في الفضاء بعد الانفجار والناجمة على انفجار سوبر نوكفا علي بن رضوان.

وهذا يعني أنه إضاءة هذا النجم المتفجر عند انفجاره كان لها القدر - 19 على المقياس المطلق وعلى المقياس الظاهري 10. بمعنى أنه أكثر لمعانا من كوكب الزهرة بمقدار مائتي مرة أو ربع إضاءة القمر عندما يكون بداراً كاملاً.

المراصد الفلكية في مصر الفاطمية الإسلامية :

إن المرصد وهو أكثر المؤسسات التي يمكن اعتبارها قريبة إلى العلوم غير الدينية كان يواجه مشكلات كبيرة إلى أن أصبح جزءاً متكاملًا من الحضارة الإسلامية، لذلك

نجد أنه خلال التاريخ الإسلامي وفي بقاع مختلفة من الامبراطورية الإسلامية هدمت مراصد كثيرة بعد بناؤها وأعدم الوزراء الذين كانوا قائمين عليها وأعدم الفلكيون العاملين بها، إذ تسرب للحاكم أن هذه المراصد تمارس التنجيم، حيث أن العقيدة الإسلامية ضد التنجيم وإدعاء معرفة الغيب. وكان أول مرصد بني في العصر الفاطمي هو ذلك المرصد الذي شيده الفاطميون على جبل المقطم قرب القسطنطينية لابن يونس المصري في أواخر القرن العاشر الميلادي. ومع قرب نهاية القرن الخامس الهجري وبداية القرن الثاني عشر الميلادي أراد الوزير الأفضل أبا القاسم شاهنشاه بن أمير الجيوش (الجيوشي) بدر الجمالي الاحتفال بالذكرى الخمسمائة للهجرة حيث أحضر من بلاد الشام تقويم لما يستأنف من السنين لاستقبال سنة خمسمائة من سنى الهجرة وقيل مائة تقويم أو نحوها، وكانوا منجموا الحضرة يومئذ: ابن الحلبي وابن الهيثم وسهلون وغيرهم كما ورد في ذكر المراصد في كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقرئية تأليف تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي المقرئ المتوفي سنة 845هـ.

وكان أول مسجد بناه الأفضل أبا القاسم شاهنشاه الجيوشي بدر الجمالي لاستخدام سطحه كمرصد هو مسجد فيله في جبل الجرف الواقع إلى الشمال من بركة الحبش بالقاهرة وكان الآلة المستخدمة للرصد هي ذات الحلق وكان قطرها خمسة أمتار. وذات الحلق كانت هي أرفع وأرقى أدوات الرصد الفلكي في العصر الإسلامي في كل البقاع وكان الوزير الأفضل أبا القاسم الجيوشي بدر الجمالي يشرف على تصنيع هذه الحلقة بنفسه وبأموال طائلة من خزائن الدولة.

ذات الحلق :

Armillar آلة من خمس حلقات ودوائر من نحاس، ويمثل أولها دائرة نصف النهار وهو مركز على الأرض ودائرة منطقة البروج ودائرة العرض ودائرة الميل وكذلك الدائرة الشمسية التي يعرف بها سمت الكواكب.

لقد طور المسلمون من صناعة هذه الآلة حتى بلغ قطر حلقاتها النحاسية 3 أمتار ونصف المتر حتى أنه في عام 515هـ في القاهرة صنع ابن قرقة حلقة ذات 5 أمتار وعبر عن ذلك بقوله للأفضل: (وحي نعمتك لو أمكنتني أن أعمل حلقة تكون رجلها الواحدة على الأهرام والأخرى على مسجد التنور عبر النيل فعلت فكلما كبرت الآلة صح التحرير، وأين هذا في العالم العلوي). بمعنى كلما كبر حجم الآلة ازدادت دقتها وبالصغر آلتنا بالنسبة إلى رحابة الكون العظيم، وبذلك نجد أن المسلمين لم يطوروا الآلة فقط وإنما زادوا عليها في حلقات مكنتهم من عمل قياسات أفقية.

الجيب المجيب Sennero Quadrant يتكون من ربع دائرة يطلق عليه الربع المقطوع والربع المقتنر ويعمل من الخشب الجيد أو من البرونز أو الذهب أو الفضة ومعرفة البروج وعلم المزولة .. وغيرها.

بعد اكتمال الحلقة وتركيبها فوق سطح فيله وجدوا أن جبل المقطم يحول رصد الشمس عند شروقها وبالتالي قرروا نقل ذات الحلق إلى سطح مسجد الجيوشي فوق جبل المقطم والذي كان الوزير الأفضل أبا القاسم الجيوشي قد بناه أيضاً. ثم تم سبك حلقة جديدة قطرها 3.5 أمتار تحت إشراف الوزير الأفضل بأموال أقل من خزانة الدولة وتم بها رصد الشمس من فوق سطح مسجد الجيوشي وتم عمل تقاويم عام 513هـ .

وطبقاً للخطة المقرزية (وفي ليلة عيد الفطر عام 515هـ تم اغتيال وقتل الوزير الأفضل الجيوشي. حيث تولى الوزارة بعده القائد أبو عبد الله ودعي بالمأمون بن البطاحي الذي أمر بنقل ذات الحلق إلى باب النصر ورفعها إلى أعلى السطح حيث تمكنتوا من رصد الشمس عند شروقها ثم تم سبك حلقة ثالثة قطرها 2.5 أمتار وقد سمي الوزير المرصد الجديد باباب النصر بأسمه فسماه مرصد المأمون ... مما أثار حفيظة الخليفة الأمر بأحكام الله ... لذلك قبض على الوزير المأمون ليلة السبت

الث شهر رمضان سنة تسع عشر وخمسائة هجرية (519هـ) وكان من جملة ما عدد ذنوبه عمل المرصد المذكور والاجتهاد فيه وقيل أطمعته نفسه في الخلافة بكونه سماه المرصد المأموني ونسبه إلى نفسه ولم ينسبه إلى الخليفة الأمر بأحكام الله، وأما العامة والغوغاء فكانوا يقولون أرادوا أن يخاطبوا زحل وأرادوا أن يعلموا الغيب وقال آخرون منهم عمل هذا للسحر ونحو ذلك من الشناعات، فلما قبض على المأمون بطل وأنكر الخليفة على عمله فلم يجسر أحد أن يذكره وأمر فكسر وحمل إلى المناخات وهرب المستخدمون ومن كان فيه من الخاص وكان فيه من المهندسين رسم خدمته وملازمته في كل يوم بحيث لا يتأخر منه أحد الشيخ أبو جعفر بن حسنداى والقاضي بن ابن العيش والخطيب أبو الحسن علي بن سليمان بن أيوب والشيخ أبو النجا بن سند الساعاتي الإسكندراني المهندس وأبو محمد عبد الكريم الصقلي المهندس وغيرهم من الحساب والمنجمين كابن الحلبي وابن الهيثم وابن نصر تلميذ سهلون وابن دياب وجماعة يحضرون كل يوم إلى ضحوه النهار).

وهكذا أعدم الوزير المأمون .. وهدم مرصد باب النصر - وفر العاملين به .. وهكذا بدأ عصر الانحطاط في تاريخ العلوم في الحضارة العربية والإسلامية .. والذي استمر لمدة ستة قرون .. حتى بدأ عصر التنوير في عهد محمد علي مع بداية القرن التاسع عشر الميلادي في مصر .. وغيرها من الحركات التنويرية في عدد من البلاد العربية والإسلامية.

المجتمع والثقافة

الحياة الاجتماعية

منحوتة من العصر الفاطميّ تعكس الرخاء الذي عاش فيه الحُكّام والطبقة العُليا من الشعب: رجلٌ يحتسي الشراب وآخرٌ ينقرُ على الدف.

قسّم المقرئزي المجتمع الفاطمي اجتماعيًا إلى طبقة الأغنياء وتضم رجال الدولة وكبار التجار، وطبقة متوسطة وتضم متوسطي الحال من التجار وأصحاب المحال والمزارعين، وطبقة الفقراء وتشمل الفقهاء وطلاب العلم والأجراء والحرفيين وذوي الحاجات من المساكين.

أما عرقيًا فقد كان المجتمع المصري قبل وصول الفاطميين يتكون من الأقباط واليهود وأهل السُنّة، ثم دخل البربر والروم والصقالبة مع دخول المُعز لدين الله إلى مصر، ثم التُرك والديلم في عهد العزيز بالله، فالسود والأرمن في عهد المُستنصر بالله.

فانوس رمضان. أحد أبرز المعالم الثقافية الفاطمية التي ما تزال حيّة في مصر والعديد من أنحاء العالم الإسلامي.

شهد العصر الفاطمي عددًا من مظاهر العظمة والأبهة في أوساط الخلفاء والوزراء وكبار رجال الدولة كآماكن الاستجمام التي كانوا ينتقلون إليها وقت الفيضان ومواكب الاحتفالات التي كان لها مواعيد محددة من كل عام.

وقد استحدث الفاطميون عددًا من الأعياد ك رأس السنة الهجرية ومولد النبي والاحتفال بقالفة الحج، إضافة إلى المناسبات الشيعية كعاشوراء ومولد الحسين ومولد السيدة فاطمة ومولد الإمام علي ومولد الحسن ومولد الإمام الحاضر وعيد غدِير خم، كما كانوا يحتفلون بالاحتفالات المصرية ك رأس السنة القبطية، وأعيادًا أخرى كعيد النيروز.

وسنُّ الفاطميّون عدّة سنن أصبحت جُزءًا لا يتجزأ من الثقافة الإسلاميّة عمومًا والمصريّة خصوصًا، وما زال المسلمون المصريون تحديدًا وغيرهم من المسلمين في الدُول والأقاليم المُجاورة يُحيون هذه السنن، ولعلَّ أبرزها هو فانوس رمضان، فقد أعطى الفاطميّون هذا الشهر اهتمامًا خاصًا، فإلى جانب المغزى الديني الكبير، حصل أن وقعت خلاله عدّة أحداث بارزة في التاريخ الفاطمي، كفتح مصر فُيبل حلولة بأيّام، ووضع حجر الأساس للجامع الأزهر (14 رمضان 359هـ) وإقامة الصلاة فيه لأوّل مرّة (7 رمضان 361هـ)، ووُصول الخليفة المُعز لدين الله للفسطاط مساء يوم 7 رمضان سنة 362هـ حيثُ تجمّع الناس وهم يحملون الفوانيس لكي يُنبروا له الطريق. ونقل العامّة عن الخاصّة وأهل الحُكم الاهتمام برمضان، ولمّا كان السهر يحلو خلال ذلك الشهر، كان لابد من الفوانيس.

وكانت الفوانيس سالفة الذكر أيضًا تُنبر المساجد في الليالي، وتُعلّف بالزُجاج المُلوّن لتُعطي تأثيرًا بهيجًا للنظر، وكان الاهتمام بتزيين المساجد يصل أقصى درجاته خلال شهر رمضان. كما كانت الفوانيس والقناديل تُضيئ الشوارع الرئيسيّة المسقوفة، وإلى جانبها البيوت المؤلّفة من عدّة طبقات. وكان يُفرض على أصحاب الحوانيت أسعار مُحددة للبيع، فإذا غشّ أحد الباعة عوقب على الشكل الآتي: يُطاف به على جمل أو على حمارٍ أو بغلٍ في الأسواق ويُجبر على أن يُنادي هو بذنبه، وعُرفت هذه العقوبة لاحقًا باسم «الجُرصة».

وكان الأمن سائدًا في أكثر الأحيان، إلى حدّ أن الحوانيت كانت تُترك مفتوحة ليلاً.

الحياة الفكرية والعلمية:

رسم لأبي زيد الهلالي، أحد القادة العسكريين الفاطميين، والذي أوحى سيرته بكتابة ملحمة تغريبة بني هلال التي ذُكر فيها أن أبا زيد قُتل على يد غريمه ذيب بن غانم.

نهدت الحياة الفكرية في العصر الفاطمي تنوعاً في الإسهامات، فشملت عددًا من الرسائل الأدبية الثرية كرسالة الغفران التي كتبها أبو العلاء المعري في إطار خيالي خصب ردًا على رسالة لابن القارح تخيل فيها المعري رحلة للرجلين في الجنة والجحيم، إضافة إلى الرسالة المصرية لأمية بن أبي الصلت الداني الذي تناولت مصر والمصريين، ذكر فيها محنته في سجن الأفضل شاهنشاه.

واهتموا بلون آخر من الكتابة، وهو كتابة السير الذاتية. من أمثلة هذه السير، سير كافور الإخشيدي والعزیز بالله الفاطمي لأحمد بن عبد الله الفرغاني، وسير أحمد بن طولون وابنه خمارويه ومحمد بن طغج الإخشيدي وسيبويه وكافور الإخشيدي وجوهر الصقلي والمعز لدين الله الفاطمي والعزیز بالله لابن زولاقي وسيرة المعز لدين الله للقاضي النعمان والاعتبار لأسامة بن منقذ وهو سيرة ذاتية لكتابه.

وقد برز من أدباء وكتّاب ذلك العصر الوزير المغربي أبو القاسم الحسين بن علي الذي اختصر كتاب «إصلاح المنطق» لابن السكيت وأسماه «المنخل»، وكتاب «أدب الخواص» الذي احتوى على قديم الشعر وأخبار القدماء وأنسابهم وبعض المواضيع في علوم اللغة، وأبي سعد محمد بن أحمد العميدي الذي ألف عدد من الكتب في البلاغة والعروض والقوافي

وابن الصيرفي الذي صنّف بعض الكتب مثل «منايح القرائح» الذي كتبه مدحًا في الخلفاء الفاطميين و«الإشارة إلى من نال الوزارة» الذي ذكر فيه من تولى الوزارة في مصر إلى عصره والرقيّتي القيرواني الذي صنّف كتابًا في تاريخ إفريقية والمغرب منذ الفتح الإسلامي وحتى القرن الخامس الهجري.

وقد أرخ للدولة الفاطمية الكثيرون كالمسبحي الذي كان له تاريخ يدون به الأحداث والمشاهدات اليومية، إضافة إلى وصف لمصر وأبنيتها وعجائبها وأطعمتها ونيلها وأشعار الشعراء وأخبار المغنين ومجالس القضاة والحكام والأدباء. إضافة إلى غيره من المؤرخين كابن زولاقي وأبو عبد الله محمد بن سلامة القضاعي. أما اللغويين،

فبرز منهم علي بن أحمد المهلبي و ابن بابشاذ وأبو عبد الله محمد بن جعفر القيرواني وابن القطاع الصقلي وأبي بكر الإدفوي.

العلامة أبو علي الحسن بن الحسن بن الهيثم البصري، أبرز علماء العصر الفاطمي ومبتكر علم المناظر.

لعب الشعر أيضًا دورًا هامًا في الحياة الفكرية عند الفاطميين، حيث كان الشعر أحد أدوات دعوتهم السياسية، فخصصوا لهم ديوانًا يتولى أمورهم، واستخدموهم في مدح مذهبهم الديني وعقائدهم وأصولهم وحقهم السياسي في الخلافة، كما اتخذهم الخلفاء والوزراء أداه للمباهاة بالسلطان. وقد تنوعت موضوعات الشعر عند الفاطميين بين مدح للخلفاء والقادة، والتركيز على الأمور السياسية كإبراز أفضلية الفاطميين على العباسيين وأحققتهم بالخلافة، والدينية كالحديث عن وصاية علي وفضل يوم الغدير.

ومن أشهر شعرائهم الرسيون وهم من الأشراف العلويين وينتسبون إلى الشريف الرسي الذي دخل مصر في عهد كافور الإخشيدي، وابن وكيع التنيسي والشريف العقيلي وابن أبي الجوع وابن مكنسة. وقد شجعت عطايا الفاطميين للشعراء الكثيرين على الوفود على بلاطهم طمعًا في عطاياهم كابن هانيء الأندلسي وابن الرقعمق الأنطاكي والرقيق القيرواني وعبد المحسن الصوري وصريع الدلاء البغدادي وأبي الفتيان بن حيوس وأميرة بن أبي الصلت وابن القطاع الصقلي وعمارة اليميني.

ولم يقتصر قرص الشعر على الطامعين في الهبات، بل برز من الفاطميين ووزرائهم من يحسن قرص الشعر كتميم بن المعز والوزير طلائع بن رزيك.

الجامع الأزهر، أبرز مراكز نشر الدعوة الدينيّة والعلوم المختلفة خلال العصر الفاطمي.

وفي إطار سعي الفاطميين لنشر المذهب الإسماعيلي، أنشأ الحاكم بأمر الله دار الحكمة في 10 جمادى الآخرة 395 هـ وأجلس فيه الفقهاء والقراء والمنجمين وعلماء اللغة والنحو والأطباء، وخصص للدار قائمين عليها وخدم وفراشين، كما نُقلت لها الكتب من خزائن القصور. ظلت الدار مفتوحة للعوام حتى أغلقها الأفضل شاهنشاه في ذي الحجة 516 هـ خوفاً من فتنة دينية، إلى أن أمر الخليفة الأمر بأحكام الله وزيره المأمون البطائحي بإعادة فتحها بعد وفاة الأفضل.

لم يكن ذلك هو الاهتمام الفكري الوحيد من جانب الحكام الفاطميين، فقد استهواهم جمع الكتب، فكانت لهم خزانة كتب في القصر الشرقي الكبير احتلت أربعين غرفة منه، واحتوت على مليون وستمائة ألف مجلد منها 2,400 نسخة مزخرفة وملونة من القرآن ومنها بضع وثلاثين نسخة من كتاب العين للخليل بن أحمد منها نسخة بخط الفراهيدي، وعشرين نسخة من تاريخ الطبري منها نسخة بخطه، ومائة نسخة من كتاب الجمهرة لابن دريد. وقد احتوت المكتبة على الآف الكتب في الفقه على سائر المذاهب والنحو واللغة والحديث والتواريخ وسير الملوك والتنجيم والروحانيات والكيمياء.

رغم ذلك، لم تسلم محتويات المكتبة من السلب والنهب، فتعرضت لنهب جنود الدولة نفسها في فترات الفوضى وضعف هيبة الخلفاء، فيحملون منها ما أمكنهم ويبيعونه في السوق، بل واستخدموا جلودها أحياناً لصنع خفافاً لأحذيتهم.

لعب الأزهر والمساجد في العصر الفاطمي دوراً هاماً في الحركة العلمية الدينية، حيث اتخذها الفاطميون قواعد لنشر المذهب الشيعي الإسماعيلي، فأجلسوا فيه دعاة مذهبهم لشرح قواعد الفقه الإسماعيلي للحاضرين. لم يقتصر دور الأزهر الفاطمي على نشر المذهب الإسماعيلي، بل ضم حلقات علمية للمذاهب الأخرى، فكانت به خمس عشرة حلقة للمالكية ومثلها للشافعية وثلاث حلقات لأصحاب أبي حنيفة.

لم يقتصر نشر العلوم على المساجد فقط، بل وكانت قصور بعض الوزراء كيعقوب بن كلس الذي كان محباً للعلم، فكان يجمع العلماء يكتبون القرآن والحديث والأدب والطب، ويُشكّلون المصاحف ويُنقّطونها. بل وألف ابن كلس بنفسه كتباً في القراءات والأديان وآداب الرسول والطب.

وفي مجال العلوم، فبرز عدداً من الأسماء كابن رضوان الذي برز اسمه في الطب والفلك، وابن يونس الذي برع في الرياضيات والفلك، ووضع زيجاً فلكياً أسماه الزيج الحاكمي وابن الهيثم رائد علم البصريات وابن النفيس مكتشف الدورة الدموية الصغرى، وعلي بن عيسى الكحال صاحب كتاب تذكرة الكحالين وابن المقشر وماسويه المارديني وابن بطلان وهم من الأطباء البارزين.

أمّا بالنسبة للمسلمين من غير الشيعة، ولغير المسلمين، فلا يُمكن الحديث عن ملامح عامة لأوضاعهم، وذلك لتباين أسلوب التعااطي معهم من خليفة إلى آخر، فبعض الخلفاء كان متسامحاً لأبعد الحدود مع أهل السنة ومع النصارى واليهود، فأطلق لهم الحرية الدينية والمذهبية، واستوزر منهم ورفع شأنهم، وبعضهم الآخر اضطهدهم اضطهاداً شديداً. فعلى سبيل المثال، اشتهر الخليفة المنصور ومن بعده المعز لدين الله بتسامحه الكبير مع أقباط مصر، وباستمالتهم إليه ومولاتهم له بعد أن اتصل بقيادتهم الدينية وأعلمهم بأنّه سيمنحهم الحرية الدينية بعد أن نالهم الضيم جرّاء الممارسات القمعية التي انتهجها الأخشيديين ضدّهم أواخر عهد دولتهم.

ولمّا فتح الفاطميون مصر، سلك جوهر الصقليّ سلوكاً دبلوماسياً هادئاً مع المصريين، فأعلن في خطبة الجمعة الأمان لأهل السنة وللمسيحيين واليهود، واستقبل ممثّل الأقباط الذي كان يرفع صوته ويقول: «إِنَّا نَنْتَظِرُ وَجُودَكُمْ فِي مِصْرَ بِلَهْفَةٍ الْمُضْطَّهِدِ حَتَّى نَنْعَمَ بِالْحُرِّيَّةِ حَتَّى فِي حَيَاتِنَا الْيَوْمِيَّةِ وَأَمْوَالِنَا وَمُمَارَسَةِ دِيَانَتِنَا».

وكان المعز لدين الله، ابن العزيز، أكثر تسامحاً مع أهل الكتاب من غير المسلمين، فقد جعل عيسى بن نسطورس وزيراً له، وتزوَّج من امرأة مسيحية ملكانية،

وهي أمٌ ولده الحاكم وشقيقة اثنين من البطارقة: أحدهما بطريك كنيسة الإسكندرية، والآخر بطريك كنيسة بيت المقدس، وكان يحتفل مع النصارى ويُشاركهم أعيادهم.

ومن شدة تسامح الخلفاء الفاطميين الأوائل مع أهل الكتاب، قيل بأنهم كانوا يُشجعون إقامة الكنائس والبيع والأديار. بل ربما تولوا إقامتها بأنفسهم أحياناً.

تغيّر وضع اليهود والنصارى مع توالي الحاكم بأمر الله شؤون الخلافة، فقسا عليهم في المعاملة، ويحتمل أن يكون ذلك بسبب ضغط المسلمين بعامة الذين ساء لهم أن يتقرب الخلفاء من غير المسلمين ويُعينوهم في المناصب العليا، فأصدر الحاكم أمراً أنزم أهل الذمة بلبس الغيار، وبوضع زناير ملونة معظما أسود، حول أوساطهم، ولبس العمائم السود على رؤوسهم، وتلفيعات سوداء، وذلك لتمييزهم على المسلمين. وفي وقت لاحق منعهم من الاحتفال بأعيادهم، وأمر بهدم بعض كنائس القاهرة، كما صدر سجل بهدم كنيسة القيامة في بيت المقدس.

كان أهل السنة يُشكلون غالبية الشعب الفاطمي، وكانت أوضاعهم مُتقلبة كأوضاع أهل الكتاب، وفق سياسة الخليفة الفاطمي، وما تملّيه عليه طبيعة الأمور. فمن مظاهر تسامح الخلفاء الفاطميين تعيين بعض علماء أهل السنة في مناصب الوزارة والقضاء، فعلى سبيل المثال، أنشأ الحاكم بأمر الله مدرسة لتعليم الفقه المالكي، وأهداها دار كتب، وعيّن أبا بكر الأنطاكي ناظراً لها، وخلع عليه وعلى مُدرسيها وأجلسهم في مجلسه.

كما أقدم على تعيين ابن أبي العوام قاضيًا للقضاة، وعندما قال أعوانه له: «إنه ليس على مذهبك ولا على مذهب من سلف من آبائك»، قال: «هو ثقة مأمون مصري عارف بالقضاء وبأهل البلد، وما في المصريين من يُصلح لهذا الأمر غيره».

ومن مظاهر التعصب ضد أهل السنة شيوع سب الصحابة وكتابة ذلك على جدران المساجد والحوانيت والمقابر والدور، وتلوينها بالأصباغ والذهب، ومنع صلاتي

التراويح والضُحى في جميع مساجد مصر زمن الخليفة سالف الذكر، تحت طائلة ضرب وتشهير من يؤديها.

وكان الؤلاة والأمرء يُطبِقون سياسة الخليفة في ولاياتهم القاضية بالتساهل أو التشدد مع أهل السُنَّة، فقد قبض نائب دمشق «تموصلت الأسود البربري» على رجلٍ مغربيٍّ في المدينة وضربه لارتكابه ذنبًا لم يذكره المؤرخون، لكن يُرجَّح أنه مذهبِيٌّ، بدليل أنَّه طيف به في شوارع المدينة، ونودي عليه: «هذا جزاءٌ من يُحب أبا بكرٍ وعُمر».

ظهرت خلال العصر الفاطمي عدَّة طوائف وجماعات دينية انشقت عن الإسماعيلية، ومن هذه الطائفة الدرزية، وتفصيل ذلك أنَّ الحاكم بأمر الله أرسل إلى الشَّام داعيةً اسمه «مُحمَّد بن إسماعيل الدرزي» لينشر الدعوة بين أبنائها، فنزل الدرزي في وادي التيم من البقاع، حيث كثر أتباعه، ولكنَّ الدرزي شدَّ عن الدعوة التي أوفده الحاكم لنشر مبادئها، ودعا لنفسه، فنبذه أتباعه وقتلوه وتبرأوا من الانتساب إليه. وكثر الدعاة وكثُر الموحدون الدرود في وادي التيم، ومنه انتشروا في صفد وجبل لبنان وحووران والكرمل. وكان من أبرز الدعاة حمزة بن عليّ الروزني، الذي يعود الفضل إليه في توطيد الدعوة وصيانتها ووضع أسس المذهب وفلسفته.

الحياة الاقتصادية

كان الإمام عُبيد الله المهدي أوَّل من نظَّم ماليَّة الدولة تنظيمًا دقيقًا، فقد وضع جميع الأموال المجموعة في الأمصار تحت تصرُّفه جاعلاً لها بيت مالٍ موحَّد، فلمَّا وصل الإمام إلى بلاد كتامة وحلَّ في إيكجان، أمر بإحضار الأموال التي كانت عند الدعاة وأمرء القبائل والمشايخ، فأحضرها إليه فقبضها، وبعد ذلك نظَّم الجباية والضرائب والمكوس، ثمَّ شدَّ المال أحمالاً سيرها معه حيث استخدمت لصالح الدولة. وقد أقام ديوانًا للمالية يُشرف على تسيير أمورها، فانتعشت الدولة وبدأ فيها الرفاه.

«الفتحاء الإسلامية». إحدى أبرز المنحوتات الفاطمية المُقتبسة عن الفارسية الساسانية، وهي

لكائُن الفتحاء (الشيردال) الخُرَافِي.

اعتنى الفاطميون بالزراعة لأنها مورد مصر والشام الأؤل. ومن أهم ما أنتجته ضفُتَا النيل
الخصبتان: القمح، والذرة، والقطن، وقصب السكر. [202] واشتهرت سواحل الشام بالحمضيات على
أنواعها، كما اشتهرت سُفوحُ جبالها بالثفَاح، وكثرت في سُهلها الداخليّة أنواع العنب. كما عُرفت ألبانُ
الشام وعسلها بالجودة. [232] وأهمُ الصناعات الفاطمية كانت صناعة البناء، وصناعة الحفر على
العاج والخشب، وصناعة التماثيل من البرونز والنحاس. والمنسوجات صناعةً فاطميةً مشهورة، وقد
كثرت فيها صور الحيوانات كالغزلان والأرانب والسباع، كما كانت تُزخرف بالخط العربي.

ويلاحظ أنُ الفاطميين في هذا المجال خالفوا دُول الخِلافة السابقة عليهم، فقد استباحوا
تصوير الكائنات والأشخاص على مُنتجاتهم وحرَفياتهم على عكس أهل السُنّة، الذين كثيراً ما تجنّبوا
ذلك خوفاً ممّا جاءت به الأحاديث النبوية من مُعاقبة المصورين يوم القيامة، ولكن نظراً لاختلاف
تأويل بعض الأحاديث بين أهل السُنّة والشيعة، ومُعارضة الفاطميين لعددٍ من التعاليم الفقهية
السُنّة، فقد زالوا مهنة التصوير، وتأثرت مصنوعاتهم تأثراً كبيراً بالمصنوعات الفارسية الساسانية
القديمة.

من أبرز الصناعات الفاطمية التي شاعت في الشام أيضاً: صناعة الثياب المُقَصّبة وصناعة
الطنافس. وتنفّقت مدينة صور بصناعة الخرز والزُجاج واستخراج السُكّر، كما اشتهرت طرابلس
بصناعة الورق للكتابة. وكانت مرفأ السّاحل اللبّاني سوقاً رائجة لكل المُنتجات الزراعيّة والصناعيّة،
كما كانت مركزاً لتصديرها إلى مُدن حوض البحر المُتوسّط.

ومن الصناعات الرائجة الأخرى خلال العهد الفاطمي: صناعة الخزف وتجليد
الكتب والرسم على الأطباق المعدنية. وقد نشطت هذه الصناعات بفعل رواج

الحركة التجارية، فقد كان التجار يتنقلون بين مصر والشام شرقاً إلى العراق وفارس وخراسان والهند والصين، وبين مصر والمُدن الأوروبية، وخاصَّةً جنوة والبندقية في إيطاليا.

أصيب الازدهار الاقتصادي الفاطمي بنكسةٍ عظيمةٍ زمن المُستنصر بالله، فأصبحت البلاد بـقحطٍ مُروعٍ أتى على الأخضر واليابس فعُمت المسغبة البلاد وتضوّر الناسُ جوعاً وقد أطلق المؤرخون على هذا القحط اسم الشدة العظمى لفظاعته وهوله، و«الشدة المُستنصرية» كونها وقعت في عهد المُستنصر. وآل الأمر إلى أن باع المُستنصر كُل ما في قصره من ذخائر وثياب وأثاث وسلاح وغيره وصار يجلس على حصي، وتعطلت دواوينه وذهب وقاره وكانت نساء القصور تخرجن ناشرات شعورهن تصحن «الجوع ! الجوع!» تردن المسير إلى العراق فتسقطن عند المصلى وتمت جوعاً. واضطّر المُستنصر إلى بيع حلية قبور آبائه حتّى، واستمرّ الوضع هكذا حتّى انتهى القحط وتساقطت الأمطار وعاد النيل للجريان.

الحياة الدينية:

طالع أيضاً: إسماعيلية الحشاشون موحدون دروز

كان دينُ الدولة الفاطمية الرسمي هو الإسلام، ومذهبها هو المذهب الشيعي الإسماعيلي، وهو مذهبُ الخُلفاء وكبار رجالات الدولة، واعتنقه قسمٌ من الشعب المُوالي للسلطة، كالكثامين البربر وبعض من الصقالبة والروم وغيرهم من الأجانب الذين دخلوا مصر جنوداً في الجيش الفاطمي. وكانت مذاهب أهل السنة والجماعة: الحنفيّة، والمالكيّة، والشافعيّة، والحنبليّة، هي الأكثر انتشاراً على المُستوى الشعبي، ومردٌ ذلك أنّ الفاطميّون في بداية عهدهم اتبعوا وصيّة الداعي أبو عبد الله الشيعي القائل: «إِنَّ دَوْلَتَنَا دَوْلَةٌ حُجْبَةٌ وَبَيَانٍ، وَلَيْسَتْ دَوْلَةٌ قَهْرٍ وَاسْتِطَالَةٍ، فَاتْرَكُوا النَّاسَ عَلَى مَذَاهِبِهِمْ، وَلَا تَلْزِمُوهُمْ بِاتِّبَاعِ الدَّعْوَةِ الْهَادِيَةِ الْمَهْدِيَةِ»، فلم يفرضوا التشيع بالقوّة، بل عمدوا إلى الدعوة ونشر الدعاة في طول البلاد وعرضها لحث الناس على اعتناق

المذهب الإسماعيلي. وكان الدعاة الفاطميون نوعين: الدعاة الشعبيون ولهم أعمال تتعلق بالإعداد الشعبي لإثارة الناس ضد الحكم، والدعاة الدينيون المختصون بنشر فكرة الدعوة الإسماعيلية في صفوف الشعب. وقد نشط الدعاة نشاطاً عظيماً في بداية عهد الدولة وخلال عصرها الذهبي، فاستجابت لهم بعض قبائل كنانة في الفسطاط وجنوبها، وأخذت تُنادي بالخليفة الفاطمي المعز لدين الله إماماً وارتبطوا به عقائدياً. وقد أمد الخلفاء الفاطميون هذه الدعوات بكل ما تحتاجه من تمويل مادي ومعنوي خلال عصر الدولة الذهبي، واشتهر المعز لدين الله بعنايته الشديدة لجهاز الدعوة المذكور، حتى أشير بأن الدعاة وصلوا الأراضي الصينية الخاضعة لأسرة سونگ في أيامه.

وكان الخلفاء يخلعون على الدعاة النعم والأموال تقديراً لخدمتهم المذهب الإسماعيلي وإخلاصهم للإمام، فما هو ذا أحد أشهر الدعاة والمُلقَّب بفيلسوف الدعوة أحمد حميد الدين الكرمانى يتحدث عن النعم الكثيرة التي أولاه إياها الحاكم بأمر الله فيقول: «وَقَضَاءٌ بِحَقِّ النُّعْمَةِ فِيمَا أَوْلَايَتُهُ وَبِإِلهِ فِي أَرْضِهِ، صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِ وَبَرَكَاتِهِ الَّتِي أَصْبَحْتُ بِهَا فِي نِعْمَةٍ تَامَّةٍ وَرَوْضَةٍ مُدْهَمَةٍ، مَا وَهَّاءَ مَعِينٌ وَهَوَّأَهَا عَلَى الْمُرَادِ مَعِينٌ، وَكَأَنَّهَا حُورٌ الْعَيْنِ، ثُمَّ شُكِرًا عَلَى الْمُؤَهَّبِ، وَطَالِبًا لِلْأَجْرِ وَالْمَثُوبَةِ».

ودرجات الدعاة عند الإسماعيلية سبع، هي: «الباب»، وهي أعلى درجات الدعاة، ومما يصل إليها إلا أفراد قلائل، وأحيط من يشغل هذه الدرجة بسريرة تامة حتى في عصر الظهور. و«الحجة» أو «داعي الدعاة» ويكون بجانب الإمام وله الإشراف على كل شيء يتصل بالدعوة، و«داعي البلاغ» وله رتبة الاحتجاج، و«الداعي المطلق» وله رتبة تعريف التأويل بالباطن، و«الداعي المحدود» وله التعريف بالعبادات الظاهرة، و«الداعي المأذون» وله أخذ العهد والميثاق، و«الداعي المكالب» أو «المكاسر»، وهو الذي يستميل الناس إلى المذهب الإسماعيلي.

خلفاء الفاطميين

عبيد الله المهدي

عبيد الله بن الحسين المهدي يُعْتَبَرُ مُؤَسِّسَ سَلَالَةِ الْفَاطِمِيِّينَ، وَهِيَ الدَّوْلَةُ الشَّيْعِيَّةُ الْوَحِيدَةُ الَّتِي حَكَمَتْ عُمُومَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى غَرَارِ الْخِلَافَةِ الْأُمَوِيَّةِ وَالْعَبَّاسِيَّةِ، وَأُسِّسَتْ حُكْمَ الْفَاطِمِيِّينَ فِي كَافَةِ أَنْحَاءِ مُعْظَمِ شَمَالِ أَفْرِيْقِيَا.

يُعْتَبَرُ مُؤَسِّسُ السَّلَالَةِ الْفَاطِمِيَّةِ وَالْإِمَامُ الْحَادِي عَشَرَ لِلشَّيْعَةِ الْإِسْمَاعِيلِيَّةِ الْمَشْهُورِ أَنَّهُ عَبِيدُ اللَّهِ بْنِ الْحُسَيْنِ الزُّكِيِّ عَبْدُ اللَّهِ وَالْمُتَّفِقُ عَلَيْهِ عِنْدَ الشَّيْعَةِ الْإِسْمَاعِيلِيَّةِ وَأَيْضًا إِيدُهُ الْمَقْرِيْزِيُّ وَابْنُ خَلْدُونَ وَيُنَاءُ عَلَى هَذَا يَرْجِعُ نَسَبُهُ إِلَى فَاطِمَةَ الزَّهْرَاءِ، بِنْتِ نَبِيِّ الْإِسْلَامِ، مُحَمَّدٍ، مِنْ خِلَالِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ.

نَسَبُهُ

أَنْكَرَ بَعْضُ الْمُوَازِحِينَ نَسَبَهُ إِلَى فَاطِمَةَ الزَّهْرَاءِ أَمْثَالِ ابْنِ حَزْمٍ وَالسِّيُوطِيِّ وَغَيْرِهِمَا وَإِنْكَارَ نَسَبِهِ بِدَأً بِصِفَةِ عَامَةٍ فِي عَامِ 1011، عِنْدَمَا أَصْدَرَ الْخَلِيفَةُ الْعَبَّاسِيُّ فِي بَغْدَادٍ وَثِيقَةً وَقَعَتْ مِنْ قِبَلِ الْعُلَمَاءِ السُّنَّةِ وَالشَّيْعَةِ الْمُخْتَلِفِينَ فِي بَغْدَادٍ، تَدْعِي بِأَنَّ السَّلَالَةَ الْحَقِيقِيَّةَ لَهُ مِنْ دِيصَانَ، بَدَلًا مِنْ بِنْتِ رَسُولِ اللَّهِ فَاطِمَةَ الزَّهْرَاءِ.

وَبِالْتَّالِي لَا يَسْتَطِيعُ أَحَدُ الْقَطْعِ بِرَأْيٍ حَاسِمٍ فِي نَسَبِ "عَبِيدِ اللَّهِ الْمَهْدِيِّ"، فَإِنَّ الشَّيْعَةَ الْإِسْمَاعِيلِيَّةَ يُؤَكِّدُونَ صِحَّةَ نَسَبِهِ إِلَى مُحَمَّدِ بْنِ إِسْمَاعِيلِ بْنِ جَعْفَرِ الصَّادِقِ، فِي حِينٍ يَذْهَبُ بَعْضُ الْمُوَازِحِينَ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ وَبَعْضُ خُصُومِ الْفَاطِمِيِّينَ مِنَ الشَّيْعَةِ إِلَى إِنْكَارِ نَسَبِ عَبِيدِ اللَّهِ إِلَى عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ.

وَلَكِنْ عَلَى آيَةِ حَالٍ نَحْنُ أَمَامَ رَجُلٍ يُسَمَّى عَبِيدِ اللَّهِ، وَيَدْعِي أَنَّهُ صَاحِبُ الْحَقِّ فِي إِمَامَةِ الْمُسْلِمِينَ، وَأَنَّهُ مِنْ سَلَالَةِ الْإِمَامِ جَعْفَرِ الصَّادِقِ، وَقَدْ نَجَحَ أَحَدُ دَعَايِهِ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الشَّيْعِيِّ فِي إِقَامَةِ دَوْلَةٍ بِاسْمِهِ فِي إِقْلِيمِ إِفْرِيْقِيَّةِ، وَجِزءٍ كَبِيرٍ مِنَ الْمَغْرِبِ الْأَوْسَطِ. ثُمَّ

ذهب المعز لدين الله الفاطمي إلى مصر وتم تأسيس مدينة القاهرة على يد جوهر الصقلي.

خروجه

خرج عبيد الله المهدي من مكمنه في "سلمية" من أرض حمص ببلاد الشام في سنة (292 هـ = 905م)، واتجه إلى المغرب، بعد الأنباء التي وصلته عن نجاح داعيته أبي عبد الله الشيعي في المغرب، وإلحاق كتامة القبيلة البربرية في إظهار شخصية الإمام الذي يقاتلون من أجله، وبعد رحلة شاقة نجح عبيد الله المهدي في الوصول إلى "سجلماسة" متخفياً في زي التجار، واستقر بها.

ومن ملجئه في سجلماسة في المغرب الأقصى أخذ عبيد الله المهدي يتصل سراً بأبي عبد الله الشيعي الذي كان يطلعه على مجريات الأمور، ثم لم يلبث أن اكتشف "اليسع بن مدرار" أمير سجلماسة أمر عبيد الله؛ فقبض عليه وعلى ابنه "أبي القاسم" وحبسهما، وظلا في السجن حتى أخرجهما أبو عبد الله الشيعي بعد قضائه على دولة الأغالبة.

وكان أبو عبد الله الشيعي حين علم بخبر سجنهما قد عزم على السير بقواته لتخليصهما من السجن، فاستخلف أخاه "أبا العباس" واتجه إلى سجلماسة، ومر في طريقه إليها على "تاهرت" حاضرة الدولة الرستمية فاستولى عليها، وقضى على حكم الرستميين، وبلغ سجلماسة فحاصرها حتى سقطت في يده، وأخرج المهدي وابنه من السجن.

ويذكر المؤرخون أن أبا عبد الله الشيعي حين أبصر عبيد الله المهدي ترجلاً وقابله بكل احترام وإجلال، وقال لمن معه: هذا مولاي ومولاكم قد أنجز الله وعده وأعطاه حقه وأظهر أمره.

وأقام أبو عبد الله الشيعي وعبيد الله المهدي في سجلماسة أربعين يوماً، ثم رحلوا عائدين فدخلوا رقادة في يوم الخميس الموافق (20 من شهر ربيع الآخر 297هـ = 7 من يناير 910م).

وخرج أهل القيروان مع أهل رقادة يرحبون بالإمام المهدي، وفي يوم الجمعة التالي أمر عبيد الله أن يُذكر اسمه في الخطبة في كل من رقادة والقيروان، معلناً بذلك قيام الدولة الفاطمية. وقد اختط عبيد الله المهدي مدينة المهديّة وجعلها عاصمة لدولته بحكم موقعها المتميز، إذ أنها عبارة عن شبه جزيرة متصلة بالبر من جهة واحدة، فأنشأ فيها قصره، ثم قصر ولده القائم بأمر الله، كما أحاطها بسور منيع لدرء الحملات البحرية.

وإلى جانب المهديّة أقام المهدي زويلة التي بدأت أولاً بوصفها سوقاً عامّة يجتمع فيها تجار القبائل فيبيعون ويشترون، وأرادها أن تكون - بالإضافة إلى دورها الاقتصادي - تجمعاً تختلط فيه القبائل وتشارك في معاشها إمعاناً في تحصين المهديّة وحمايتها.

خلافة عبيد الله

استهدف عبيد الله الفاطمي منذ أن بويع بالخلافة واستقامت له الأمور أن يدعم مركزه، وأن تكون كل السلطات في يديه، وأن يكون السيد المطلق على الدولة الناشئة والدعوة الإسماعيلية. وكان لا بد من أن يصطدم مع أبي عبد الله الشيعي مؤسس الدولة، ولم يجد غضاضة في التخلص منه بالقتل في سنة (298هـ = 911م) بعد أن أقام له دعائم ملكه، وأنشأ دولة بدهائه وذكائه قبل سيفه وقوته، إلا أنه من ناحية أخرى شهد جنازته وأثنى عليه وذكر فضله.

أثار مقتل أبي عبد الله الشيعي فتنة كبيرة قام بها أتباعه من أهل كتامة، وقدّموا طفلاً ادعوا أنه المهدي المنتظر، وامتدت هذه الدعوة وقويت، واضطر عبيد الله إلى إرسال حملة قوية إلى أرض كتامة بقيادة ابنه لقمع هذه الفتنة، فألحق بهم الهزيمة، ويرد لدى بعض المؤرخين أنه قتل الطفل الذي ولّوه باسم المهدي.

وفاة عبيد الله المهدي

وبعد فترة حكم ناهزت ربع قرن من الزمان توفي المهدي في (15 من ربيع الأول 322 هـ = 5 من مارس 934م) وخلفه ابنه محمد القائم بأمر الله، وكانت فترة عبيد الله المهدي بمثابة عهد التأسيس وإرساء القواعد، بعد عهد التمهيد والإعداد على يد الداعي أبي عبد الله الشيعي.

الخلافة الثاني: القائم بأمر الله

هو محمد بن عبيد الله بن الحسين القائم بأمر الله الخليفة الفاطمي الثاني والإمام الثاني عشر في سلسلة أئمة الشيعة الإسماعيلية.

تولى الخلافة عام 322 هجري بعد وفاة أبيه عبيد الله المهدي

وفي عهده بل في نفس العام الذي تولى فيه الحكم توجه جيش الفاطميين إلى الإسكندرية في مصر التي كانت تحت حكم الإخشيد ولكن لحقت بالفاطميين هزيمة ولم يتمكنوا من دخولها.

وفي عهده أيضاً غزا الأسطول الفاطمي جنوة الإيطالية وجزيرة سردينيا

وفي عهده كانت مقاومة ثورة الخوارج التي كانت بزعامة ابن كيداد في وادي الملح ولكن بقتل القائد الفاطمي ويستمر ابن كيداد في توسعته.

توفي القائم عام 334 هجري وخلفه ابنه المنصور إسماعيل.

ال خليفة الثالث: المنصور بالله الفاطمي

هو إسماعيل بن محمد بن عبيد الله الملقب بالمنصور بالله تولى حكم الدولة الفاطمية بعد وفاة أبيه القائم بأمر الله عام 334 هجري. وهو الإمام الثالث عشر في سلسلة أئمة الإسماعيلية ولم تدم فترة خلافته طويلاً حيث مات في عام 341 هجرياً.

ال خليفة الرابع: المعز لدين الله

معد المعز لدين الله، المعز أبو همام معد بن منصور (المهدية حوالي 932 - القاهرة 975) هو رابع الخلفاء الفاطميين في إفريقية (تونس حالياً) وأول الخلفاء الفاطميين في مصر. والإمام الرابع عشر من أئمة الإسماعيلية حكم من 953 حتى 975. وقد أرسل أكفاً قواده وهو جوهر الصقلي للاستيلاء على مصر من العباسيين فدخلها وأسس مدينة القاهرة بالقرب من الفسطاط، والتي تعتبر أول عاصمة للعرب في مصر.

وقد تحدثنا عنه في جانب من الكتاب

ال خليفة الخامس: العزيز بالله الفاطمي

العزيز بالله نزار بن معد بن إسماعيل (المهدية 344 هـ/ 955 م - القاهرة 386 هـ/ 996 م) هو خامس الخلفاء الفاطميين والإمام الخامس عشر من أئمة الإسماعيلية أهم أعماله

إعلان وظيفة الوزير التي لم تكن موجودة في البلاط الفاطمي من قبل وكان أول وزير للخليفة الفاطمي هو يعقوب بن كلس عام 367 هجري.

قطع الخطبة للخليفة العباسي في اليمن وإعلانها للعزيز بالله الفاطمي.

حملة بقيادة جوهر الصقلي ضد أفتكين والقرامطة والسيطرة على دمشق 368 هجري.

خروج حملة ضد الروم الذين استولوا على حلب عام 386 هجري.

نساء في حياة العزيز بالله

لعبت المرأة دورًا مهمًا في حياة الخليفة الفاطمي العزيز بالله، وبالرغم من أن المرأة ساهمت بنصيب كبير في سياسة البلاد الداخلية والخارجية في العصر الفاطمي، فإنها نالت في عهد الخليفة العزيز مكانة لم تحظ بها في أي من العهود السابقة.

السيدة المعزية أم الخليفة العزيز، زوجة الخليفة المعز لدين الله، والتي تلقبت بأُم الأمراء، واسمها "تغريد" وقيل وهي "أم ولد" من أصل عربي تزوجها الخليفة المعز بالمغرب قبل أن يأتي إلى مصر، وكان لها نشاط تجاري واسع في مصر، وبالرغم من أنه لم يكن لها أي دور سياسي معروف فإن الخليفة المعز كان يتشاور معها في بعض الأمور السياسية على نحو ما يذكر المقرئزي.

كما كانت لزوجته السيدة العزيزية مكانة كبيرة في حياته، وكان لها أثر كبير في كثير من السياسات التي انتهجها العزيز؛ فقد كانت تلك السيدة مسيحية على المذهب الملكاني -مذهب الكنيسة القسطنطينية- وهي أم ست الملك أخت الحاكم بأمر الله لأبيه، وكان لهذه السيدة سلطان كبير على الخليفة العزيز؛ وهو ما جعله يرفع أخويها إلى أرقى المناصب الكنسية، فعين أخاها "أريستس" مطرانًا على بيت المقدس سنة (375هـ=985م)، وعين أخاها الآخر أرسانيوس مطرانًا على القاهرة، ثم أصبح بطريركا على القاهرة بعد ذلك.

أما ست الملك ابنة الخليفة العزيز بالله وأخت الخليفة الحاكم بأمر الله فقد حظيت بمكانة عالية لدى أبيها الذي أحاطها بكل أسباب الترف والثراء، حتى إنه بنى لها القصر الغربي لتعيش فيه بمفردها، وكانت تمتلك ثروة كبيرة من التحف الثمينة

الجواهر النفيسة، ولها إقطاع في ضياع الصعيد والوجه البحري، فضلا عما كانت تملكه من الدور والبساتين.

مظاهر حضارية

وقد شهد عصر العزيز بالله العديد من مظاهر العمران والنهضة الحضارية التي شملت الكثير من العلوم والفنون والآداب. وكان من أبرز الآثار المعمارية التي أنشأها العزيز قصر اللؤلؤة الذي شيده على النيل، كما اهتم كذلك بالقصر الشرقي الكبير الذي أسسه جوهر الصقلي والذي يعد من أعظم عمائر الفاطميين.

وكانت القاهرة طوال العصر الفاطمي هي مركز الدعوة الإسماعيلية في العالم الإسلامي، وقد تركزت هذه الدعوة في بداية الأمر في الأزهر، وشهدت بداية خلافة العزيز بالله أولى حلقات الدراسة في الجامع الأزهر، حيث جلس القاضي علي بن النعمان في سنة (365هـ = 975م) ليملي مختصرا في الفقه على جمع كبير من العلماء والكبراء.

كما شهدت الفنون المتطورة ازدهارا كبيرا في العصر الفاطمي، حتى بلغت أقصى درجات الجودة والإتقان، ومن ذلك صناعة الخزف والمصنوعات الزجاجية، وخاصة في عهد الخليفة العزيز بالله.

أنشأ ملحقا بقصره ضم مكتبة ضخمة عرفت بكونها أكبر مكتبة في التاريخ الإسلامي ضمت مجموعة هائلة من ملايين المجلدات والكتب في شتي العلوم والآداب، لكن هذه المكتبة احترقت ودمرت وضاعت منها مئات آلاف الكتب والمجلدات حين وقع الخلاف بين الجنود السودانيين والأتراك في عام 1068 م. حين لم يتمكن الخليفة آنذاك من دفع رواتب الجند، فهجموا علي المكتبة وأتلفوا محتوياتها، وأشار القلقشندي إلى نهاية المكتبة بقوله: (وكانت من أعظم الخزائن، وأكثرها جمعا للكتب النفيسة من جميع العلوم... ولم تزل على ذلك إلى أن انقرضت دولتهم (أي دولة

الخلفاء الفاطميين". (من محاضرة ألقاها د. منصور سرحان مدير إدارة المكتبات العامة ببيت القرآن).

وشهدت مصر كذلك في عهده استقرارا ملحوظا ونهضة اقتصادية ورواجا تجاريا، فضلا عن النهضة العمرانية العظيمة وإنشاء العديد من المساجد والأربطة والمدارس، والاهتمام بالحدائق والبساتين وتشيد القصور الأنيقة والمباني الفخمة؛ وهو ما يعكس حياة الترف والرفاهية التي اتسم بها عهد العزيز.

وفاته

وصل ملك الروم إلى حلب فاستولى على ما فيها، ثم اتجه إلى حمص فاستولى عليها، وسار إلى طرابلس فحاصرها أربعين يوما دون أن يتمكن من فتحها، حتى اضطر إلى العودة إلى بلاده مرة أخرى. وعندما علم العزيز بما حدث عظم ذلك عليه، ونادى في الناس بالخروج للقتال، وفتح خزائنه فأنفق منها على التجهيز للحرب، وأعد أسطولا حربيا جمع له العدد والآلات والأسلحة اللازمة. ولكن حدثت مجموعة من الكوارث العجيبة والأحداث الغريبة، فقد احترق الأسطول الذي أنفق الكثير من الجهد والمال لتجهيزه قبل أن يخرج للقتال، فتمّ صنع أسطول آخر، فلما خرج إلى البحر هبت ريح قوية فتحطم الأسطول وغرق عدد كبير من الجنود.

ولكن ذلك كله لم يجعل الوهن أو اليأس يتسرب إلى نفس العزيز بالله، ولم يضعف ذلك من عزيمته، فخرج في جيوش هائلة إلى بلاد الشام لينتقل منها إلى أرض الروم.

ولم يكن يدري أن ساعات قليلة تفصل بين يومه الذي يحياه وغده الذي لن يراه؛ فقد اشتد عليه مرض "القولنج" الذي أصابه ببليبس عند خروجه من مصر وتزايد

عليه حتى أودى بحياته في (28 من رمضان 386هـ = 15 من أكتوبر 996م) وهو في الرابعة والأربعين من عمره.

ال خليفة السادس:الحاكم بأمر الله المنصور

الحاكم بأمر الله المنصور (985 - 1021) الخليفة الفاطمي السادس، حكم من 996 إلى

1021.

ولد في مصر وخلف والده في الحكم العزيز بالله الفاطمي وعمره 11 سنة، وتكنى بأبي علي وهي كنية أخذها بعد ميلاد ابنه علي الذي تلقب بالظاهر لإعزاز دين الله حينما تولى الخلافة بعد اختفاء أبيه، ويعتبر البعض أن الحاكم كان آخر الخلفاء الفاطميين الأقوياء. كانت عيناه واسعتان وصوته جهير مخوف. اتسمت فترة حكمه بالتوتر، فقد كان على خلاف مع العباسيين الذين كانوا يحاولون الحد من نفوذ الإسماعيليين، وكان من نتائج هذا التوتر في العلاقات أن قامت الخلافة العباسية بإصدار مرسوم شهير في عام 1011 وفيه نص مفاده أن الحاكم بأمر الله ليس من سلالة علي بن أبي طالب. بالإضافة إلى نزاعه مع العباسيين فقد انهمك أيضا الحاكم بأمر الله في صراع آخر مع القرامطة.

الحاكم بأمر الله يخلف أبيه علي حكم مصر 996م

تولي الحاكم بأمر الله السلطة خلفاً لأبيه العزيز بالله سنة 996 م / 386 هج و كان في 11 من عمره فتولي الوصاية عليه أبو الفتوح برجوان، الذي تنسب إليه حارة برجوان. ثم انفراد الحاكم بالسلطة و هو في الخامسة عشر من عمره.

يعد عهد الحاكم من أغرب العهود التي عاشتها مصر، فبعد أن أمسك الحاكم بمقاليد السلطة من برجوان تحول إلي سفاك للدماء و أتي بأمر تشير إلي أنه ربما كان مختلاً عقلياً ، فقد قتل الحاكم أبا الفتوح برجوان خوفاً من سلطانه، و اضطهد العلماء و كتب علي المساجد سب الصحابة ولكنه عاد و محاه، و اضطهد أهل الذمة و هدم

كنائسهم و أجبرهم علي لبس أجراس ثقيلة في رقابهم ، و لكنه عاد و عدل عن سياسته.

كما أدعي الحاكم بأمر الله الألوهية و معرفته بالغيب، و هناك مخطوط اسمه "رسائل

الحاكم بأمر الله و القائلين بدعوته" تبين ما يدعيه الحاكم من صفات الألوهية.

وساعد الحاكم بأمر الله علي ظهور و انتشار المذهب الدرزي ، ففي سنة 1018 م / 408 هج

ظهر رجل شيعي متطرف يدعي حمزة بن علي الزوزني أخذ يدعو لتأليه الحاكم بأمر الله عن طريق

حلول روح الله تعالي -معاذ الله - في آدم عليه السلام ثم انتقالها إلى علي بن أبي طالب ثم الحاكم

بأمر الله.

و صدق الحاكم مذهب الزوزني فانتشرت الفكرة بين كثير من السذج في الشام. ولما قتل الحاكم

في القاهرة لم يعترف هؤلاء بموته بل اعتقدوا أنه سيرجع في آخر الزمان لأنه المهدي المنتظر.

ولقد انتشرت أفكار حمزة بن علي الزوزني في الشام علي يد محمد بن اسماعيل البخاري

الدرزي الذي ينسب إليه المذهب الدرزي، و يتركز معظم معتنقي هذا المذهب في سوريا و لبنان و

فلسطين الآن.

أعمال الحاكم بأمر الله في مصر و نهايته

أتم الحاكم بأمر الله المسجد الحاكم الذي بدأه أبوه العزيز بالله . كما انشأ دار الحكمة

سنة 1005 م / 395 هج لنشر المذهب الشيعي لتنافس المكتبات الكبرى في بغداد العباسية و قرطبة

الأموية، و كانت تضم عدداً من القراء و الفقهاء و المنجمين و النحاة و الغويين و الأطباء، و كان بدار

الحكمة مكتبة سميت بدار العلم حوت ما لم يجتمع مثله في مكتبة من المكتبات.

سجد الحاكم بشارع المعز بالقاهرة

اغتيال الخليفة الحاكم بأمر الله عام 1020 م / شوال من عام 411 هج بعد أن أمضى 24 عاماً في الحكم ، و لا يعرف يقيناً كيف و لا من قتله ، و تقول المصادر التاريخية أن أخته ست الملك تأمرت مع الوزير سيف الدين بن رواس عليه فبعثوا بعبيد خلفه فقتلوه و هو يتنزه في صحراء حلوان. نلف الحاكم في الخلافة الفاطمية ابنه الظاهر لدين الله

تولي الظاهر لدين الله الحكم خلفاً لأبيه سنة 1020 م / 411 هج ، و لكنه كان في 16 من عمره، فقامت عمته بالإشراف علي شؤون البلاد لمدة أربعة أعوام حتي توفيت عام 1024 م / 415 هج ، فأكمل الظاهر حكم الدولة. من أبرز معالم عهده أنه ألغى القوانين الشاذة التي أصدرها أبوه الحاكم بأمر الله ، كما عمل علي كسب ود أهل الذمة و أطلق لهم حرية إقامة شعائر دينهم.

أصيب الظاهر بمرض شديد حتي وافته المنية سنة 1035 م / شعبان 427 هج و هو في 31 من عمره ، فخلفه ابنه أبو تميم معد الذي لقب بالخليفة المستنصر بالله. يبرته وأحداث عصره

في بداية عهد الحاكم حاول بعض الطامحين استغلال صغر سنه لتحقيق أطماعهم في السلطة فكان أولهم شيخ كتامة (أبو محمد بن عمار) الذي أجبر الحاكم على توليته لشئون الدولة فأصبح هو المتصرف فيها ولُقب بـ(أمين الدولة). وكان ينافس في الوقت نفسه رجل آخر وهو (أبو الفتوح برجوان) وقد كان موجوداً أيام العزيز بالله ووصل إلى مرتبة (كبير الخدم). ونجح برجوان في إثارة طوائف المشاركة ضد طوائف المغاربة الذين استبدوا بالحكم مع سيدهم (ابن عمار) وكانت بينهم مواقع عديدة انتهت بانتصار (برجوان) وهروب (ابن عمار).

قام (برجوان) بإخراج الحاكم وأخذ له البيعة من جديد. ثم تولى شؤون الدولة وكوّن لنفسه طائفة خاصة من الجند والمماليك. ثم تملّط بإبن عمار ومنحه إقطاعاته التي كانت له من قبل، واشترط عليه الطاعة وبذلك استمال إليه المغاربة أيضا. على أن برجوان سرعان ما جنح للطغيان والاستبداد فكان يعتبر نفسه الخليفة الحقيقي. وصار يستصغر خليفته الحاكم. كما أنه استغل منصبه في تكوين ثروة ضخمة له. هذا بالإضافة إلى انشغاله باللهو والملذات مما أدى إلى انصرافه عن شؤون الدولة التي تعطلت وفسدت من جراء ذلك. وقد نسي برجوان في غمرة ذلك أن الحاكم قد جاوز سن الصبا ودخل مرحلة الشباب وصار متنبها إلى استبداد برجوان وتغلبه عليه. وقام الحاكم بتدبير مؤامرة لقتل برجوان ، وتم ذلك وأصدر الحاكم بيانا يبرر فيه أسباب قتل برجوان. ثم قام بعد ذلك بالتخلص من رجال برجوان في الجيش والقصر. كما أنه أعد كميناً لشيخ كتامة ابن عمار بأن حرّض عليه بعض المشاركة الذين قتلوه ثم أفنى الحاكم أعوانه من شيوخ كتامة.

بذلك تمكن الحاكم من استرداد سلطانه والتخلص من كل المنافسين والسيطرة على كل مقاليد الحكم وكان حينها قد تجاوز الـ 15 سنة. أظهر الحاكم عندما تولى تقشفاً وزهداً على عكس آبائه. إذ أخرج من قصره جماعة من حظاياه وأعتق سائر مماليكه من الإناث والذكور وملّكهم أمر نفوسهم والتصرف فيما يملكونه وإقتنوه منه ومن أبيه. كما إنه انتقل تدريجياً من الملابس المذهبة على عادة آبائه إلى ملابس خشنة من الصوف كما أنه خفف من الإسراف الذي كان يحدث في الاحتفالات بالمناسبات المختلفة، وأمر كذلك ألا يصلى عليه أحد في كتاباته ويقصر على هذه الصيغة: (سلام الله وتحياته ونوامي بركاته على أمير المؤمنين).

كان الحاكم مسرفاً في القتل إلى مدى كبير لكي يحفظ دولته ويصلح شئونها وكان الحاكم شديداً في التعامل مع رجال دولته وكان يحاسبهم بشدة إذا أخطأوا. كما أنه اعتمد على نظر المظالم لتطهير دولته من الفساد. وكان يواصل ركوبه ليلاً ونهاراً

على حمارة ويظوف به في الأسواق والقرى لكى يسمع مظالم الناس. وقد ورث الحاكم عن أبيه العزيز بالله حرصه على توزيع المال على الفقراء والمساكين. ويشهد المؤرخون بأن يده لم تمتد على أخذ مال إطلاقاً بحيث قال أحدهم - وهو نصراني - (لعمري إن أهل مملكته لم يزالوا في أيامه آمنين على أموالهم، غير مطمئنين على أنفسهم)، كما أنه أيضاً حرص على تخفيف الضرائب عن رعاياه خاصة ما تعرف بضريبة المكوس (reference?).

روي عن الحاكم في بداية عهده أنه كان سخياً معطاءً فبعد أن تولى الخلافة أجزل العطاء لكتامة. كما يروي المقرئ شكل الاحتفالات في عهده لكافة الطوائف ففي عهده احتفل المسيحيون بالغطاس بشكل كبير ومهيب كما أعطى للأتراك خيلاً وسلاحاً في عيد النوروز. أهم المراسيم التي أصدرها

قرئ سجل في الأطعمة بالمنع من أكل الملوخية والبقلة المسماة بالجرجير والمتوكلية المنسوبة إلى المتوكل.

المنع من عجن الخبز بالرجل والمنع من أكل الدليس والمنع من ذبح البقر التي لا عاقبة لها إلا في أيام الأضاحي وما سواها من الأيام، ولا يذبح منها إلا ما لا يصلح للحرث. وقرئ سجل آخر بأن يؤذن لصلاة الظهر في أول الساعة السابعة ويؤذن لصلاة العصر في أول الساعة التاسعة.

إصلاح المكاييل والموازين والنهي عن البخس فيهما، والمنع من بيع الفقاع وعمله ألبتة لما يؤثر عن علي من كراهة شرب الفقاع.

ضرب في الطرقات بالأجراس، ونودي ألا يدخل الحمام أحد إلا بمئزر وألا تكشف امرأة وجهها في طريق ولا خلف جنازة ولا تتبرج.

لا يباع شيء من السمك بغير قشر ، وأن لا يصطاده أحد من الصيادين.

تبعث الحمامات وقبض على جماعة وجدوا بغير منزر فضربوا وشهروا.

ومما يروى عنه أيضا أنه رسم لجماعة من الأحداث أن يتقافزوا من موضع عال في القصر ورسم لكل منهم بصلة فحضر جماعة وتقافزوا فمات منهم نحو ثلاثين إنسانا من أجل سقوطهم خارجاً عن الماء على صخر هناك ووضع لمن قفز ماله.

أمر بكنس الأزقة والشوارع وأبواب الدور في كل مكان .

فتح دار الحكمة بالقاهرة وحمل الكتب إليها وانتصب فيها الفقهاء والقراء والنحاة وغيرهم من أرباب العلوم، وفرشت وأقيم فيها خدام لخدمتها، وأجريت الأرزاق على من بها من فقيه وغيره وجعل فيها ما يحتاج إليه من الحبر والأوراق والأقلام.

ذكر جلال الدين السيوطي في كتابه تاريخ الخلفاء عن الوقائع في عهد القادر بالله العباسي ما نصه : في سنة 396 هـ - أمر - أي الحاكم بأمر الله - الناس بمصر والحرمين إذا ذكر الحاكم أن يقوموا ويسجدوا في السوق وفي مواضع الاجتماع.

في عام 398 هجرية في المحرم ابتدأ نقص ماء النيل من ثامن عشر توت فاشتد الأمر وبيع الخبز مبلولا وضرب جماعة من الخبازين.

ويرى البعض أن هذه المحاولات غالبا مجرد تجنى على الحاكم من أجل تشويه صورته، إذ لم يذكر هذه المحاولات أي مؤرخ من المؤرخين المصريين الذين كتبوا تاريخ الفاطميين سواء كانوا مؤيدين لهم أو معادين ومنهم: المقرئزي، ابن تغري بردي، وجاء ذكر ذلك لأول مرة في كتاب المؤرخ الحافظ البغدادي (تاريخ بغداد) وكتاب تاريخ الخلفاء للحافظ جلال الدين السيوطي وغيرهما.

الدعوة التوحيدية أو (الدرزية)

ظهر داع اسمه حمزة بن علي الزوزني وتلقب بالهادي وأقام بمسجد تبر خارج القاهرة. وبحث دعائه في أعمال مصر والشام وكان عالماً من أعلام الشريعة وأسقط جميع التكاليف الجسمانية في الصلاة والصوم واهتم وأتباعه بالصلاة الروحانية فالصلاة تعني صلة العبد بالخالق سبحانه وتعالى. على هذا الأساس اطلق دعوته التوحيدية الداعية إلى توحيد الله والابتعاد عن أي شرك يشرك أحد بالله فهو بنصره المنزه الذي لا يحده شي ولا شبيه له، واحد أحد لم يلد ولم يولد ونحو ذلك، فاستجاب له خلق كثير. فظهر حينئذ مذهب التوحيد في بلاد إيران وأفغانستان والهند وبلاد صيدا وبيروت وساحل الشام. أما اللقب الحالي لاتباع الإمام حمزة بن علي فهي (الدرزية)، فهم يرفضون تسميتهم "بالدروز" ويفضلون "الموحدين"، إذ انهم يقولون انهم ورثوا هذا الاسم عنوة عنهم فالدرزية هي كلمة تركية الأصل لا صلة لها بعقيدتهم. وإذا عدنا للواقع فان كتبهم(reference?) التي تدعوهم لاتباع القرآن الكريم وتشرح تعاليم المذهب على رغم كثرتها لا توجد فيها أي ذكر لذلك الداعي الذي يلعبونه ويقولون انه من اتباع ابليس أي (نشتكين الدرزي) فهو من الخارجين عن الدعوة التوحيدية. ولم يطع الداعي حمزة بن علي مؤسس دعوته مما استحق القتل على ايديهم لاحقاً في بلاد الشام.

اختفاء الحاكم

تختلف المصادر في تفصيل مقتل الحاكم، لكن هناك روايات كثيرة ترجح أنه كان ضحية مؤامرة دبرت ضده من أعدائه الكثيرين انتهت بمقتله، وإن كان متواتراً في الروايات السنية والقبطية قتله على يد اخته ست الملك لأسباب شخصية. كذلك حاول الحاكم تغيير نظام الوراثة المعمول به كأصل من أصول المذهب الشيعي الإسماعيلي، فالإمامة لا بد أن تكون في نسل علي بن أبي طالب دون غيرهم، وأن تنتقل من الأب للإبن لأنهم كانوا يعتقدون أن للإمامة صفات وعلوم خاصة لا بد أن

تنتقل بالوراثة، وقد التزم الفاطميون منذ إنشاء دولتهم بهذا النظام، لكن الحاكم حاول مخالفة هذا المبدأ فأوصى بولاية العهد لابن عمه عبد الرحيم ابن إلياس، وأخذ له البيعة على جميع رجال الدولة، ودعا له بمكة وأمر الناس بالسلام عليه بأن يقولوا " السلام على ابن عم أمير المؤمنين وولي عهد المسلمين " وأصدر أوامره بأن يضرب اسمه بجانب اسم الخليفة على العملة. ولم تؤدِّ محاولته هذه سوى لانقسام خطير انتهى بمقتله ومقتل ابن عمه. الرواية الأشهر تقول أنه خرج كعادته في الليل على حماره إلى جبل المقطم ليتدبر في ملكوت الله ولم يعد، فأرسل الجند يفتفون أثره لعلهم يجده، فلم يعثروا إلا على عباةته الملطخة بالدماء، وتلت هذه الواقعة أربع سنوات اعترف بعدها أحدهم بقتل الحاكم.

الخليفة السابع:الظاهر لإعزاز دين الله

هو الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله أبو الحسن علي ابن الحاكم بأمر الله منصور. أمه أم ولد تدعى رقية ويقال اسمها آمنة بنت الأمير عبد الله بن المعز . عاش (20 يونيو 1005 - 13 يونيو 1036) خلفا لابيه الخليفة المنصور الحاكم بأمر الله ، وخلفه ابنه الخليفة أبو تميم معد المستنصر بالله وجد الخليفة أبو القاسم المستعلى بالله أحمد.

هو علي الظاهر لإعزاز دين الله أبو الحسن علي بن المنصور الحاكم بأمر الله بن نزار العزيز بالله بن معد المعز لدين الله بن إسماعيل المنصور بالله بن محمد القائم بأمر الله بنعبيد الله المهدي.

الخليفة الفاطمي السابع (1021 - 1036) ، والإمام السابع عشر من أئمة الشيعة الإسماعيلية.

ولادته

ومولده بالقصر من القاهرة على مضي ثلاث ساعات من ليلة الأربعاء عاشر

شهر رمضان سنة 395 هجري وبويع بالخلافة في يوم عيد الأضحى سنة 411

هجري وله من العمر ست عشرة سنة وثلاثة أشهر. واتفق في هذا اليوم أن صُلى للحاكم في خطبة العيد . ثم بويح الظاهر بعد عودة القاضي من المصلى فكان بين الدعاء في الخطبة للحاكم وبين أخذ البيعة للظاهر ثلاث ساعات ولم يتفق مثل ذلك.

خلافته

ويروي المقرئ أن السيدة ست الملك هي التي خلعت عليه لقب الظاهر لإعزاز دين الله بعد أن أبسته تاج المعز لدين الله حيث يقول ما نصه:

"أخرجت علي بن الحاكم بأمر الله ولقبته الظاهر لإعزاز دين الله وأبسته تاج المعز جد أبيه . وهو تاج مرصع بالجواهر الفاخرة وجعلت على رأسه مظلة مرصعة. وأركبته فرسا رائعا مبركب ذهب مرصع وأخرجت بين يديه الأمير الوزير رئيس الرؤساء ، خطير الملك أبا الحسن عمار بن محمد ونسيماً صاحب السيف في عدة من الأستاذين تخدم. فلما برز وشوهد تقدم الوزير وصاح: يا عبيد الدولة مولاتنا تقول لكم هذا مولاكم أمير المؤمنين فسلموا عليه فقبل ابن دواس الأرض ومرغ خديه بين يديه وفعل ما يتلوه من سائر طبقات العسكر مثل ذلك . وضربت البوقات والطبول وعلا الصياح بالتكبير والتهليل والظاهر يسلم على الناس يمينا وشمالا".

سيرته وعصره

وملك الظاهر لإعزاز دين الله سائر ممالك والده، مثل الشام والثغور وإفريقية، وقامت عمته ست الملك بتدبير مملكته أحسن قيام، وبذلت العطاء في الجند وساست الناس أحسن سياسة. وكان الظاهر لإعزاز دين الله عاقلاً سمحاً جواداً يميل إلى دين وعفة وحلم مع تواضع. أزال الرسوم التي جردها أبوه الحاكم إلى خير، وعدل في الرعية وأحسن السيرة، وأعطى الجند والقواد الأموال، واستقام له الأمر مدة، وولى نوابه بالبلاد الشامية.

إلى أن خرج عليه صالح بن مرداس الكلبي وقصد حلب وبها مرتضى الدولة أبو نصر بن لؤلؤ الحمدي نيابة عن الظاهر هذا، فحاصرها صالح المذكور إلى أن أخذها.

ثم تغلب حسان بن المفرج بن دغفل البدوي صاحب الرملة على أكثر الشام، وتضعفت دولة الظاهر.

واستوزر الوزير نجيب الدولة علي بن أحمد الجرجاني. وكان الوزير هذا من بيت حشمة ورياسة، وكان أقطع اليمين من المرفقين، قطعهما الحاكم بأمر الله في سنة 404 هجري، وكان يكتب عنه العلامة القاضي أبو عبد الله القضاعي، وكانت العلامة الحمد لله شكراً لنعمته.

ولم يظهر أمر هذا الوزير إلا بعد موت عمه الظاهر ست الملك بعد سنة 415 هجري.

وكان الظاهر لإعزاز دين الله كثير الصدقات منصفاً من نفسه، لا يدعي دعاوى والده وجده في معرفة النجوم وغيرها من الأشياء،

وقع من بعض حجاج المصريين كسر الحجر الأسود بالبيت الحرام في سنة 413 هجري. وكان أمر الحجر أنه لما وصل الحاج المصري إلى مكة المكرمة وثب شخص من الحاج إلى الحجر الأسود وهو مكانه من البيت الحرام، وضربه بديوس كان في يده حتى شعثه وكسر قطعاً منه، وعاجله الناس فقتلوه، وثار المكيون بالمصريين فقتلوا منهم جماعة ونهبوهم، حتى ركب أبو الفتوح الحسن بن جعفر فأطفأ الفتنة ودفع عن المصريين.

وقيل: إن الرجل الذي فعل ذلك كان من الجهال الذين استغواهم الحاكم وأفسد عقائدهم.

فلما بلغ الظاهر ذلك شق عليه وكتب كتاباً في هذا المعنى.

وتوفي ببستان الدكة خارج القاهرة في ليلة الأحد النصف من شعبان سنة 427 هجري وعمره إحدى وثلاثون سنة. ومدة خلافته خمس عشرة سنة.

ال خليفة الثامن:المستنصر بالله الفاطمي

هو أبو تميم معد بن الظاهر المعروف بالمستنصر بالله بن علي الظاهر لإعزاز دين الله وهو الخليفة الفاطمي الثامن والإمام الثامن عشر في سلسلة أئمة الشيعة الإسماعيلية.

كانت الدولة الفاطمية حين اعتلى عرشها الخليفة المستنصر بالله الفاطمي قد استقرت تمامًا، واتسعت اتساعًا هائلًا، وبلغت دعوتها الشيعية أقصى مدى لها في الذيوع والانتشار، وامتألت خزائنها بالأموال. غير أن وقوعها في أيدي المغامرين والطامحين، واشتعال الفتن والثورات بين فرق الجيش، والتنافس على الجاه والسلطان أضاع منها كل شيء. واختزلت الدولة التي كانت تمتد من أقصى المحيط الأطلسي إلى الفرات في مصر فقط . وبعد أن كانت ترفل في غناها و ثرائها وكثرة خيراتها أصبح يعلوها الذبول والشحوب بفعل المجاعات التي أصابتها. هذا التحول من السعة إلى الضيق ومن الغنى إلى الفقر هو ما شهدته عصر الخليفة المستنصر بالله الفاطمي.

عصر القوة والازدهار

في صبيحة يوم الثلاثاء الموافق (17من جمادى الآخرة 420هـ = 5 يوليو 1029م) ولد أبو تميم معد بن الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله في القاهرة . ولا يعرف شيء عن حياته الأولى قبل توليه الخلافة التي اعتلاها وهو دون الثامنة من عمره بعد وفاة أبيه في (15 من شعبان 427هـ = 13 من يونيو 1036م).

وكانت البداية الأولى لعصر المستنصر بالله زاهية ناضرة بفضل الوزير القوي أبي القاسم علي بن أحمد الجرجاني، وكان قد سبق له أن عمل وزيرًا في عهد الحاكم

بأمر الله وابنه الظاهر، وأكسبته هذه السنوات خبرة واسعة ودراية بشئون الحكم . فسيطر على الدولة سيطرة تامة وأحسن سياستها وتوجيه شئونها حتى توفي في (رمضان 436هـ = مارس 1045م) بعد وزارة دامت ثمانية عشر عامًا تركت أثرًا طيبًا في تاريخ الدولة . وقد زار مصر الرحالة الفارسي ناصر خسرو عقب وفاة الجرجاني، فأشاد برخاء مصر وأمنها، ووصف نظمها ومدنها وغناها وثروتها وحضارتها وصف المعجب بما رأى وشاهد.

وامتد سلطان الخلافة ليشمل بلاد الشام وفلسطين والحجاز وصقلية، وشمال إفريقيا، وتردد اسم الخليفة على المنابر في هذه البلاد . وتطلع إلى بغداد حاضرة الخلافة العباسية السنية ليضمها إلى سلطانه، فنجح في استمالة "أبي الحارث أرسلان البساسيري" أحد قادة العباسيين، ومدّه بالأموال والذخائر . فثار على الخليفة العباسي واستولى على بغداد، وأقام الخطبة بها للمستنصر لمدة عام وذلك في سنة (450هـ = 1058م) ، وألزم الخليفة "القائم بأمر الله" العباسي بكتابة كتاب يقر فيه بأنه "لا حق لبني العباس ولا له من جملتهم في الخلافة مع وجود بني فاطمة الزهراء" . غير أن حركة البساسيري لم تستمر، ولم تعززها الدولة الفاطمية مع أنهم كانوا ينتظرون هذه الفرصة وفي الوقت نفسه كانت قوة السلاجقة قد بدأت في الظهور، فقدم زعيم السلاجقة "طغرل بك" إلى بغداد، وأنهى حركة البساسيري، وأعاد الخليفة العباسي إلى منصبه.

اضطراب الأحوال الداخلية

بعد وفاة الوزير القوي أبي القاسم الجرجاني بدأت أم الخليفة المستنصر تتدخل في شئون الدولة وصار لها الكلمة الأولى في تعيين الوزراء والإشراف على تصرفاتهم . وأصبحت الدولة في يد أعوانها وتلقبت بـ"السيدة الملكة"، ويخاطبها الرجال في حضرة ابنها الخليفة بمولاتهم، ويشار إليها بالجهة الجليلة والستر الرفيع.

وأسفر تدخلها في شئون الحكم عن إذكاء نار العداوة والفتنة بين طوائف الجيش . فاشتعلت المنازعات والمعارك بينهم . ولم تجد أم الخليفة وزيرًا قويًا بعد عزل

"اليازوري" سنة (450 هـ = 1058م) من يمسك بزمام الأمور ويسوس الجند، وهو ما جعل أحوال البلاد تسوء بسرعة ويعمها الفوضى والاضطراب، ويحل بها الخراب.

الشدة العظمى

شاعت الأقدار أن لا تقتصر معاناة البلاد على اختلال الإدارة والفوضى السياسية، فجاء نقصان منسوب مياه النيل ليضيف إلى البلاد أزمة عاتية . وتكرر هذا النقصان ليشيب البلاد بكارثة كبرى ومجاعة داهية امتدت لسبع سنوات متصلة من (457 هـ = 1065م) إلى سنة (464=1071م) . وعُرفت هذه المجاعة ب الشدة المستنصرية أو الشدة العظمى.

وقد أفاض المؤرخون فيما أصاب الناس من جراء هذه المجاعة من تعذر وجود الأقوات وغلاء الأسعار، حتى لبيع الرغيف بخمسة عشر دينارًا . واضطرار الناس إلى أكل الميتة من الكلاب والقطط، والبحث عنها لشرائها. بل أن بعض المؤرخين ذكروا أكل الناس جثث من مات منهم . وصاحب هذه المجاعة انتشار الأوبئة والأمراض التي فتكت بالناس حتى قيل: إنه كان يموت بمصر عشرة آلاف نفس، ولم يعد يرى في الأسواق أحد، ولم تجد الأرض من يزرعها، وباع الخليفة المستنصر ممتلكاته، ونزحت أمه وبناته إلى بغداد . وساء به الحال حتى أن بعضهم ممن كانوا في بعض من اليسر كان يتصدق عليه بما يأكل في يومه.

وكان من نتيجة هذه الأزمة العاتية أن أخذت دولة المستنصر بالله في التدهاي والسقوط . وخرجت كثير من البلاد عن سلطانه، فقتل البساسيري في العراق سنة (451 هـ = 1059م). وعادت بغداد إلى الخلافة العباسية، وقُطعت الخطبة للمستنصر في مكة والمدينة . وحُطب للخليفة العباسي في سنة (462 هـ = 1070م)، ودخل النورمان صقلية واستولوا عليها . فخرجت عن حكم الفاطميين سنة (463 هـ = 1071م) بعد أن ظلت جزءًا من أملاكهم منذ أن قامت دولتهم.

وتداعى حكم المستنصر في بلاد الشام، فاستقل قاضي صور مدينته سنة (462هـ == 1070م) وخرجت طرابلس من سلطان الفاطميين، وتتابع ضياع المدن والقلع من أيديهم، فاستقلت حلب وبيت المقدس والرملة عن سلطانهم في سنة (463هـ == 1071م) ثم تبعتهم دمشق في العام التالي.

بدر الدين الجمالي والخروج من الأزمة

لم يكن أمام الخليفة المستنصر بالله للخروج من هذه الأزمة العاتية سوى الاستعانة بقوة عسكرية قادرة على فرض النظام، وإعادة الهدوء والاستقرار إلى الدولة التي مزقتها الفتن وثورات الجند، وإنهاء حالة الفوضى التي عمت البلاد، فاتصل ببدر الجمالي واليه على "عكا"، وطلب منه القدوم لإصلاح حال البلاد، فأجابته إلى ذلك، واشترط عليه أن لا يأتي إلا ومعه رجاله، فوافق الخليفة على شرطه.

وما إن حل بدر الجمالي بمدينة القاهرة حتى تخلص من قادة الفتنة ودعاة الثورة، وبدأ في إعادة النظام إلى القاهرة وفرض الأمن والسكينة في ربوعها، وامتدت يده إلى بقية أقاليم مصر فأعاد إليها الهدوء والاستقرار، وضرب على يد العابثين والخارجين، وبسط نفوذ الخليفة في جميع أرجاء البلاد. وفي الوقت نفسه عمل على تنظيم شؤون الدولة وإنعاش اقتصادها، فشجع الفلاحين على الزراعة برفع جميع الأعباء المالية عنهم، وأصلح لهم الترع والجسور، وأدى انتظام النظام الزراعي إلى كثرة الحبوب، وتراجع الأسعار، وكان لاستتباب الأمن دور في تنشيط حركة التجارة في مصر، وتوافد التجار عليها من كل مكان.

واتجه بدر الجمالي إلى تعمير القاهرة وإصلاح ما تهدم منها، فأعاد بناء أسوار القاهرة وبنى بها ثلاثة أبواب تعد من أروع آثار الفاطميين الباقية إلى الآن وهي: باب الفتوح وباب النصر وباب زويلة، وشيد مساجد كثيرة فبنى في القاهرة مسجده المعروف بمسجد الجيوش على قمة جبل المقطم، وبنى جامع العطارين بالإسكندرية.

ولم يكن للوزير بدر الجمالي أن يقوم بهذه الإصلاحات المالية والإدارية دون أن يكون مطلق اليد، مفوضاً من الخليفة المستنصر، وقد استبد بدر الجمالي بالأمر دون الخليفة، وأصبحت الأمور كلها في قبضة الوزير القوي، الذي بدأ عصراً جديداً في تاريخ الدولة الفاطمية في مصر، تحكّم فيه الوزراء أرباب السيوف، وهو ما اصطُح عليه بعصر نفوذ الوزراء.

لقد كان لدور بدر الدين الجمالي في استعادة الأمن واستتبابه والعودة بالدولة إلى سابق عهدها، بالغ الأثر في قلوب المصريين حتى أنهم أطلقوا اسمه على أحد أشهر أحيائهم آنذاك وهو حي الجمالية الذي ما زال معروفاً إلى اليوم في مصر.

نهاية الخليفة المستنصر

بلغت سطوة بدر الجمالي أن عهد بالوزارة لابنه الأفضل الذي كان يشاركه في أعمال الوزارة فلما توفي بدر في جمادى الأولى (487هـ = 1094م) خلفه ابنه في الوزارة، وأقره الخليفة على منصبه، ثم لم يلبث أن توفي المستنصر بعد ذلك بشهور في (18 من ذي الحجة سنة 487هـ = 29 ديسمبر 1094م) عن عمر يناهز سبعة وستين عاماً، وبعد حكم دام نحو ستين عاماً.

الخليفة التاسع: المستعلي بالله

أبو القاسم المستعلي بالله أحمد بن معد بن الظاهر بن علي بن منصور (1074 - 1101) كان تاسع الخلفاء الفاطميين في مصر والمغرب والإمام التاسع عشر عند الإسماعيلية المستعلية. ولد في القاهرة في سبتمبر سنة 1074م وتولى بعد موت أبيه المستنصر بالله متخذاً لقب المستعلي بالله، وبويع في يوم عيد الغدير، في 3 يناير 1095م. في عهده وقعت اشتباكات ومعارك ما بين أمير جيشه ووزيره الأفضل شاهنشاه بن بدر الدين

لجمالي والصلبيين في بلاد الشام، استطاع الصليبيون بها الاستيلاء على القدس مجدداً.

مات المستعلي بالله في مدينة القاهرة في عام 1101م بعد حكم دام سبع سنوات وشهرين.

الخلاف على توليته ودور الأفضل

بعد موت المستنصر بالله نشب خلاف بين من رؤوا أن ابنه نزار هو الأحق بالخلافة وبين من رؤوا أن أحمد هو الأحق. كان وزير المستنصر القوي الأفضل شاهنشاه مؤيداً للمستعلي وأكثر الأطراف المتنازعة نفوذاً، مما حسم الخلاف لصالح هذا الأخير وأدى إلى سجن نزار وموته لاحقاً في السجن ثم خروج ابنه الهادي بن نزار في أتباعه إلى آسيا الوسطى محدثين بذلك انشقاقاً جديداً في الإمامة، بين مستعلية ونزارية.

كان الأفضل نافذاً ومؤثراً في حكم المستعلي واستمر نفوذه إلى أن انقلب عليه الأمر ابن

المستعلي.

الخلافة العاشر: الأمر بأحكام الله

أبو علي منصور بن أحمد (ولد 1096 - مات 1130) تلقب عند توليته بلقب الأمر بأحكام الله فكان الخلافة الفاطمية العاشر والإمام العشرين للإسماعيلية المستعلية، وهو ابن المستعلي بالله (1094 - 1101)، الخلافة الفاطمية التاسع. حكم منذ عام 1101 وهو صبي، وو حتى وفاته.

في 1121 انقلب الأمر بأحكام الله على وكيله الأفضل شاهنشاه ووكيل أبيه من قبله، فقتله

وعين مكانه المأمون البطائحي فاستطاع السيطرة على حكومته.

في عهده أخذ الفرنج عكا عام 1103، كما أخذوا طرابلس عام 1108. وبعد ذلك تسلموا تبنين عام 1117، وصور عام 1124، وأخذوا بالسيف بيروت عام 1109، وصيدا عام 1110، وسقطت الفرما للملك الإفرنجي بردويل.

كان الأمر في هودجه يتنزه فيما بين القاهرة والجزيرة في ذي القعدة سنة 524 عندما هاجمته جماعة مسلحة بالسيوف يروي المقرئ أنها تابعة للنزارية الذين أرادوا الانتقام منه لما كان من شقاق ما بين أبيه المستعلي بالله وعمه نزار على عرش الفاطميين في مصر، فحُمل الأمر إلى القصر إلا أنه توفي يوم الرابع عشر من ذي القعدة (موافقا 7 أكتوبر 1130)، فكانت مدة حكمه تسعا وعشرين سنة وتسعة أشهر.

لم يكن الأمر بأحكام الله قد سَمِيَ عند موته خليفة فوقع خلاف فيمن يخلفه بين من بايعوا ابنه الطيب أبو القاسم فعرفوا بالطَّيِّبِيَّة، وآخرون بايعوا الحافظ لدين الله ابن عم أبيه المستعلي فعرفوا بالحافظية، فنجم من جراء ذلك انشقاق جديد في الإمامة.

الخليفة الحادي عشر: الحافظ لدين الله

الحافظ لدين الله أبو الميمون عبد المجيد بن الأمير محمد بن المستنصر بالله معد بن الظاهر علي بن الحكم بن العزيز بن المعز ، العبيدي الإسماعيلي المصري ولد بعسقلان سنة 467 هـ وتوفي في الخامس من جمادى الأولى سنة 544 هـ (467/1130-544/1149) تولى الخلافة من بعد ابن عمه الأمر بأحكام الله ومات سنة 1149 للميلاد دامت دولته عشرين سنة سوى خمسة أشهر وعاش سبع وسبعين سنة، وقام بعده ولده الظاهر

بويح بالقاهرة يوم مقتل ابن عمه الأمر، بولاية العهد وتدبير المملكة، حتى يظهر الحمل المخلف عن الأمر، فغلب عليه أبو علي أحمد بن الأفضل، في صبيحة يوم

مبايعته، وكان الأمر لما قُتل الأفضل اعتقل جميع أولاده وفيهم أبو علي المذكور، فأُخرج الجند من الاعتقال لما قُتل الأمر، وبايعوه فسار إلى القصر، وقبض على الحافظ المذكور، واستقل بالأمر وقام به أحسن قيام، وردّ على المصادرين أموالهم، وأظهر مذهب الإمامية وتمسك بالأئمة الاثني عشر، ورفض الحافظ وأهل بيته، ودعا على المنابر للقائم في آخر الزمان المعروف بالإمام المنتظر على زعمهم، وكتب اسمه على السكة، ونهى أن يؤذن (حي على خير العمل) وأقام كذلك، إلى أن وثب عليه رجل من الخاصة بالبستان الكبير بظاهر القاهرة، في النصف من المحرم سنة ست وعشرين وخمسمائة فقتله، وكان ذلك بتدبير الحافظ، فبادر الأجناد بإخراج الحافظ، وبايعوه ولقبوه الحافظ، ودعي له على المنابر.

كان الحافظ كلما أقام وزيراً تمكن وحكم عليه، فيتألم ويتحيل عليه، ويعمل على هلاكه؛ منهم رضوان، فسجنه سبع سنين، وكان قد قدم الشام، وجمع جموعاً، وقاتل المصريين، قاتلهم على باب القاهرة وانتصر، ثم دخلها، فاعتقله الحافظ عنده معززا في القصر، ثم نحب الحبس، وراح إلى الصعيد، وأقبل بجمع عظيم، وحارب، فكان الملتقى عند جامع ابن طولون، فانتصر وتملك، فبعث إليه الحافظ بعشرين ألف دينار، رسم الوزارة، فما رضي حتى كمل له ستين ألفاً، ثم بعث إليه عدة من المماليك، فقاتلهم غلماناً وهو، فقتل، وبقي الحافظ بلا وزير عشر سنين.

ولما قُتل الأكمل أقام في الوزارة يانس موله، فكبر يانس، وتعدى طوره، فسقي. ثم وزر له ولده الحسن، فكان شر وزير، تمرد وطغى، وقتل أربعين أميراً، إلا أنه كان فيه تسنن، فخافه أبوه، وجهز له عسكرياً فتحاربوا أياماً، ثم سقاه أبوه.

الخليفة الثاني عشر: الظافر بدين الله

الظافر بدين الله (1149 - 1154) ابن الحافظ لدين الله كان الخليفة الفاطمي الثاني عشر.

لم يذكر عنه الكثير وليس له دور يذكر في التاريخ او في الحكم الفاطمي

الخليفة الثالث عشر:الفائز بدين الله

الفائز بدين الله (1154-1160) كان الخليفة الفاطمي الثالث عشر.

الخليفة الرابع عشر:العاضد لدين الله

العاضد لدين أبو محمد عبد الله بن يوسف بن الحافظ لدين الله ولد حسب رواية

المقريزي يوم الثلاثاء لعشر من المحرم سنة 546 هجرية وبويع لثلاث عشرة من رجب سنة 555 هجرية وعمره يومئذ تسع سنين.

خلافته

يروى المقريزي في اعطاء الحنفا في أحداث عام 555 هجرية:

”وذلك أنه مات الخليفة الفائز ركب الصالح بن رزيك إلى القصر بثياب الحزن واستدعى زمام القصر وسأله عن يصلح في القصر للخلافة فقال: ههنا جماعة. فقال: عرفني بأكبرهم. فسمى له واحداً فأمر بإحضاره. فتقدم إليه أمير يقال له علي ابن مزيد وقال له سراً: لا يكن عباس أحزم منك رأياً حيث اختار الصغير وترك الكبير واستبد بالأمر. فمال إلى قوله وقال للزمنا: أريد منك صغيراً. فقال: عندي ولد الأمير يوسف بن الحافظ واسمه عبد الله وهو دون البلوغ. فقال: علي به. فأحضر إليه بعمامة لطيف وثوب مفرط وهو مثل الوحش أسمر كبير العينين عريض الحاجبين أخنس الأنف منتشر المنخرين كبير الشفتين. فأجلسه الصالح في البادهنج وكان عمره إحدى عشرة سنة. ثم أمر صاحب خزانة الكسوة أن يحضر بذلة ساذجة خضراء وهي لبس ولي العهد إذا حزن على من تقدمه وقام وألبسه إياها. وأخذوا في تجهيز الفائز فلما أخرج تابوته صلى عليه وحمل إلى التربة. وأخذ الصالح بيد عبد الله وأجلسه إلى جانبه وأمر أن تحمل إليه ثياب الخلافة فألبسها وباعه ثم بايعه الناس ونعته بالعاضد لدين الله.“

أحداث عصره

نهاية دولة بني رزيك ووزرائهم.

النزاع بين الوزير شاورو الضرغام لتولى الوزارة.

وصول أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين الايوبي إلى مصر والقضاء على الضرغام.

اسد الدين شيركوه يقتل شاور.

استيلاء الصليبيين على صور.

تغلغل صلاح الدين في البلاط الفاطمي.

الخلاف بين نور الدين محمود وصلاح الدين الايوبي.

نهاية الفاطميين

في عام 567 هجرية خطب باسم الخليفة المستضيء بأمر الله العباسي وقطعت الخطبة

للعاضد لدين الله فانقطعت ولم تعد بعدها.

وذلك أنه لما ثبتت قدم صلاح الدين بمصر وأزال المخالفين له وضعف أمر الخليفة العاضد

بقتل رجاله وذهاب أمواله وصار الحكم على قصره قراقوش طواشي أسد الدين نيابة عن صلاح الدين

وتمكنت عساكر نور الدين من مصر طمع في أخذها.

وكتب إلى صلاح الدين وفي ظنه وظن جميع عساكره أن صلاح الدين إنما هو نائب عنه في

مصر متى أراد سحبه بإذنه لا يمتنع عليه يأمره بقطع خطبة العاضد وإقامتها للمستضيء العباسي.

فاعتذر بالخوف من قيام المصريين عليه وعلى من معه لميلهم كان إلى الفاطميين ولأنه خاف من قطع

خطبة العاضد وإقامة الخطبة للمستضيء أن يسير نور الدين إلى مصر وينزعه منها.

فلم يقبل منه نور الدين وألح عليه وألزمه إلزاماً لم يجد مندوحة عن مخالفته وساعدته الأقدار بمرض العاضد المرض الذي غلب على الظن أنه لا يعيش منه.

فجمع صلاح الدين أصحابه إليه واستشارهم في ذلك فاختلّفوا فمنهم من أشار بقطع خطبة العاضد ومنهم لم يشر بها.

فتقدم إلى جميع الخطباء بأن يخطبوا في الجمعة الآتية للمستضيء وكتب بذلك إلى سائر أعمال مصر. في يوم الاثنين لإحدى عشرة خلت من المحرم عشية يوم عاشوراء مات العاضد لدين الله وقامت عليه الواعبة وعظمت ضوضاء الأصوات النادبة حتى كأن القيامة قد قامت.

وكتب صلاح الدين إلى نور الدين بموت العاضد وإقامة الخطبة للمستضيء كما أشار به مع ابن أبي عسرون.

وكانت النفوس متطلعةً إلى إقامة خليفة بعد العاضد من أهله يشار إليه بالأمر فلم يرض ذلك صلاح الدين.

ومات العاضد وعمره إحدى وعشرون سنة. وكان كما يروي المقرئ كرمياً سمحاً لطيفاً لين الجانب يغلب عليه الخير وينقاد إليه. وكان متغالياً في مذهبه شديداً على من خالفه.

أقوال في نهاية الدولة الفاطمية

قال ابن خلكان: سمعت جماعة من المصريين يقولون إن هؤلاء القوم في أوائل دولتهم قالوا لبعض العلماء اكتب لنا ورقة تذكر فيها ألقاباً تصلح للخلفاء حتى إذا تولى واحد لقبوه ببعض تلك الألقاب فكتب لهم ألقاباً كثيرةً وآخر ما كتب في الورقة العاضد فاتفق أن آخر من ولي منهم تلقب بالعاضد وهذا من عجيب الاتفاق.

قال: وأخبرني أحد علماء المصريين أيضاً أن العاضد رأى في آخر دولته في منامه كأنه بمدينة مصر وقد خرجت إليه عقرب من مسجد معروف بها فلدغته فلما

استيقظ ارتاع لذلك وطلب بعض معبري الرؤيا وقص عليه المنام فقال ينالك مكروه من شخص هو مقيم في هذا المسجد فطلب والي مصر وأمره يكشف عن من هو مقيم في المسجد المذكور وكان العاضد يعرفه.

فمضى الوالي إلى المسجد فرأى فيه رجلا صوفياً فأخذه ودخل به على العاضد فلما رآه سأله من أين هو ومتى قدم البلاد وفي أي شيء قدم وهو يجاوبه عن كل سؤال. فلما ظهر له منه ضعف الحال والصدق والعجز عن إيصال المكروه إليه أعطاه شيئاً وقال له: يا شيخ ادع لنا وأطلق سبيله فنهض من عنده وعاد إلى المسجد.

فلما استولى صلاح الدين وعزم على القبض على العاضد واستفتى الفقهاء أفتوه بجواز ذلك لمخالفتهم له، وكان أكثرهم مبالغاً في الفتيا الصوفي المقيم في المسجد وهو نجم الدين الخبوشاني فإنه عدد مساوي القوم وسلب عنهم الإيمان وأطال الكلام في ذلك فصحت بذلك رؤيا العاضد.

الباب الثالث

الفاطميون في مصر

محاولات العبيديين الفاطميين لفتح مصر

الحقيقة أنه رغم الجهد الكبير الذي بذله خلفاء الدولة العبيدية الفاطمية لتحقيق الاستقرار لهم في بلاد المغرب إلا أنهم لم يفلحوا في ذلك فكلما أخدمت ثورة ظهرت أخرى.

ولذا كانت عيون العبيديين (الفاطميين) على مصر وقد حاول فتحها عبید الله المهدي مرارًا منذ سنة 301هـ حيث وجه إليها جيشًا بقيادته، وحال النيل دون تقدمه شرقًا والوصول إلى الفسطاط، فعاد إلى الإسكندرية ولكن الجيش انهزم على يد جيش الخليفة العباسي المقتدر بعد معارك دارت بينهم في برقة، وعاد الجيش إلى المغرب.

وفي سنة 306 وجه عبید الله جيشًا بقيادة ابنه أبي القاسم فاستولى على الإسكندرية ثم سار إلى الجيزة، وتوغل العبيديون (الفاطميون) في بلاد الوجه القبلي لكن مؤنس الخادم استطاع أن يقهر هذه الحملة وأحرق سفن العبيديين (الفاطميين)..

وفي سنة 321 أرسل جيشًا بقيادة جيش حبش بن أحمد المغربي ولكن هزم في سنة 322 على يد محمد بن طغج الإخشيدى كانت هاتان الحملتان بالتنسيق مع ابن طاهر الجنابي أمير القرامطة ببلاد البحرين.

وفي سنة 323 أرسل أبو القاسم الخليفة الثاني العبيدي (الفاطمي) جيوشه إلى مصر فدخلت الإسكندرية بسهولة ووجدت مناصرة من بعض زعماء المصريين مما يدل على انتشار الدعوة العبيدية الشيعية (الفاطمية) بمصر، ولكن العبيديين (الفاطميين) هُزموا على يد الإخشيديين. وبقيت العلاقات بعد ذلك بين حكام مصر والعبيديين (الفاطميين) يشوبها التربص والحيل.

في سنة 334 هـ حرص كافور الذي كان وقتذاك يحكم مصر (وكان يقوم بالوصاية على أنوجور بن الإخشيد) على تحسين العلاقة مع الخليفة العباسي وكذلك

مع الخليفة العبيدي (الفاطمي)، فكان يهادي صاحب المغرب ويظهر ميله إليه، وكذا يدعن بالطاعة لبني العباس، ويداري ويخدع هؤلاء وهؤلاء، وفي هذه الآونة وجه الخليفة العبيدي (الفاطمي) المعز اهتمامه لتوسيع دائرة الدعوة العبيدية (الفاطمية) في مصر، حتى استطاعوا أن يأخذوا البيعة للمعز من رجال بلاد كافور وكبار موظفي دولته، كما أنه عمل على إنشاء الطرق وحفر الآبار في الطريق إلى مصر سنة 356 هـ.

قيام الدولة العبيدية (الفاطمية) في مصر

الفاطيون ومصر

تطلع الفاطميون إلى فتح مصر فتكررت محاولتهم لتحقيق هذا الحلم غير أنها لم تكمل بالنجاح، وقد بدأت هذه المحاولات منذ عام 301هـ=913م أي بعد قيام الدولة بأربع سنوات، الأمر الذي يؤكد عزم الخلفاء الفاطميين على بسط نفوذهم على مصر، وكان فشل كل محاولة يقومون بها تزيدهم إصراراً على تكرارها ومعاودتها مرة بعد مرة، ونهبت هذه المحاولات الخلافة العباسية إلى ضرورة درء هذا الخطر، فدعمت وجودها العسكري في مصر، وأسندت ولايتها إلى محمد بن طغج الإخشيد، فأوقفت تلك المحاولات إلى حين.

حالة مصر الداخلية قبل الفاطميين

كانت مصر خلال هذه الفترة تمر بمرحلة عصيبة، فالأزمة الاقتصادية تعصف بها والخلافة العباسية التي تتبعها مصر عاجزة عن فرض حمايتها لها بعد أن أصبحت أسيرة لنفوذ البويهيين الشيعة، ودعاة الفاطميين يبثون دعوتهم في مصر، وجاءت وفاة كافور الأخشيد سنة (357هـ=968م) لتزيل آخر عقبة في طريق الفاطميين إلى غايتهم، وكان كافور بيده مقاليد أمور مصر، ويقف حجر عثرة أمام طموح الفاطميين للاستيلاء عليها.

وحين تولى زمام الأمور أبو الفضل جعفر بن الفرات ولم تسلس له قيادة مصر، وعجز عن مكافحة الغلاء الذي سببه نقص ماء النيل، واضطربت الأحوال، وضاق الناس بالحكم، كتب بعضهم إلى المعز يزنبون له فتح مصر ولم يكن هو في حاجة إلى من يزين له الأمر؛ إذ كان يراقب الأوضاع عن كثب، ويمني نفسه باللمحة التي يدخل فيها مصر فاتحاً، فيحقق لنفسه ما عجز أجداده عن تحقيقه.

مقدمات دخول الفاطميين مصر

كان أمل الفاطميين التوسع شرقاً ومجابهة الخلافة العباسية للقضاء عليها، وإذا كانت دعوتهم قد أقاموها في أطراف العالم الإسلامي حتى تكون بعيدة عن العباسيين، فإن ذلك لم يعد مقبولاً عندهم بعد أن قويت شوكتهم واتسع نفوذهم، وأصبحت الفرصة مواتية لتحقيق الحلم المنشود، والتواجد في قلب العالم الإسلامي.

وقد بدأ الفاطميون منذ سنة (355هـ=966م) استعدادهم للانتقال إلى مصر، واتخاذ الإجراءات التي تعينهم على ذلك، فأمر المعز بحفر الآبار في طريق مصر، وبناء الاستراحات على طول الطريق، وعهد إلى ابنه "ميم" بالإشراف على هذه الأعمال.

استيلاء الفاطميين على مصر

أرسل المعز لدين الله إلى مصر واحداً من أكفأ قادته ألا وهو جوهر الصقلي الذي نجح من قبل في بسط نفوذ الفاطميين في الشمال الأفريقي كله وخرج المعز في وداعهم في 14 من ربيع الأول 358هـ= 4 من فبراير 969م ولم يجد الجيش مشقة في مهمته ودخل عاصمة البلاد في 17 من شعبان 358هـ= 6 يوليو 969م دون مقاومة تذكر، وبعد أن أعطى الأمان للمصريين.

الفاطميون و القاهرة

الأزهر بالقاهرة

رأى جوهر الصقلي أن الوقت قد حان لحضور الخليفة المعز بنفسه إلى مصر، وأن الظروف مهيأة لاستقباله في القاهرة عاصمته الجديدة فكتب إليه بدعوه إلى الحضور وتسلم زمام الحكم فخرج المعز من المنصورة عاصمته في المغرب وكانت تتصل بالقيروان في 21 من شوال 361هـ= 5 من أغسطس 972م وحمل معه كل ذخائره وأمواله حتى توأبيت آبائه حملها معه وهو في طريقه إليها واستخلف على المغرب أسرة بربرية محلية هي أسرة بني زيري، وكان هذا يعني أن الفاطميين قد عزموا

على الاستقرار في القاهرة، وأن فتحهم لها لم يكن لكسب أراضٍ جديدة لدولتهم، وإنما لتكون مستقرا لهم ومركزا يهددون به الخلافة العباسية.

وصل المعز إلى القاهرة في 7 رمضان 362هـ = 11 يونيو 972م، وأقام في القصر الذي بناه جوهر، وفي اليوم الثاني خرج لاستقبال مهنثيه وأصبحت القاهرة منذ ذلك الحين مقرا للخلافة الفاطمية، وانقطعت تبعيتها للخلافة العباسية السنية.

قضى المعز لدين الله القسم الأكبر من خلافته في المغرب، ولم يبق في مصر إلا نحو 3 سنوات، ولكنها كانت ذات تأثير في حياة دولته، فقد نجح في نقل مركز دولته إلى القاهرة، وأقام حكومة قوية أحدثت انقلابا في المظاهر الدينية والثقافية والاجتماعية في مصر، ولا تزال بعض آثاره تطل علينا حتى الآن، وجعل من مصر قلبا للعالم الإسلامي ومركزا لنشر دعوته الإسماعيلية والتطلع إلى التوسع وبسط النفوذ.

وقد قامت القاهرة بعد ذلك بدورها القيادي حتى بعد سقوط الدولة الفاطمية في الوقوف أمام المد الصليبي وهجمات المغول، وهو ما يثبت أن العالم الإسلامي كان بحاجة إلى مركز متوسط للقيام بمثل هذه الأدوار، وهذا ما تنبه إليه الفاطميون وأثبتته أحداث التاريخ من قديم الزمان؛ حيث كانت الإسكندرية تشغله في العصر الروماني البيزنطي.

ولم تطل الحياة بالمعز في القاهرة ليشهد ثمار ما أنجزته يده، لكن حسب أنه نجح في الانتقال بدولته من المغرب التي كانت تنهكها ثورات البربر المتتالية، ولم تدع له فرصة لالتقاط أنفاسها حتى تكون مستقرا جديدا للتوسع والاستمرار، وأنه أول خليفة فاطمي يحكم دولته من القاهرة، عاصمته الجديدة.

أرسل المعز جيشه بقيادة جوهر الصقلي في حروب ضد قبائل المغرب وأمويي الأندلس. كما أكدت غاراته على إيطاليا سيادة الفاطميين على البحر المتوسط على

حساب البيزنطيين. وتوفي الخليفة المعز لدين الله في القاهرة في 16 ربيع الثاني 365 هـ/23 ديسمبر 975م.

وفي سنة 357 مات كافور فاضطربت الأحوال بمصر وتردت الحالة الاقتصادية بها، وحل الوباء والقحط بالبلاد من جراء انخفاض النيل، وعجزت الحكومة عن دفع رواتب الجند، مما حمل كثيراً من أولي الرأي بمصر على الكتابة إلى المعز لدين الله يطلبون منه القدوم إلى مصر..

وفي 14 من ربيع ثاني سنة 358 هـ سار جوهر الصقلي على رأس جيش للعبيديين (الفاطميين) قوامه مائة ألف فارس، فدخل الإسكندرية بغير مقاومة ولما وردت إلى الفسطاط أخبار وصول جوهر إلى الإسكندرية، رأى الوزير المصري جعفر بن الفرات ومن معه أن يفاوضوا جوهر على شروط التسليم وطلب الأمان على أرواح المصريين، فالتقوا به عند تروجة (إحدى قري مركز أبي المطامير بمحافظة البحيرة) في 18 من رجب سنة 358 فأمنهم جوهر على أموالهم وأنه ما جاء إلا للإصلاح كما نص في كتاب الأمان، على أن يظل المصريون على مذهبهم السني ولا يلزمون بالتحول إلى المذهب الشيعي..

ور المعز لدين الله

معد المعز لدين الله، المعز أبو تميم معد بن منصور (المهدية حوالي 932 - القاهرة 975) هو رابع الخلفاء الفاطميين في إفريقية (تونس حالياً) وأول الخلفاء الفاطميين في مصر. والإمام الرابع عشر من أئمة الإسماعيلية حكم من 953 حتى 975. وقد أرسل أكفاً قواده وهو جوهر الصقلي للاستيلاء على مصر من العباسيين فدخلها وأسس مدينة القاهرة بالقرب من الفسطاط، والتي تعتبر أول عاصمة للعرب في مصر.

لإية الامام المعز لدين الله

ولى المعز لدين الله الخلافة الفاطمية خلفاً لأبيه المنصور أبي طاهر إسماعيل، الخليفة الثالث في قائمة الخلفاء الفاطميين، وكان المعز رجلاً مثقفاً يجيد عدة لغات مولعاً بالعلوم والآداب متمرساً بإدارة شئون الدولة وتصريف أمورها كيساً فطناً يحظى باحترام رجال الدولة وتقديرهم.

وانتهج المعز سياسة رشيدة، فأصلح ما أفسدته ثورات الخارجين على الدولة، ونجح في بناء جيش قوي، واصطناع القادة والفاتحين وتوحيد بلاد المغرب تحت رايته وسلطانه ومد نفوذه إلى جنوب إيطاليا.

ولم تغفل عينا المعز لدين الله عن مصر، فكان يتابع أخبارها، وينتظر الفرصة السانحة لكي يبسط نفوذه عليها، متذرعاً بالصبر وحسن الإعداد، حتى يتهيأ له النجاح والظفر.

صة نقل المقطم

من المعروف أن الحاكم المعز لدين الله الفاطمي كان محباً لمجالس الأدب ومولعاً بالمناقشات الدينية ولهذا كان يجمع رجال الدين من المسلمين والمسيحيين واليهود للمناقشة في مجلسه شريطة أن يتقبل الجميع ما يثار بلا غضب أو انفعال أو خصام.. وكان من ضمن أفراد هذا المجلس رجل يهودي اعتنق الإسلام لكي يصبح وزيراً في الدولة هو 'يعقوب بن كلس' ويتردد أنه في إحدى هذه الجلسات التي كانت تضم الجميع.. بطريك الأقباط في ذلك الوقت الأنبا إبرام السرياني.. والوزير يعقوب بن كلس اليهودي الأصل ومعه زميل له يدعي موسى.. وفي هذه الجلسة حاول اليهوديان أن يوقعا الحاكم مع الأقباط فقالا للحاكم بأننا وجدنا في إنجيل النصاري آية تقول 'ان من له إيمان مثل حبة خردل لكنتم تقولون لهذا الجبل انتقل من هنا إلى هناك فينتقل ولا يكون شيئاً غير ممكن' وبالتالي فعليك بصفتك الحاكم أن تطلب من البابا

البطريك أن ينقل الجبل الجائم شرق القاهرة وإن لم يستطع يكون دينهم باطلاً ويجب إبادتهم!
 وقبل أن ينفذ المجلس طلب الخليفة المعز من البابا إبرام السرياني اثبات صحة هذه الآية..
 أي اثبات إمكانية نقل جبل المقطم إذا صحت الآية.. وبعد أن صلي البطريك طلب من الخليفة مهلة
 ثلاثة أيام حتي يثبت له هذه المعجزة

ورجع البابا ليجمع شعبه ويطلب منهم الصوم ثلاثة أيام مع الصلاة المستمرة واعتكف هو
 ورجال الدين داخل كنيسة العذراء بالمعلقة.. وفجر اليوم الثالث ظهرت السيدة العذراء للبابا أثناء
 غفوته وأخبرته بأن يخرج إلي الشارع فسيجد رجلاً يحمل جرة ماء ويعين واحدة.. إن هذا الرجل ستم
 المعجزة علي يديه.. وأسرع البابا إلي الشارع ناحية السوق فوجد فعلاً رجلاً بهذه الأوصاف فأمسك به
 وأدخله الكنيسة وأخبره بأن اختير لتقع معجزة نقل جبل المقطم علي يديه.. واضطرب الرجل وأخبر
 البابا بأنه رجل فقير ويعمل اسكافياً فكيف يقع الاختيار عليه؟! ولكن البابا البطريك أكد له أن
 السيدة العذراء ظهرت لتبلغه بهذا الأمر.. ووافق الرجل واشترط أن يتكتم حقيقة أمره طالما هو حي
 علي الأرض.

كان هذا الرجل يدعي سمعان الخراز نسبة إلي مهنته التي كانت موزعة بين دباغة الجلود
 والاسكافي وهو من يقوم بإصلاح الأحذية.. المهم انه طلب من البابا البطريك أن يصعد إلي الجبل
 ومعه رجال الدين حاملين الأناجيل والصلبان والشموع.. وأيضاً المجامر مملوءة بالبخور ويقفون في
 جانب أعلي الجبل وأن يصعد الخليفة وحاشيته ورجال الدولة أعلي الجانب المقابل من الجبل.. وأن
 يصعد الشعب أيضاً ليري ويشاهد الجميع هذه المعجزة التي وعد بها الرب.

وفي الموعد المحدد.. أي بعد ثلاثة أيام من الصوم والصلاة خرج الخليفة المعز
 من داره ممتطياً جواده وخلفه حشداً كبيراً من حاشيته ورجال الدولة متوجهاً إلي
 جبل المقطم وهناك وجد في انتظاره البابا ابرام السرياني(تاريخ التقدمة 3 يناير 975

للميلاد- تاريخ النياحة 3 ديسمبر 978 للميلاد)إبرام الأول ومعه رجال الكنيسة والشعب خلفه..
وقف الخليفة ومن معه علي جانب من الجبل.. وعلي الجانب المقابل وقف البابا ابرام ورجال الكنيسة
والشعب خلفه.. وكان من ضمن أفراد الشعب سمعان الخراز الذي وقف خلف البابا مباشرة..

وبعد أن قام البابا بالصلاة طلب من شعبه أن يرددوا كلمة 'كيرياسيون' وهي كلمة باللغة
القبطية معناها يارب ارحم اربعمائة مرة.. بواقع مائة مرة كل جهة من الجهات الأربع شرقاً وغرباً
وشمالاً وجنوباً.. وبعدها سجد البابا وشعبه ثلاث مرات.. وعندئذ شعر الجميع بزلزلة غاية في القوة
تجتاح الجبل.. وفي كل سجدة يتحرك الجبل.. ومع كل قيام يرتفع الجبل إلي أعلي وتظهر الشمس من
تحتة ثم يتحرك من مكانه إلي هذا المكان الذي استقر به.. قال المعز لدين الله 'عظيم هو الله
تبارك اسمه'.. وما إن هدأت الامور حتي تلفت البابا باحثاً عنه سمعان الخراز فاكتشف انه اختفي
تماماً!..

ويدعى من يردد هذه القصة أن الجبل انتقل فعلاً من بركة الفييل بالسيدة زينب مكان مسجد
أحمد بن طولون إلي هذا المكان ليفسح مساحة كبيرة استطاع الخليفة المعز أن يعمرها وتظهر القاهرة
الحالية، وردت قصة نقل جبل المقطم في كتابات المؤرخ الانجليزي الفريد بتلر.

الجدير بالذكر أن مسجد أحمد بن طولون بني عام 876 م

بيد أن طائفة كبيرة من الجند المصريين رفضوا هذا العقد، ودخلوا في معركة حربية مع جوهر
الصقلي ولكنهم استسلموا في النهاية وطلبوا إعادة الأمان.

بناء القاهرة والجامع الأزهر

وبدأ عهد جديد لمصر في ظل الحكم العبيدي (الفاطمي) ووضع الأساس لبناء مدينة المنصورية (القاهرة) في 17 شعبان سنة 358 شمالي الفسطاط وأسس القصر الذي سينزل به المعز وعرف باسم القصر الشرقي الكبير.

ظلت القاهرة تعرف بالمنصورية أربع سنوات، ثم سماها المعز القاهرة تفاؤلاً بأنها ستقهر الدولة العباسية، وجعل جوهر بسور القاهرة أربعة أبواب: باب النصر، باب الفتوح، باب زويلة، وباب القوس، ثم بدأ بناء الجامع الأزهر سنة 359 وتم بناؤه في سنتين، وذلك ليكون خاصاً بشعائر المذهب العبيدي الفاطمي، خشية إثارة المصريين إذا ظهرت هذه الشعائر في مساجدهم.. وأقيمت الصلاة في الجامع الأزهر لأول مرة 7 من رمضان سنة 361هـ وتحولت الدعوة على المنابر إلى الخليفة المعز، وضرب السكة باسم الخليفة العبيدي الشيعي (الفاطمي) بدلاً من اسم الخليفة العباسي، كذلك منع جوهر الناس من لبس السواد شعار العباسيين، وزيد في الخطبة على عادة الشيعة.. (اللهم صل على محمد النبي المصطفى، وعلى علي المرتضى، وعلى فاطمة البتول، وعلى الحسن والحسين سبطي الرسول الذين أذهبت عنهم الرجس وطهرتهم تطهيراً، اللهم صل على الأئمة الراشدين، آباء أمير المؤمنين الهادين المهديين

محاولة نشر المذهب الشيعي

لم يف العبيديون (الفاطميون) بتعهداتهم بعدم إجبار المصريين على تغيير مذهبهم السنني إلى مذهب الشيعة فأسندت المناصب العليا وخاصة القضاء إلى الشيعيين.

واتخذت المساجد الكبيرة مركز دعاية للمذهب الشيعي.

وتم إضافة منصب جديد يقوم على تعيين أحد كبار المتفقيين في مذهب الشيعة للقيام بنشر دعوتهم، وكان يعرف بداعي الدعاة، وكانت منزلته تلي قاضي القضاة ويعاونه اثنا عشر نقيباً، ونواب في سائر البلاد، وكثيراً ما تقلد رجل واحد منصب قاضي القضاة والدعوة.

وحولوا الشعائر إلى المذهب الشيعي واحتفلوا بعيد الغدير ويوم مقتل الحسين وتضرر المصريون من ذلك كثيراً.

وفي سنة 395 أمر الحاكم بأمر الله بنقش سب الصحابة على الجدران وفي الأسواق. ثم تراجع عن ذلك سنة 398.

وظهر الاحتفال بمولد النبي -صلى الله عليه وسلم- ومولد ابنته السيدة فاطمة وعلي بن أبي طالب.

وأذن في جميع المساجد بـ (حي على العمل) فمهّد بذلك جوهر للخليفة المعز المجيء إلى مصر، فدخل المعز مصر في شعبان سنة 362 هـ.

ولما دخل قصره الذي أعد له خر لله ساجداً.. وقدمت إليه الهدايا العظيمة الثمينة واتخذت القاهرة عاصمة للدولة العبيدية (الفاطمية).

أضعف ذلك نفوذ الفاطميين في بلاد المغرب، واستقلت بلاد عن نفوذ العبيديين (الفاطميين) بالمغرب..

وقد استأثر المعز بالنفوذ والسلطان في مصر ولم يشأ أن يترك لجوهر من السلطة شيئاً لئلا ينازعه ملكه وبالتدريج فقد جوهر ما كان يتمتع به من نفوذ..

اليهود والنصارى في عهد الدولة العبيدي (الفاطمية)

من الأمور البارزة في عهد العبيديين (الفاطميين) أنهم قربوا إليهم أهل الكتاب من النصارى

واليهود!!

ففي زمن المعز استعان بكثير من الأطباء اليهود، وترقي بعضهم في المناصب، حتى صار أحدهم وهو يعقوب بن كلس وزيرًا للعز، وإليه يرجع الفضل في وضع قواعد الدولة ونظمها.

وتزوج العز من مسيحية، أصبح لها نفوذ عظيم على العز، فقد حملته على العطف على بني ملتها فاحتفل بأعيادهم ومواسمهم الدينية. وأصبح بدواوين الدولة عدد كبير من كتابهم، واستأثروا بمعظم السلطات..

عين العز منشأ بن إبراهيم الفرار اليهودي واليًا على بلاد الشام.

في سنة 393 أمر الحاكم بأمر الله أن يرتدي أهل الذمة أزياء خاصة، وبعدها بثلاث سنوات أمر بهدم بعض الكنائس في القاهرة، ومن العجيب أنه في ذات الوقت قلد الوزارة منصور بن عبدون النصراني، الذي أشار على الخليفة العبيدي (الفاطمي) الحاكم بهدم كنيسة القيامة أو القبر المقدس، فأصدر مرسومًا بهدمها. وكان لهدم هذه الكنيسة الأثر الأكبر في إثارة حمية الصليبيين للاستيلاء على بيت المقدس.

واستمر هذا الاضطهاد حتى اضطر كثير من كتاب النصارى أن يدخلوا في الإسلام، وهاجر بعضهم إلى بلاد الدولة الرومانية الشرقية والحبشة والنوبة.

وفي سنة 411 قرر الحاكم أن يرفع عنهم هذا الاضطهاد، ثم جاء الظاهر فعطف على أهل الذمة..

وفي أوائل عهد المستنصر بالله العبيدي (الفاطمي) ارتفع شأن أبي سعد إبراهيم ابن سهل التستري اليهودي، لأن والده ذلك الخليفة كانت من قَبْلِ أمة في بيته، فلما ولي ابنها المستنصر الخلافة قربت التستري وولته ديوانها، وتحيز التستري لليهود، فتقلدوا في أيامه كثيرًا من مناصب الدولة ولكنه قتل سنة 439 هـ.

ظهور فرقة الدرزية

في عهد الحاكم وفي سنوات حكمه الأخيرة جاء إلى مصر بعض الفرس، والذين راقتهم الدعوة الإسماعيلية فاعتنقوها، وزادوا فيها فكرة تأليه الحاكم، ودعوا إليها فسخط عليهم أهل السنة وطاردوهم وكان أشهرهم والمقرب إلى الحاكم بأمر الله محمد بن إسماعيل الدرزي، وقد هرب إلى بعض قري بانياس (بلدة صغيرة غربي دمشق) حيث أخذ ينشر دعوة تأليه الحاكم، فاستمال إليه كثيراً من الأنصار الذي أصبحوا يعرفون باسم الدرزية.

وجد الخليفة الحاكم بأمر الله في هذه الدعوة فرصة ليحيط نفسه بسياج من التقديس رغبة منه في جعل رعاياه طوع إرادته..

ثم جاء الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله بعد مضي ثلاث سنوات على وفاة الحاكم، ليعلن براءته من دعوى الألوهية التي قيلت في أبيه.

عهد المستنصر العبيدي (الفاطمي)

في عهد المستنصر (427 - 487) وقعت اضطرابات عظيمة في البلاد:

فالجند السودانيون يثيرون الاضطرابات في الوجه القبلي.

ونحوًا من أربعين ألف فارس من قبيلة لواتة والأعراب، تحت زعامة ناصر الدولة الحسين بن حمدان التغلبي (المتنرد على الخلافة العبيدية الفاطمية)، يغيرون على الوجه البحري وينهبون بلاده ويحطمون الجسور والقنوات، مما ترتب عليه انقطاع المئونة عن القاهرة والفسطاط.

وفي سنة 462 بعث ناصر الدولة إلى ألب أرسلان سلطان السلاجقة بالعراق رسولا من قبله يسأله أن يرسل إليه عسكريًا ليقم الدعوة العباسية بمصر على أن تؤول إليه السيادة على مصر، فرحب أرسلان بذلك ولكنه انشغل بمحاربة الروم عن مصر.

وفي سنة 464 قطع ابن حمدان اسم المستنصر من الخطبة في الوجه البحري، وبعث إلى الخليفة القائم العباسي ببغداد يلتمس الخلع، ثم قدم إلى الفسطاط وتولي الحكم في القاهرة، وأطلق للخليفة مائة دينار كل شهر وخشي الأتراك على أنفسهم من جراء استبداد ناصر الدولة بالأمور في القاهرة، فدبروا لقتله فقتل وتبعوا كل أفراد أسرته بمصر وتخلصوا منهم.

ثم تسلطت الأتراك واستبدوا بالأمور دون المستنصر سنة 466، فبعث إلى بدر الجمالي والي عكا يطلب منه القدوم ليتولى تدبير شؤون الدولة، فاشترط أن يحضر معه من يختاره من عسكر الشام (أرمن)، ليستعيز بهم عن الجند الأتراك والمغاربة والسودانيين الموجودين بمصر.

وبدر الجمالي كان مملوكًا أرمنيًا للأمير جمال الدولة بن عمار، ثم أخذ يترقي في المناصب لما أظهره من كفاية في الحروب التي قامت ببلاد الشام، حتى ولي إمارة دمشق من قبل المستنصر سنة 456 وحارب الأتراك في تلك البلاد ثم تقلد نيابة عكا سنة 460 هـ.

بدأ الجمالي بقتل رءوس الأتراك فاستتب له الأمن، وكان من جنده من احتفظ بمسيحيته، واستطاع الجمالي أن يعيد نفوذ الخليفة على جميع بلاد الوجه القبلي حتى أسوان وكذلك الوجه البحري، وبني جامع العطارين وأعاد الرخاء فزاد خراج مصر في سنة (457-464) من 2.000.000 دينار إلى 3.100.000 دينار، وتوفي الجمالي سنة 487 وعهد لابنه الأفضل شاهنشاه.

وظل المستنصر في عهد وزرائه كالمحجور عليه إلى أن توفي في 17 من ذي الحجة سنة 487 هـ ومع وفاة المستنصر بدأ العصر العبيدي (الفاطمي) الثاني حيث زادت سلطة الوزراء.

المستنصر بالله والشدة المستنصرية

المستنصر بالله هو الخليفة الخامس من خلفاء الدولة العبيدية الفاطمية في مصر والثامن منذ نشأتها بالمغرب، وأشهر أحداث عصره الشدة المستنصرية أو ما يعرف في كتب المؤرخين بـ "الشدة العظمى"، وهي مصطلح يطلق على المجاعة والخراب الذي حل بمصر لمدة سبع سنوات عجاف (457هـ - 464هـ / 1065م - 1071م).

الخليفة المستنصر بالله العبيدي

هو المستنصر بالله أبو تميم معد بن الظاهر لإعزاز دين الله بن الحاكم بن العزيز بن المعز لدين الله العبيدي الفاطمي، تولى الخلافة العبيدية الفاطمية خلفاً لوالده وهو ابن سبع سنين في النصف من شعبان سنة 427هـ / 1036م، وأقام بها ستين سنة إلى 487هـ / 1094م.

وقد بلغت الخلافة العبيدية الفاطمية في عهد من القوة والانتعاش والازدهار ما لم يبلغه أحد قبله، حيث امتد سلطان الخلافة ليشمل بلاد الشام وفلسطين والحجاز وصقلية وشمال إفريقيا، وتردد اسمه على المنابر في هذه البلاد، وحُطِبَ له في بغداد لمدة عام وذلك في سنة (450هـ / 1058م).

ودام ذلك حتى تغلبت أمه على الدولة، فكانت تصطنع الوزراء وتوليهم، ومن استوحشت منه أوعزت بقتله فيقتل، مما أثار الفتن وعمت الفوضى والاضطرابات، ومنه حل الخراب على الدولة كلها إلى أن سقطت بنفو الوزراء وضياع هيبة الخليفة. وقد كان سب الصحابة فاشيا في أياما لمستنصر، والسنة غريبة مكتومة، حتى إنهم منعوا الحافظ أبا إسحاق الجبال من رواية الحديث، وهددوه فامتنع.

قال ابن خلكان رحمه الله: "جرى على أيامه ما لم يجر على أيام أحد من أهل بيته ممن تقدمه ولا تأخره"، منها: حادثة الباسيري الذي قطع الخطبة للخليفة القائم بأمر الله وخطب للمستنصر ببغداد سنة 450هـ ومنها أنه أقام في الأمر ستين سنة، وهذا

أمر لم يبلغه أحد من أهل بيته ولا من خلفاء الإسلام، ومنها أنه حدث في أيام خلافته في مصر الغلاء العظيم الذي ما عهد مثله منذ زمان يوسف عليه السلام، وهو ما يعرف بالشدة المستنصرية أو الشدة العظمى.

أحداث خلافة المستنصر

شهد أواخر عهد المستنصر (427هـ - 487هـ) عدة اضطرابات عظيمة في البلاد، منها:

- 1- أن الجند السودانيون يثيرون الاضطرابات في الوجه القبلي.
- 2- ونحوًا من أربعين ألف فارس من قبيلة لواتة والأعراب، تحت زعامة ناصر الدولة الحسين بن حمدان التغلبي (المتنصر على الخلافة العبيدية الفاطمية)، يغيرون على الوجه البحري وينهبون بلاده ويحطمون الجسور والقنوات، مما ترتب عليه انقطاع المتونة عن القاهرة والفسطاط.
- 3- وفي سنة 462هـ بعث ناصر الدولة إلى ألب أرسلان سلطان السلاجقة بالعراق رسولًا من قبله يسأله أن يرسل إليه عسكريًا ليقم الدعوة العباسية بمصر على أن تؤول إليه السيادة على مصر، فرحب أرسلان بذلك، ولكنه انشغل بمحاربة الروم عن مصر.
- 4- وفي سنة 464هـ قطع ابن حمدان اسم المستنصر من الخطبة في الوجه البحري، وبعث إلى الخليفة القائم العباسي ببغداد يلتمس الخلع، ثم قدم إلى الفسطاط وتولي الحكم في القاهرة، وأطلق للخليفة مائة دينار كل شهر وخشي الأتراك على أنفسهم من جراء استبداد ناصر الدولة بالأمور في القاهرة، فدبروا لقتله فقتل وتبعوا كل أفراد أسرته بمصر وتخلصوا منهم.
- 5- ثم تسلط الأتراك، واستبدوا بالأمور دون المستنصر سنة 466هـ.

شأت الأقدار أن لا تقتصر معاناة البلاد على اختلال الإدارة والفضى السياسية، فجاء نقصان منسوب مياه النيل ليضيف إلى البلاد أزمة عاتية. وتكرر هذا النقصان ليصيب البلاد بكارثة كبرى ومجاعة داهية امتدت لسبع سنوات متصلة (457هـ - 464هـ / 1065م - 1071م)، وسببها ضعف الخلافة واختلال أحوال المملكة واستيلاء الأمراء على الدولة، واتصال الفتى بين العربان وقصور النيل، فزادات الغلاء وأعقبه الوباء، حتى تعطلت الأرض عن الزراعة، شمل الخوف وخيفت السبل برًا وبحرًا.

وقد تخلل تلك المجاعة أعمال السلب والنهب وعمت الفوضى، واشتدت تلك المجاعة حتى لم يجد فيها الناس شيئاً يأكلوه فأكلوا الميتة والبغال والحمر، وبيع رغيف الخبز الواحد بخمسين دينارًا.

وذكر ابن إياس من العجائب التي لا يصدقها عقل زمن تلك المجاعة، ومنها: أن الناس أكلوا الكلاب والقطط، وكان ثمن الكلب الواحد خمسة دنانير والقط ثلاثة، وقيل كان الكلب يدخل البيت فيأكل الطفل الصغير وأبواه ينظران إليه فلا يستطيعان النهوض لدفعه عن ولدهما من شدة الجوع والضعف، ثم اشتد الأمر حتى صار الرجل يأخذ ابن جاره ويذبحه ويأكله ولا ينكر ذلك عليه أحد من الناس، وصار الناس في الطرقات إذا قوى القوى على الضعيف يذبحه ويأكله.

وذكر كذلك أن طائفة من الناس جلسوا فوق أسقف البيوت وصنعوا الخطاطيف والكلاليب لاصطياد المارة بالشوارع من فوق الأسطح، فإذا صار عندهم ذبحوه في الحال وأكلوه بعظامه.

ويروي إياس أن وزير البلاد لم يكن يمتلك سوى بغل واحد يركبه، فعهد بالبغل إلى غلام ليحرسه، إلا أن الغلام من شدة جوعه كان ضعيفًا فلم يستطع أن

يواجه اللصوص الذين سرقوا البغل، وعندما علم الوزير بسرقة بغله غضب غضباً شديداً، وتمكن من القبض على اللصوص، وقام بشنقهم على شجرة، وعندما استيقظ الصباح وجد عظام اللصوص فقط؛ لأن الناس من شدة جوعهم أكلوا لحومهم.

وقيل: إنه كان بمصر حارة تعرف بحارة الطبق، وهي معروفة بمدينة الفسطاط، كان فيها عشرون داراً، كل دار تساوي ألف دينار، فأبيعت كلها بطبق خبز، كل دار برغيف، فسميت من يومئذ بحارة الطبق.

وذكر ابن الأثير أنه اشتد الغلاء، حتى حكي أن امرأة أكلت رغيفاً بألف دينار، وباعت عروضاً تساوي ألف دينار بثلاث مائة دينار، فاشتريت بها شوالاً من القمح، فانتبهه الناس، فنهبت هي منه، فحصل لها ما خبز رغيفاً.

وذكر سبط ابن الجوزي في مرآة الزمان أن امرأة خرجت ومعها قدر ربع جوهر من اللؤلؤ، فقالت من يأخذ مني هذا الجوهر ويعطيني عوضه قمحاً؟! فلم تجد من يأخذه منها. فقالت: إذا لم تنفعني وقت الضائقة فلا حاجة لي بك، وألقته على الأرض وانصرفت. فالعجب ان ظل اللؤلؤ مرمياً على الأرض ثلاثة أيام ولم يوجد من يلتقطه!!

ويروي المقرئ أن سيدة غنية من نساء القاهرة ألها صياح أطفالها الصغار وهم يبكون من الجوع فلجأت إلى شكجية حليها وأخذت تقلب ما فيها من مجوهرات ومصوغات ثم تحسر لأنها تمتلك ثروة طائلة ولا تستطيع شراء رغيف واحد. فاخترت عقداً ثميناً من اللؤلؤ تزيد قيمته على ألف دينار، وخرجت تطوف أسواق القاهرة والفسطاط فلا تجد من يشتريه.

وأخيراً استطاعت أن تقنع أحد التجار بشرائه مقابل كيس من الدقيق، واستأجرت بعض الحمالين لنقل الكيس إلى بيتها، ولكن لم تكد تخطو بضع خطوات حتى هاجمته جحافل الجياع، فاغتصبوا الدقيق، وعندئذ لم تجد مفرّاً من أن تزاحمهم

حتى اختلطت لنفسها حفنة من الدقيق وحرزنت لما حدث من الجماهير الجائعة، فعكفت على عجن حفنة الدقيق وصنعت منها أقراصاً صغيرة وخبزتها ثم أخفتها في طيات ثوبها، وانطلقت إلى الشارع صائحة: الجوع الجوع. الخبز الخبز. وألتفت حولها الرجال والنساء والأطفال وسارت معهم إلى قصر الخليفة المستنصر، ووقفت على مصطبة ثم أخرجت قرصاً من طيات ثوبها ولوحت به وهي تصيح: "أيها الناس، فلتعلموا أن هذه القرصة كلفتني ألف دينار، فادعوا معي لمولاي المستنصر الذي أسعد الله الناس بأيامه، وأعاد عليهم بركات حسن نظره، حتى تقومت عليّ هذه القرصة بألف دينار!!".

وقُبض على رجل كان يقتل النساء والصبيان ويبيع لحومهم ويدفن رؤوسهم وأطرافهم، فقتل. واشتد الغلاء والوباء حتى أن أهل البيت كانوا يموتون في ليلة واحدة، وكان يموت كل يوم على الأقل ألف نفس، ثم أرتفع العدد إلى عشرة آلاف وفي يوم مات ثمان مائة ألفاً.

وحكى أن المستنصر أخرج جميع ما في الذخائر فباعها، ويقال إنه باع في هذا الغلاء ثمانين ألف قطعة من أنواع الجوهر المثلثة وخمسة وسبعين ألف قطعة من أنواع الديباج المذهب وعشرين ألف سيف وأحد عشر ألف دار، وافتقر الخليفة المستنصر حتى لم يبق له إلا سجادة تحته وقبقاب في رجله. وكان المستنصر في هذه الشدة يركب وحده، وكل من معه من الخواص مترجلون ليس لهم دواب يركبونها، وكانوا إذا مشوا تساقطوا في الطرقات من الجوع، وكان المستنصر يستعير من ابن هبة صاحب ديوان الإنشاء بخلته ليركبها صاحب مظلته، وآخر الأمر توجهت أم المستنصر وبناته إلى بغداد من فرط الجوع، وذلك في سنة 462هـ وتفرق أهل مصر في البلاد وتشتتوا.

وكان المستنصر يتحمل نفقات تكفين عشرين ألفاً على حسابه، حتى فنى ثلث أهل مصر، وقيل إنه مات مليون وستمائة ألف نفس، ونزل الجند لزراعة الأرض بعد أن هلك الفلاحون.

وقال ابن دحية في كتاب النبراس: "وخرّبت القطائع التي لأحمد بن طولون في الشدة العظمى زمن الخليفة المستنصر العبيدي أيام القحط والغلاء المفرط الذي كان بالديار المصرية، وهلك من كان فيها من السكان، وكانت نيفا على مائة ألف دار". وخرّبت كذلك مدينة الفسطاط حتى كانت خراباً.

وكان من نتيجة هذه الأزمة العاتية أن أخذت دولة المستنصر بالله في التداعي والسقوط، وخرجت كثير من البلاد عن سلطانه، فقتل البساسيري في العراق سنة (451هـ / 1059م). وعادت بغداد إلى الخلافة العباسية، وقُطعت الخطبة للمستنصر في مكة والمدينة. وحُطبت للخليفة العباسي في سنة (462هـ / 1070م)، ودخل النورمان صقلية واستولوا عليها. فخرجت عن حكم العبيديين سنة (463هـ / 1071م) بعد أن ظلت جزءاً من أملاكهم منذ أن قامت دولتهم.

وتداعى حكم المستنصر في بلاد الشام، فاستقل قاضي صور بمدينته سنة (462هـ / 1070م) وخرجت طرابلس من سلطان الفاطميين، وتتابع ضياع المدن والقلاع من أيديهم، فاستقلت حلب وبيت المقدس والرملة عن سلطانهم في سنة (463هـ / 1071م) ثم تبعتهم دمشق في العام التالي.

بدر الدين الجمالي والخروج من الأزمة

لم يكن أمام الخليفة المستنصر بالله للخروج من هذه الأزمة العاتية سوى الاستعانة بقوة عسكرية قادرة على فرض النظام، وإعادة الهدوء والاستقرار إلى الدولة التي مزقتها الفتى وثورات الجند، وإنهاء حالة الفوضى التي عمّت البلاد، فاتصل ببدر الجمالي واليه على عكا سنة 466هـ وطلب منه القدوم لإصلاح حال البلاد، فأجابته

إلى ذلك، واشترط عليه أن لا يأتي إلا ومعه رجاله، ومن يختاره من عسكر الشام (أرمن)، ليستعيز بهم عن الجند الأتراك والمغاربة والسودانيين الموجودين بمصر.

وبدر الجمالي كان مملوكًا أرمينيًا للأمير جمال الدولة بن عمار، ثم أخذ يترقي في المناصب لما أظهره من كفاية في الحروب التي قامت ببلاد الشام، حتى ولي إمارة دمشق من قبل المستنصر سنة 456هـ وحارب الأتراك في تلك البلاد ثم تقلد نيابة عكا سنة 460هـ.

وما إن حل بدر الجمالي بمدينة القاهرة حتى تخلص من قادة الفتنة ودعاة الثورة، وبدأ في إعادة النظام إلى القاهرة وفرض الأمن والسكينة في ربوعها، وامتدت يده إلى بقية أقاليم مصر فأعاد إليها الهدوء والاستقرار، وضرب على يد العابثين والخارجين، وبسط نفوذ الخليفة في جميع أرجاء البلاد. وفي الوقت نفسه عمل على تنظيم شئون الدولة وإنعاش اقتصادها، فشجع الفلاحين على الزراعة برفع جميع الأعباء المالية عنهم، وأصلح لهم الترع والجسور، وأدى انتظام النظام الزراعي إلى كثرة الحبوب، وتراجع الأسعار، وكان لاستتباب الأمن دور في تنشيط حركة التجارة في مصر، وتوافد التجار عليها من كل مكان.

واتجه بدر الجمالي إلى ترميم القاهرة وإصلاح ما تهدم منها، فأعاد بناء أسوار القاهرة وبنى بها ثلاثة أبواب تعد من أروع آثار العبيدين الفاطميين الباقية إلى الآن وهي: باب الفتوح وباب النصر وباب زويلة، وشيد مساجد كثيرة فبنى في القاهرة مسجده المعروف بمسجد الجيوش على قمة جبل المقطم، وبنى جامع العطارين بالإسكندرية.

واستطاع الجمالي أن يعيد نفوذ الخليفة على جميع بلاد الوجه القبلي حتى أسوان، وكذلك الوجه البحري، وبنى جامع العطارين وأعاد الرخاء فزاد خراج مصر

في سنة (457 - 464) من 2.000.000 دينار إلى 3.100.000 دينار، وتوفي الجمالي سنة 487هـ وعهد لابنه الأفضل شاهنشاه.

ولم يكن للوزير بدر الجمالي أن يقوم بهذه الإصلاحات المالية والإدارية دون أن يكون مطلق اليد، مفوضاً من الخليفة المستنصر، وقد استبد بدر الجمالي بالأمر دون الخليفة، وأصبحت الأمور كلها في قبضة الوزير القوي، الذي بدأ عصراً جديداً في تاريخ الدولة الفاطمية في مصر، تحكم فيه الوزراء أرباب السيوف.

وفاة المستنصر بالله

وظل المستنصر في عهد وزرائه كالمحجور عليه، وآلت به شدائد عظيمة، وفقد القوات فلم يقدر عليه، حتى كانت امرأة من الأشراف تتصدق عليه في كل يوم بقعب فيه فتيت، فلا يأكل سواه مرة في كل يوم، وظل كذلك إلى أن توفي في 18 من ذي الحجة سنة 487هـ ومع وفاة المستنصر بدأ العصر العبيدي (الفاطمي) الثاني حيث زادت سلطة الوزراء، وهو ما اصطلح عليه بعصر نفوذ الوزراء.

الدولة الفاطمية و الحرب مع الروم البيزنطيين

اتجهت سياسة الفاطميين بعد أن امتد نفوذهم إلى مصر في عهد المعز لدين الله الفاطمي سنة 358 هـ / 969م إلى إستعادة المدن التي استولى عليها البيزنطيون في شمال الشام، و لقد كان الفاطميون بعيدي النظر حين أدركوا أن الجيوش البرية وحدها لا تكفي لحماية العالم الإسلامي و انقاذ الوطن العربي، فأنشأوا إسطولاً ضخماً حوى البلاد من الهجمات البيزنطية ثم دافع عنها بعد ذلك في الحروب الصليبية.

و إلى جانب ذلك فإن الفاطميين وضعوا منذ الساعة الأولى لحكمهم خطة هي أن يقوم هذا الحكم على قواعد ثابتة من العلم و المعرفة، و خططوا كما يقال اليوم لسياسة تعليمية شاملة تركز على إنشاء جامعة كبرى، ثم على تفريخ العلماء للعلم،

ثم أرسلوا يستدعون العلماء من الخارج و قد اشد هذا المنهج و اتسع و قوي بعد إقامة الوحدة بضم البلاد الأخرى إلى مصر، و انشاء القاهرة و اقامة الأزهر.

وقام بتنفيذ هذه السياسة القائد الفاطمي جعفر بن فلاح الذي جهز جيشا كبيرا لأسترداد أنطاكية من الروم، و لكن الحملات الفاطمية التي أرسلت لأجلانهم عنها، فشلت في تحقيق هذه السياسة. و ظلت النزاعات و الغارات العسكرية المتبادلة قائمة بين الدولة الفاطمية و الدولة البيزنطية حتى عام 377هـ / 987م حيث قدمت إلى مصر رسل الامبراطور بارسيل الثاني، تحمل الهدايا للخليفة الفاطمي العزيز، و تطلب عقد الصلح بين الدولتين، و ابرمت اتفاقية للهدنة بينهما إلا إنها سرعان ما انهارت بعد فترة لم تدم طويلا، و ظل الروم البيزنطيون ينتهزون الفرص للنيل من الفاطميين، و تكررت المواجهات المسلحة بين الطرفين، و على الرغم من تتابع انتصارات الفاطميين على البيزنطيين في شمال الشام، فإن القائد الفاطمي برجوان عول على مهادنتهم ليتسنى له التفرغ للقضاء على الفتن الداخلية في مصر، و بعد مراسلات سلمية بين قادة الدولتين إستؤنفت المفاوضات و لما تم الاتفاق على شروط الصلح، انتدب برجوان ارسطيس بطريك بيت المقدس لمصاحبة السفير البيزنطي لدى مصرف سفره إلى القسطنطينية لعرض هذه الشروط على الامبراطور الرومي و اقرارها منه، فقام ارسطيس بهذه المهمة، و تم بذلك إبرام معاهدة صداقة بين مصر و الدولة البيزنطية تقرر فيها ما يأتي:

تظل الهدنة قائمة بين مصر و الدولة البيزنطية مدة عشر سنوات.

يتمتع المسيحيون الذين يقيمون في أنحاء الدولة الفاطمية بالحرية الدينية، و يسمح لهم

بتجديد كنائسهم و بناءها.

يتعهد امبراطور الروم باسبيل الثاني بأمداد مصر بما تحتاج إليه من الحبوب.

ورغم معاهدة الصلح هذه ظلت الأجواء المتوترة تحكم العلاقات ما بين الفاطميين و البيزنطيين إلى أن توفي الخليفة الفاطمي العزيز سنة 411 هـ / 1020م وخلفه ابنه الظاهر، الذي تم في عهده إبرام معاهدة صلح جديدة تضمنت الشروط التالية:

أن يسمح للامبراطور البيزنطي بأعادة بناء كنيسة القيامة ببيت المقدس.

أن يسمح لكافة المسيحيين بأعادة بناء الكنائس التي هدمها الحاكم عدا التي حولت إلى جوامع.

أن يعين الامبراطور البيزنطي بطريقا في بيت المقدس.

أن لا يقوم الفاطميون بأي عمل عدائي نحو حلب، حتى تقوم بسداد الجزية السنوية التي كانت تدفعها للدولة البيزنطية منذ عام 970م.

ألا تمد الدولة الفاطمية يد المساعدة لأي عدو من أعداء الدولة البيزنطية وخاصة أهل صقلية الذين هددوا هذه الدولة و عاثوا في جزر بحر الأرخيل.

و في مقابل هذه الشروط، يتعهد الأمبراطور بما يأتي:

أن يعمل على ذكر اسم الخليفة الفاطمي في الخطبة في جامع القسطنطينية و المساجد الواقعة داخل حدود الدولة البيزنطية.

أن يعيد بناء جامع القسطنطينية، و كان قد هدم ردا على هدم كنيسة القيامة في عهد الحاكم بأمر الله.

أن يطلق سراح الأسرى المسلمين الذين في قبضة الروم.

أن لا يقدم الامبراطور أية مساعدة لحسان بن مخرج بن الجراح الطائي صاحب الرملة الذي خرج على الخليفة الظاهر الفاطمي.

وفي سنة 429هـ / 1027م تجدد إبرام اتفاق صلح جديد بين الخليفة الفاطمي المستنصر بالله و الامبراطور ميخائيل الرابع، بعد تعرض الاتفاق السابق لخروقات كانت سببا في تعكير جو العلاقات بين الدولتين.

الباب الرابع التوسع و عصرها الذهبي

التوسّع والفتوحات

بعد أن استقرت أمور الفاطميين في إفريقية، أرادوا توسيع دولتهم لتضمّ المغرب الأقصى (مراكش)، وقد تمكنوا من بسط سيطرتهم على معظم أقاليمه بعد نزاعٍ مع حكامه الأدارسة، إذ تمكن القائد الفاطمي «موسى بن أبي العافية» من هزيمتهم سنة 312هـ. وقد تمرد بن أبي عافية على الفاطميين بعد فتح المغرب، وحول ولاءه إلى عبد الرحمن الناصر لدين الله أمير الأندلس الأموي، لكن عبيد الله المهدي أرسل ابنه «أبا القاسم» سنة 315هـ فتمكن هذا الأخير من استعادة سيطرة الفاطميين على المغرب.

اضطرّ الفاطميون لاحقاً لخوض حروبٍ كثيرة مع الخوارج بالمغرب، فقد ثار عليهم خارجي يدعى «أبا زيد» انتشرت ثورته انتشاراً كبيراً، وتوفي خلال أيام هذه الثورة عبيد الله، فورث عنه حكم دولة الفاطميين ابنه القائم بأمر الله، واستمرّ بحاربة الخوارج، لكنه توفي سنة 334هـ دون تمكّنه من هزيمتهم. فخلفه ابنه المنصور بالله الذي تمكّن أخيراً من القضاء على ثورة أبي يزيد في سنة 336هـ وأسس مدينة «المنصورية» بإفريقية ليجعلها عاصمة الفاطميين. توفي الخليفة المنصور سنة 341هـ فخلفه ابنه المعز لدين الله، رابع الخلفاء الفاطميين وأحد أهم حكام الدولة الفاطمية.

خريطة توضح مسار الفتوحات الفاطمية، انطلاقاً من إفريقية (حالياً تونس) إلى مراكش غرباً ومصرًا ثم بلاد الشام والحجاز شرقاً، وقد اصطدم الفاطميون خلال هذه الغزوات بالإخشيديين بمصر والقرامطة والحمدانيين بالشام والحجاز.

كانت تحكم مصر في زمن ظهور الفاطميين الدولة الإخشيديّة، ومنذ بداياتهم حاولوا عدّة مرة الاستيلاء على مصر، فأرسلوا إليها حملاتٍ عسكريّة في سنوات 302 و307 و321 و322 و332هـ وقد تمكّنت بعض هذه الحملات من السيطرة على أجزاء كبيرة من البلاد، بل إن بعضها نجحت بالاستيلاء على الإسكندرية إلا أن

الفاطميين كانوا يضطرون للانسحاب في كل مرة أمام جيوش محمد بن طغج الإخشيدى. رغم ذلك، كان هناك دعاة منتشرون في مصر طوال العهد الإخشيدى، يدعون الناس لاتباع الدولة الفاطمية. إلا أن الدولة الإخشيدية قد شهدت مع موت أحد آخر حكامها أبي المسك كافور الإخشيدى (سنة 357هـ) انحدارًا كبيرًا وانهيًا اقتصاديًا شديدًا، فانتشر الغلاء والمجاعات والأمراض، وكثر الموت بين الناس.

أدت هذه الأحوال المتردية إلا سخط أهل مصر على الإخشيديين، ووصلت أنباء هذه الحال إلى معز الدين الفاطمي، فبادر على الفور باستغلال الفرصة بإرسال جيش فاطمي على رأسه جوهر الصقلي لضم مصر إلى دولته. لم يبدي المصريون أي مقاومة تذكر للفتح الفاطمي نتيجة هذه الأوضاع، وقد استبشروا بقدوم حكام جدد لهم عوضًا عن الإخشيديين، خصوصًا بعد خطبة قالها جوهر الصقلي باسم معز الدين الفاطمي عندما دخل مصر، فقد قدم في هذه الخطبة وعودًا عديدة بينها تجديد سكة النقود لتجنب الغش فيها، وتخفيف الضرائب الشديدة التي فرضها الإخشيديون، وحماية المصريين من خطر دولة القرامطة بالمشرق، ومنح أهل السنة الحرية بممارسة مذهبهم على طريقتهم. مدينة الفسطاط القديمة القريبة من القاهرة، والتي دخلها الفاطميون دون مقاومة بعد انهيار الدولة الإخشيدية.

جهز الفاطميون جيشًا من 100,000 جندي لأخذ مصر بقيادة جوهر الصقلي، وقد كان هذا الجيش متعددًا عرقياً بدرجة كبيرة، إذ اشتمل على رجال من الأمازيغ والصقالبة والروم والسودان، وصرف معز الدين الفاطمي عليه ملايين الدنانير. وصل جوهر الصقلي أول دخوله مصر إلى بلدة تسمى «منية الصيادين» تقع قرب الإسكندرية، فاستقبله وفد من أهلها على رأسه وزير إخشيدى بارز يدعى «جعفر بن الفرات»، فسلموا له وقبلوا بأخذه بلادهم دون مقاومة.

إلا أن الحاكم الإخشيدى «أبا الفوارس بن الإخشيد» رفض الاستسلام، وبدأ بجمع جيش لالتقاء الفاطميين، فسارع جوهراً بالذهاب إلى قاضٍ معروف بالإسكندرية يدعى «أبا الطاهر محمد بن الأحمدة» واستشاره بما يفعله مع الإخشيديين متذرعاً بالجهاد قائلاً: «مَا تَقُولُ فِيمَنْ أَرَادَ الْعُبُورَ إِلَى مِصْرَ لِيَمْضِيَ إِلَى الْجِهَادِ لِقِتَالِ الرُّومِ، فَمَنْعَ، أَلَيْسَ لَهُ قِتَالُهُمْ؟»، فوافق القاضي، وأصدر فتوى تحل له قتال الإخشيديين. قاد ابن الإخشيد جيشاً إلى وراء النيل في جهة قريبة من الجيزة، والتقى هناك بجيش جوهراً، إلا أن الفاطميين سرعان ما انتصروا انتصاراً كبيراً، ودخلوا الفسطاط بسهولة، ثم فتحوا ما تبقى من مصر دون مقاومة تذكر، وقد فرح الناس بهزيمة ابن الإخشيد بعد ما عانوه بسببه، ونهبوا قصور الإخشيديين بعد أن فر هؤلاء إلى بلاد الشام.

سُرعَ ببناء الجامع الأزهر سنة 359 هـ بعد نحو سنة واحدة على ضم مصر إلى الدولة الفاطمية.

أمر جوهراً الصقلي فور ضم مصر ببناء مدينة جديدة ليستقر فيها جنوده، وذلك تجبئاً لأي مشاكل أو توترات قد تنجم عن اختلاط العساكر بأهل البلاد. وقد قسّم المدينة الجديدة إلى أقسام ليفصل كل مجموعة عرقية عن الأخرى، فكان هناك حيٌّ خاص بالأمازيغ، وواحد للصقالبة، وآخر للروم، وهلمّ جرّاً. وبعد أن استقرت الأمور في مصر، قرّر معز الدين نقل عاصمة دولته من المهديّة بإفريقية إلى هذه المدينة الجديدة، وهكذا تأسست مدينة «القاهرة المعزّيّة» في 17 شعبان سنة 358 هـ ودخل معز الدين الفاطمي مصر في سنة 362 هـ الموافقة لسنة 972م، لتصبح مقرّ حكم الفاطميين حتى نهاية دولتهم.

قبل أن يرحل المعزّ لدين الله عن إفريقية لينتقل إلى عاصمته الجديدة في مصر، عين بلكين بن زيري والياً عليها مكانه، وكان ذلك في سنة 362 هـ الموافقة لسنة 972م. وقد استولى أبناؤه من بني زيري على مجمل شمال أفريقيا فيما بعد، وانقسموا

بعد بعض الخلافات الداخلية إلى قسمين اثنين: «بنو زيري» في إفريقية، و«بنو حماد» في المغرب الأوسط (الجزائر حالياً). لكن الزيريين استقلوا لاحقاً عن الدولة الفاطمية، وحولوا ولاءهم عوضاً عنها إلى الخلافة العباسية في المشرق.

بعد أن استقرت الأمور في مصر للفاطميين، انتقل صراعهم إلى دولة القرامطة في الشرق. فقد غزا القرامطة بدعم بويهى مصر عدّة مرات، وكادوا يصلون إلى القاهرة، لكنّ جوهر الصقلي نجح بصدّ هجماتهم.

وخلال السنوات الآتية أخذ الفاطميون بالتوسّع تدريجياً على حساب القرامطة وباقي الدول الأخرى في المنطقة، فتمكّنوا من انتزاع بلاد الشام في سنة 363هـ الموافقة لسنة 973م من الحسين بن أحمد القرمطي حاكم القرامطة، وضموها حتى مدينة حلب شمالاً بعد القضاء على دولة الحمدانيين، واستولوا على الحجاز بعد هزيمة أشرافها، فباتت رقعة الدولة الفاطمية ممتدة من المغرب إلى مشارف العراق.

المزايا السياسية و الفكرية لنظام الدولة الفاطمية

كان نظام الحكم في ظل الخلافة الفاطمية، كما كان في سائر الدول الإسلامية الأخرى، في العصور الوسطى، نظاماً مطلقاً يستأثر فيه الخليفة بجميع السلطات الروحية و الزمنية، و قد سارت الخلافة الفاطمية على هذا النحو منذ قيامها بالمغرب، ثم بعد ذلك منذ قيامها بمصر، فكان الخليفة الفاطمي، هو الدولة، و هو صاحب السلطات المطلق. و صورة الأمور السلطانية تضم الشروح الآتية:

(إن طاعة الأمم جامعة للملوك و الرعايا، و الرعايا تجمع الأعطاء و الطاعة، و إن الوزير يجمع السياسة، و الجباية، و الجباية جامعة للوزراء و العمال، و أن الملك يجمع الطاعة و السياسة، و العامل يجمع الجباية و الأعطاء و إن الأعطاء جامع للعمال و الرعايا، و أن السياسة مشتركة).

و من هذه الشروح الفلسفية لنظرية الحكم الفاطمية، يتضح إن الأمام هو رئيس الدولة الأعلى، و قد يكون هو الأمام الروحي و الملك الزمني معا، و قد يكون تحت رياسته ملوك آخرون، و يدنون له بالطاعة الدينية و الدنيوية، و هو الحاكم المطلق، و من تحته تتدرج السلطات من أعلى إلى أسفل، و أول من يليه من أهل السلطات هو الوزير، و بأسمه و بتوجيهه يزاول سلطاته في الحكم، و يلي الوزير العمال أو حكام الولايات و الثغور، و هؤلاء يزاولون سلطات الحكم على من دونهم من الرعايا، و ليس للرعية شأن و لا قول و لا رأي، و ليس لها أن، تتصل بالعامل أو الوزير أو الملك، إلا بالطاعة المطلقة.

والخلاصة إنها من الناحية الدستورية (نظرية الحكم المطلق) بل هي تمتاز فوق ذلك، بأن رئيس الدولة الاعلى فيها، و هو الأمام يمتاز بصفات العصمة و القداسة، باعتباره قائم الزمان، و أن قيامه يرجع إلى مشيئة الله.

ومن الميزات التي تميزت بها الدولة الفاطمية صبغتها المذهبية العميقة، كما كانت تمتاز بطرافة نظمها السياسية و قد كانت الدولة الفاطمية مبتكرة مجددة في كثير من قواعد الحكم و الإدارة، و في كثير من الرسوم و النظم، و كانت هذه الرسوم و النظم فوق طرافتها الدستورية تطبعها نفس الصبغة الباذخة، التي تطبع الدولة الفاطمية و سائر مظاهرها.

كانت الخلافة الفاطمية خلافة مذهبية (شيعية) شعارها الأمامة الدينية، و كان لهذه الصفة المذهبية أثرها في صوغ كثير من النظم و الرسوم التي اختصت بها. و قد نشأت الدولة الفاطمية في قفار المغرب، دولة عسكرية ساذجة تظللها الصبغة الدينية، فلما اتسع ملكها و عظم سلطانها بأفتتاح مصر و الشام، شعرت بالحاجة إلى التوسع في النظم السياسية و الإدارية، التي يقوم عليها هذا الملك الباذخ، و لم تكتف بالأعتماد على الخطط العسكرية و الدينية و المدنية المعروفة، بل عمدت إلى الأبتكار في تنظيم الاصول و الخطط الدستورية، وفقا لحاجاتها و غاياتها السياسية و المذهبية.

و ليس من المبالغة القول إن ديوان الأبناء كان أعظم الدواوين قاطبة في إدارة الحكم الفاطمية، و كانت مهمته من أخطر و أدق المهام. ففي دولة كالدولة الفاطمية، لها صبغة مذهبية خاصة، كانت السجلات أو المراسيم تصاغ في أساليب عالية، و كان بث الدعوة المذهبية و عرضها خلال المكاتبات السياسية، يتطلب أرقى و أبلغ الصيغ البيانية.

أما الخطط الدينية فكانت تشمل عدة وظائف خطيرة، أعظمها و أجلها قدرا منصب قاضي القضاة، و منصب الدعاة، و كان قاضي القضاة أعظم زعيم ديني في الدولة، و إليه مرجع الأحكام الشرعية في العبادات و المعاملات و الحدود، و النظر في شؤون السكة (دار الضرب)، و شؤون المساجد و أمتهما و سائر المتصرفين فيها، وكان اختصاصه يشمل مصر و الشام و المغرب و الحرمين، و مركزه العام بالقاهرة.

أما عن المتون الشرعية التي كانت مرجعا للقضاء في العصر الفاطمي، فقد كانت تتضمن أساسا متون الفقه الشيعي أو فقه الأمامية الأسماعيلية، وذلك سواء في العبادات، أو المعاملات أو الحدود، و كان العلامة الفقيه الشيعي الكبير النعمان بن محمد القيرواني قاضي المعز لدين الله، هو أول من وضع متونا منفصلة في أحكام الفقه الأسماعيلي، لبثت طوال العصر الفاطمي، هي المرجع الأول للقضاء.

من جهة أخرى إتسمت الخلافة الفاطمية على الصعيد الديني بسياسة ثابتة، اتسمت بجانب من المرونة، تمثلت في إستمالة أهل السنة و الجماعة، و تمكينهم من إظهار شعائهم على إختلاف مذاهبهم، و كانت المذاهب السنية المعروفة، الشافعي و مالك و أحمد (بخلاف أبي حنيفة) ظاهرة الشعائر في مملكتهم، و كان مذهب مالك بالأخص ذائعا، و من سأل الحكم به أجب إلى طلبه.

و قد أنشئت في الخلافة الفاطمية لأول مرة هيئة رسمية خاصة للنظر في شؤون العلوية و المنتسبين إلى آل البيت(ع)، و عرفت هذه الهيئة يومئذ بـ (نقابة الطالبيين)، وكان يتولى النظر عليها واحد من أكبر شيوخهم و أجلهم قدرا، يسهر على صحة

الأنساب و إثباتها و رعاية شؤونهم و رعاية مصالحهم، و فيما بعد عرفت هذه الهيئة بأسم (نقابة الأشراف).

كانت الدولة الفاطمية أشد الدول الإسلامية حرصا على أن تطبع الشعب والمجتمع بطابعها الخاص، و أن تصوغ روح الشعب و عقليته و تفكيره و برامجه وفقا لمنهجها و رسوماها.

تركزت الأعياد الدينية الرسمية في عهد الدولة الفاطمية، بجملة أعياد خاصة بها شرعت لغايات دينية و سياسية، أما الأعياد العامة، فهي رأس السنة الهجرية، و ليلة المولد النبوي الكريم، و ليلة أول رجب و ليلة نصفه، و ليلة أول شعبان و ليلة نصفه، و غرة رمضان، و يوم الفطر، و يوم النحر أو عيد الأضحى، و أما الأعياد المذهبية فهي الأحتفال بمولد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، و مولد ولديه الحسن والحسين، و مولد زوجته السيدة فاطمة الزهراء ابنة النبي(ص)، و هي التي ينتسب إليها الخلفاء الفاطميون، و يوم عاشوراء أو عاشر المحرم، أي اليوم الذي يصادف فيه مقتل الإمام الحسين(ع) في طف كربلاء سنة 61 هـ هذا إلى جانب أعياد مصرية قديمة، كعيد فتح الخليج، و يوم النوروز، و عيد الشهيد.

و كانت الخلافة الفاطمية ترمي بترتيب هذه الرسوم و المناسبات إلى غايتين: الأولى أن تثبت هيبتها الدينية بما تسيغه من الخطورة و الخشوع على بعض المظاهر والرسوم المذهبية، و الثانية أن تغمر الناس بفيض من الحفلات و المآدب و المواكب الباهرة، و أن تنثر عليها ما استطاعت من دواعي البهجة و المرح، و ذلك لكي تكسب ولاء الناس و عرفانهم و تأييدهم لها.

الحركة الفكرية و العلمية في ظل الفاطميين

قامت الدولة الفاطمية بمصر و الحركة العقلية المصرية تشكل طورا من أطوار قوتها، ذلك أن الدولة الأخشيديية التي استخلص الفاطميون منها تراث مصر، كانت

نصرة للعلوم والآداب، و في ظلها إزدهرت الحركة الفكرية والأدبية، ونبغ عدة من المفكرين. و الكتاب الممتازين، مثل ابن يونس المحدث والمؤرخ، والفقير أبو بكر الحداد، وأبو عمر الكندي المؤرخ، والأديبين الشاعرين أبو جعفر النحاس وأبو القاسم بن طباطبا الحسيني، والحسن بن زولاق الفقيه والمؤرخ.

ولما قامت الدولة الفاطمية بمصر ما لبثت الحركة العقلية أن لقيت ملاذها في قيام الجامعة الفاطمية الكبرى، التي تمثلت بـ (الجامع الأزهر) الذي أقيم في البداية ليكون مسجد الدولة الجديدة و منبرها الرسمي، ثم أنشئت فيه منذ عهد العزيز بالله تلك الحلقات الدراسية التي إستحالت فيما بعد إلى جامعة حققة، وكانت الدولة الفاطمية تعني منذ قيامها بناحية معينة من الدراسات الدينية هي الناحية المذهبية، وأنشئت (جامعة دار الحكمة) الشهيرة في عهد الحاكم بأمر الله.

وأيضا أنشئ منصب داعي الدعاة ليشرف على بث الدعوة على يد نوابه ونقبائه، و تولى تدريس الأصول الشيعية و فقه آل البيت (ع) منذ البداية، جماعة من الفقهاء الممتازين، و في مقدمتهم بنو النعمان. و أولى الحاكم الفاطمي الحركة العقلية شيئا أو جانبا من رعايته، فأجزل النفقة لجامعة دار الحكمة كما هو بالنسبة للجامع الأزهر، و زودها بخزائن الكتب الجليلة، و عقد مجالس المناظرة للعلماء والأدباء، و غمرهم بصلاته، و قرب إليه عدة من أقطاب المفكرين والأدباء، أمثال الكاتب والمؤرخ الكبير محمد بن القاسم بن عاصم شاعر الحاكم و جليسه، و أبي الحسن علي بن محمد الشابشتي الكاتب صاحب الديارات، و قد توفي سنة 390 هـ و ابن يونس العلامة و الرياضي الفلكي الشهير وغيرهم.

كما نبغ في مجال علوم الطب عدة من أكابر الأطباء، منهم محمد بن أحمد سعيد التميمي طبيب العزيز بالله، و أبو الفتح منصور بن مقشر النصراني، ثم طبيب ولده الحاكم من بعده.

و ازدهرت الحركة الفكرية المصرية نوعاً ما خلال النصف الأول من القرن الخامس، بيد إنها ضعفت في أواخر هذا القرن في عهد المستنصر بالله، وكانت هذه الفترة غاصة بالمحن والأحداث و الفتن الداخلية و الخارجية، فلم تُلَق الحركة الأدبية كثيراً من الرعاية أو التعضيد، بيد إنها عادت في أوائل القرن السادس فانتعشت، و استمرت على إنتعاشها و قوتها حتى نهاية الدولة الفاطمية سنة 567هـ / 1172م.

و في الفترة الأخيرة من عصر الدولة الفاطمية، ازدهرت حركة الكتابة في مجال النثر من حيث براعته وروعة أسلوبه و اقتنانه، و تعاقب فيها من ديوان الأندلس عدة من أئمة البيان الرائع، الذين جعلوا من رسائلهم الحلافية و الديوانية نماذج من الفصاحة الباهرة، وكان من هؤلاء أبو الفتوح الدمياطي شيخ القاضي الفاضل، و ابن الخلال.

و من ابرز الفلاسفة الكثيرين الذين تأثروا بالعقائد الشيعية عامة و الفاطمية خاصة أحمد حميد الدين الكرمانى فيلسوف الدعوة و حجتها في العراق و صاحب الكتب الفلسفية الفاطمية مثل كتاب راحة العقل و كتاب المصاييح و كتاب الأقوال الذهبية و غيرها، و كذلك المؤيد في الدين و غيره. و لعل أشهر عالم رياضي شهدته مصر الفاطمية هو الفيلسوف أبو علي محمد بن الحسن الهيثم الذي تضاهي مرتبته العلمية مرتبة اينشتاين في العصر الحديث.

لقد تفرد الفاطميون بإنشاء دور الكتب الكبرى في الاسلام و بلغت تلك الدور حداً عجيبياً، و اجتمع فيها من امهات الكتب و مصادر العلوم المختلفة. من مآثر الفاطميين التي لا يزال المسلمون يستفيدون منها حتى اليوم جامع الأزهر، و قد شرع القائد الفاطمي جوهر في بناء الأزهر بأمر من المعز عندما شرع في بناء مدينة القاهرة يوم السبت لست بقين من جمادى الأولى سنة 359هـ و تم بناؤه في التاسع من رمضان سنة 361هـ ثم جدد فيه العزيز بالله و الحاكم بأمر الله ثم جرده المستنصر

الله و الحافظ لدين الله. و كان هذا المسجد محل رعاية الخلفاء الفاطميين و عنايتهم فلم يقصروا في تجديده و الزيادة فيه، و وقفوا لمؤذنيه و خدمه وسائل نظافته و انارته و فرشاه ما هو مذكور في كتب التاريخ.

أحوال مصر عند الفتح الفاطمي

كانت مصر تتبع الدولة العباسية تبعية أسمية حيث بلغت الخلافة العباسية في بغداد درجة كبيرة من الضعف بحيث لم يعد للخليفة أية سلطة عليها بعد أن استقل حكام الولايات بولاياتهم مع بقاء اعترافهم بالسيادة الدينية للخلفاء العباسيين ممثلة في ذكر اسم الخليفة العباسي في خطبة الجمعة و نقش اسمه علي السكة (العملة).

فاستقلت مصر أيام الدولة الطولونية ثم الإخشيدية ، كما استقل السامانيين بخراسان و بلاد ما وراء النهر، و أنشأ عبد الرحمن الثالث الخلافة الأموية في الأندلس.

وبلغت الخلافة العباسية ضعفاً كبيراً حتي في عقر دارها فأصبح الخليفة العباسي تحت سيطرة قواده من الفرس و الأتراك الذين جاء بهم ليكونوا جنوداً له بدلاً من العرب، فتحول الأمر أن أصبحوا هم القوة الحقيقية المسيطرة، فقامت الدولة البويهية في العراق و بعض مدن فارس، و الدولة الحمدانية في الموصل و ديار بكر، و الدولة الغزنوية في أفغانستان أولاً ثم ما لبثت أن استولت علي بعض أملاك الدولة السامانية و الدولة البويهية.

على الرغم أن هذه الدويلات المستقلة كانت تمثل تفتيتاً للخلافة العباسية الجامعة و أدت إلي نزاعات كثيرة فيما بينها، إلا أنها في الوقت نفسه أفرزت قادة أقوياء استطاعوا أن يصدوا هجمات البيزنطيين و أن يوسعوا حدود الأمة الإسلامية بفتح دولاً جديداً ما كانت الخلافة العباسية تستطيع أن تصلها بعد ما حل بها من ضعف و ميل إلي الترف و البذخ ، منها علي سبيل المثال بلاد الهند التي فتحتها الدولة الغزنوية و كانت سبباً في دخول الإسلام لشبه القارة الهندية (الهند و باكستان و بنجلادش الآن).

و كثرة الدويلات الإسلامية المنفصلة عن الخلافة العباسية قد أدي أيضاً إلي ظهور مراكز حضارية بجانب بغداد هي عواصم تلك الدويلات مثل القاهرة و قرطبة و طشقند و غيرها مما وسع الزخم الحضاري للحضارة الإسلامية.

تفاصيل الفتح الفاطمي لمصر

حاول الفاطميون فتح مصر ثلاث مرات سابقة حتي تولي الخلافة الفاطمية في بلاد المغرب الخليفة المعز لدين الله الفاطمي سنة 341 هج ، و بدأ في تجهيز جيش ضخم ليفتح به مصر وصل عدده إلي 100 ألف جندي ، وولي علي قيادته جوهر الصقلي .

خرجت الحملة في 14 ربيع ثاني سنة 358 هج / فبراير 969 م من مدينة القيروان بقيادة جوهر الصقلي و دخل الاسكندرية فسلمها أهلها بدون قتال. و أدرك أهل الفسطاط أنه لا قبل لهم بصد جيوش الفاطميين فأرسل الوزير جعفر بن الفرات رسولاً من العلويين إلي جوهر الصقلي يطلب منه الأمان ، ووافق جوهر وكتب عهداً بنشر العدل و بث الطمأنينة و ترك الحرية للمصريين في إقامة شعائهم الدينية.

وفي 17 شعبان دخل جوهر مصر (الفسطاط) وخرج الوزير جعفر بن الفرات و سائر الأشراف و العلماء في استقباله و رحبوا به ، و عسكر جوهر في الموضع الذي بنا فيه مدينة القاهرة. و هكذا زال سلطان الخلافة العباسية و الحكم الإخشيدي في مصر بدون قتال ولا ضربة سيف واحدة و أصبحت مصر ولاية فاطمية في دولة تمتد من المحيط الأطلنطي غرباً إلي البحر الأحمر شرقاً و استمرت كذلك لمدة 200 عام.

أعمال جوهر الصقلي في مصر

حكم جوهر الصقلي مصر حوالي ثلاث سنوات من 969 م / 358 هـج إلي 972 م / 362 هـج

كإحدي الولايات الفاطمية نائباً عن الخليفة الفاطمي المعز الله الفاطمي .

كان جوهر الصقلي حاكماً عادلاً يجلس للمظالم بنفسه و يرد الحقوق لأصحابها و يضرب علي

أيدي المفسدين و مثيري الإضطرابات. ، كما كان يمنح الجند المغاربة من الإعتداء علي الأهالي.

أسس جوهر الصقلي القاهرة ، رابع عواصم مصر الإسلامية ، لتكون مقراً لحكم الخليفة

الفاطمي في مصر. و كان مساحتها الأولية 340 فداناً علي شكل مربع طول ضلعه 1200 متر تقريباً ، و

كانت تمتد من منارة جامع الحاكم شمالاً إلي باب زويلة جنوباً و يحد من المدينة شرقاً تلال المقطم و

من الغرب الخليج الكبير و من الجنوب مدينة القطائع ، كما قام ببناء سور يحيط بمدينة الجديدة من

الطوب اللبن له ثمانية أبواب هي : باب زويلة و باب الفرج من الجنوب و باب الفتوح و باب النصر

من الشمال و باب القراطين (باب المحروق) و باب البرقية من الشرق و باب القنطرة في الغرب.

اختط جوهر الصقلي قصرأ كبيراً لإقامة الخليفة الفاطمي و كان يقع بالقرب من السور الشرقي

لذلك سمي بالقصر الشرقي. و كان يمتد من الموضع الذي يوجد به المشهد الحسيني الآن إلي الجامع

الأقمر تقريباً و كانت له تسعة أبواب: ففي الناحية الشرقية كانت توجد أبواب العيد و الزمرد و قصر

الشوك و الناحية الغربية كانت توجد أبواب البحر و الذهب و الزهومة ، و الناحية الجنوبية كانت

توجد أبواب تربة الزعفران و الديلم و في الناحية الشمالية باب واحد هو باب الرياح.

وعمل الفاطميون منذ أول يوم لهم علي تحويل أهل مصر إلي المذهب الشيعي، و لكن بدون إجبار. فأمر جوهر الصقلي المؤذنين في المساجد بأن يؤذّنوا بحي علي خير العمل بدلاً من حي علي الفلاح - و هو مذهب الشيعة في الأذان.

كما أنشأ الجامع الأزهر ليكون مركزاً يتلقي الناس فيه عقائد المذهب الشيعي، والذي سعي إلي نشره بالطرق السلمية و الترغيب. فكان يقوم بتعيين معتنقي المذهب الشيعي من المصريين في مناصب الدولة المهمة.

بدأ جوهر بناءه للمسجد الجامع ، الذي سمي بعد ذلك جامع الأزهر ، في أبريل سنة 970 م / جمادى الآخر 359 هج، و اتمه في يونية سنة 972 م / 361 هج. و كانت مساحة الأزهر عند بنائه نصف مساحته الحالية التي تبلغ الآن 12000 متراً مربعاً.

أقيمت في الجامع الأزهر أول صلاة جمعة يوم 6 رمضان سنة 361 هج، ولاحظ الناس أن الخطيب لم يدع للخليفة العباسي كما كان من قبل، و إنما دعي للخليفة الفاطمي المعز لدين الله.

كما أمر جوهر بأن يقال في الخطبة: " اللهم صل علي محمد المصطفى، و علي علي المرتضي، و علي فاطمة البتول، و علي الحسن و الحسين سبطي الرسول، الذين أذهب الله عنهم الرجس و طهرهم تطهيراً، و صل علي الأئمة الطاهرين آباء أمير المؤمنين المعز لدين الله ".

أتبع الفاطميون وسائل مبتكرة في الترويج لمذهبهم الشيعي، فإلي جانب تعيين معتنقي المذهب في مناصب الدولة، لجأ الفاطميون إلي استحداث احتفالات دينية لم تكن موجودة من قبل، و ربطها بمظاهر فرح و طقوس يغلب عليها البهجة والاستمتاع، و ذلك لتحبيب الناس في المذهب الجديد. من تلك الاحتفالات الاحتفال بالمولد النبوي الشريف و ليلة النصف من شعبان و عاشوراء و احتفالات

شهر رمضان، وابتداع أكلات و أغاني مخصوصة لهذه الأعياد منها أكلات الكنافة والقطائف في شهر رمضان، وطبق العاشوراء في مولد عاشوراء، و أغنية وحوي يا وحوي التي يغنيها الأطفال و هم يخرجون بالفوانيس في ليالي رمضان.

ضم الشام و فلسطين لسلطان الفاطميين

كان طموح الفاطميين هو التوسع شرقاً علي حساب الخلافة العباسية ،فكلف جوهر الصقلي لذلك جعفر بن فلاح و هو قائد مغربي من قبيلة كمامة بضم فلسطين و الشام لسلطان الفاطميين ، و كانت فلسطين و الشام في ذلك الوقت تحت حكم بقايا الإخشيديين. و دارت معركة فاصلة بين الجيش الفاطمي و جيش الإخشيد بقيادة الحسن بن عبد الله بن طنج، و انتصر فيها الفاطميون و تمكنوا من بسط نفوذهم علي دمشق و فلسطين سنة 969 م / 359 هج و أصبحت الخطبة في بلاد الشام للخليفة الفاطمي.

و لكن الفاطميون لم يهنأوا طويلاً ، فقد انقلب عليهم القرامطة في الجزيرة ، علي الرغم أنهم شيعيون أيضاً ، و زحفوا علي دمشق و استولوا عليها وهزموا الفاطميين الذين ارتدوا إلي مصر فتبعهم القرامطة داخل مصر و تقابل الجيشان شرق القاهرة ، ودارت معركة قاسية استطاع فيها الفاطميون صد القرامطة وردهم إلي الشام.

و بعد سنتين حاول القرامطة غزو مصر مرة أخرى و لكن الفاطميون هزموهم شرق القاهرة ثم تبعوهم إلي الشام و شتتوا شملهم و دخل الفاطميون دمشق مرة أخرى سنة 974 م / 363 هج و اعدوا الشام إلي سلطة الفاطميين.

قدوم المعز إلي مصر و تحولها إلي مركز الخلافة

لما رأي جوهر أن دعائم الحكم الفاطمي قد توطدت في مصر أرسل إلي الخليفة المعز يدعوه للحضور إلي القاهرة ليستقر بها و تكون عاصمة الخلافة الفاطمية.

ترك المعز لدين الله الفاطمي مدينة المنصورة (بتونس الآن) و سار إلي مصر ودخل القاهرة في 7 رمضان 362 هج / 972 م ، وأصبحت مصر منذ دخوله عاصمة الخلافة الفاطمية و مقر الخليفة.

حمل المعز معه إلي مصر ألف و خمسمائة جمل محملة بالذهب ، و حمل معه رفات أجداده ليعاد دفنها في القاهرة. و سكن القصرين الذان شيدهما له جوهر الصقلي في مدينة القاهرة.

أعفى الخليفة المعز جوهر الصقلي من الوزارة خوفاً منه علي سلطته و ولي يعقوب بن كلس ، و هو يهودي عراقي حضر إلي مصر و أقام فيها، و اشتهر بدهائه و تدبيره أيام كافور الإخشيد حتي قال عنه " لو كان هذا الرجل مسلماً لجعلته وزيراً".

تحول يعقوب بن كلس إلي الإسلام عام 967 م قبل دخول الفاطميين مصر، و رحل إلي شمال إفريقيا حيث التحق بخدمة الخليفة الفاطمي المعز ، حتي جاء المعز إلي مصر و ولاه وزارة مصر بدلاً من جوهر الصقلي. و كان من أول أعمال يعقوب هو الإفراج عن جميع من سبق اعتقالهم من الأخشيديين و الكافوريين.

و في سبيل نشر المذهب الشيعي أصدر يعقوب أوامره بأن ينقش علي الجدران عبارة (خير الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب) و استعان بالشعراء و أغدق عليهم للدعوة إلي المذهب الشيعي.

كما استن الخليفة المعز سنة إقامة الولايم في قصر الخليفة و تبعه الخلفاء من بعده في هذه العادة. وبلغ عرشه الذي يجلس عليه من الفخامة حداً يفوق الوصف. كما أمر الخليفة المعز بعمل خريطة للعالم من الحرير الأزرق توضح كل أقطار العالم.

قاهرة المعز

قاهرة المعز هي المدينة التي بناها جوهر الصقلي لتكون مقر الخليفة الفاطمي بعد الفتح الفاطمي لمصر سنة 969م. أرسل الخليفة الفاطمي المعز لدين الله قائده جوهر الصقلي لفتح مصر، و تمكن جوهر من دخول مصر دون قتال و دخل الفسطاط في 17 شعبان سنة 358 هـ / 7 يوليو سنة 969 م .

حرص جوهر ليلة وصوله علي انشاء حاضرة (عاصمة) للخلافة الفاطمية، فنظر إلي السهل الرملي الواقع شمالي الفسطاط ، و كان يخلوا من المباني إلي البستان الكافوري و دير فسبح يطلق عليه دير العظام و حصن صغير يسمى قصر الشوك. فاختط مدينته و أحاطها بسياج علق عليه أجراس ، و عندما تدق هذه الأجراس تكون إذناً يبدأ العمل في بناء المدينة.

و ظل جوهر يتربص بظهور كوكب ميمون الطالع ليبدأ العمل في البناء . ولكن حدث ما لم يكن في الحسبان إذ حط فوق أحد البحال المعلق عليها الأجراس غراب فدقت الأجراس ، فظن العمال أن هذه إشارة بدء العمل ببناء المدينة فشرعوا في البناء.

وظهر أن إشارة بدء العمل التي تسبب فيها الغراب قد توافقت مع ظهور كوكب المريخ ، قاهر الفلك كما يطلقون عليه ، فرفع جوهر الأمر للخليفة الفاطمي الذي كان مشتغلاً بالتنجيم فوافق علي نسبة المدينة الجديدة للكوكب القاهر و اسموها القاهرة.

ولقد شملت القاهرة أول الأمر قطعة من الأرض مساحتها 340 فدناً علي شكل مربع طول ضلعه 1200 متر تقريباً، و كانت تمتد من منارة شمالاً حتي باب زويلة جنوباً و أحاطها جوهر بسور من اللبن، و يقع في هذا السور ثمانية أبواب هي: باب زويلة و باب الفرج من الجنوب ، باب الفتوح و باب النصر في الشمال، و باب

لقراطين (المحروق) و باب البرقية في الشرق و باب السعادة و باب القنطرة في الغرب.

و يعد المدينة من الشرق تلال المقطم ، و من الغرب الخليج الكبير و من الجنوب مدينة القطن التي بناها أحمد بن طولون.

و لقد نمت القاهرة و اتسعت و ذاعت شهرتها فأعجب بها الرحالة الفارسي ناصر خسرو الذي زار مصر ما بين سنتي 1047 و 1049 م، فذكر أن حوائطها (دكاكينها) لم تقل عن عشرين ألفاً و خاناتها و حماماتها لا يمكن حصرها. و كانت أبنيتها أعلي من الأسوار الحصينة للمدينة ، و في كل منها خمس أو ست طبقات. و كانت البيوت في المدينة مبنية بناءً نظيفاً و كانت مفصولة بعضها عن بعض بحدائق يروها مياه الآبار.

الازدهار في مصر

تاريخ بناء الأزهر

الجامع الأزهر (359 - 361 هـ) / (970 - 972 م). هو من أهم المساجد في مصر وأشهرها في العالم الإسلامي. وهو جامع وجامعة منذ أكثر من ألف سنة ، وقد أنشئ على يد جوهر الصقلي عندما تم فتح القاهرة 970 م، بأمر من المعز لدين الله أول الخلفاء الفاطميين بمصر، وبعدها أسس مدينة القاهرة شرع في إنشاء الجامع الأزهر ، ووضع الخليفة المعز لدين الله حجر أساس الجامع الأزهر في 14 رمضان سنة 359 هـ - 970م، وأتم بناء المسجد في شهر رمضان سنة 361 هـ - 972 م، فهو بذلك أول جامع أنشئ في مدينة القاهرة المدينة التي اكتسبت لقب مدينة الألف منذنة ، وهو أقدم أثر فاطمي قائم بمصر. وقد اختلف المؤرخون في أصل تسمية هذا الجامع، والراجح أن الفاطميين سموه بالأزهر تيمنًا بفاطمة الزهراء ابنة النبي محمد وإشادة بذكراها.

بعد الإنتهاء من بناء المسجد في 972، تم توظيف 35 عالم في مسجد من قبل السلطات من في 989، ويعتبر المسجد ثاني أقدم جامعة قائمة بشكل مستمر في العالم بعد جامعة القرويين. وقد اعتبرت جامعة الأزهر أول في العالم الإسلامي لدراسة المذهب السني والشريعة، أو القانون الإسلامي.

تم تأميم جامعة متكاملة داخل المسجد كجزء من مدرسة المسجد منذ إنشائه، وعينت رسمياً جامعة مستقلة في عام 1961، في أعقاب الثورة المصرية لعام 1952 .

صلاح الدين الأيوبي والسلطين الأيوبيون السنين الذي أتو من بعده تجنبوا الأزهر على مدى تاريخ طويل، وقد تم إهمال المسجد بالتناوب وبشكل كبير، لأنه تأسس باعتباره مؤسسة لنشر المذهب الإسماعيلي، وقد تم إزالة مكانته باعتباره مسجد شيعي وحرمان رواتب للطلبة والمدرسين في مدرسة الجامع.

في عهد السلطنة المملوكية تم عكس هذه التحركات، حيث بلغ الاهتمام بالأزهر ذروته، وكان ذلك بمنزلة العصر الذهبي للأزهر، وقاموا بالعديد من التوسعات والتجديدات التي طرأت على البنى التحتية للمسجد، كما أظهر الحكام في وقت لاحق من مصر بدرجات متفاوتة الكثير من الإهتمام والإحترام للمسجد، وقدمت على نطاق واسع مستويات متفاوتة من المساعدة المالية، على حد سواء إلى المدرسة وإلى صيانة المسجد.

اليوم، لا يزال الأزهر مؤسسة لها تأثير عميق في المجتمع المصري ورمزاً من رموز مصر الإسلامية.

تأسست مدينة القاهرة بواسطة جوهر الصقلي، وهو قائد فاطمي رومي من أصل يوناني من جزيرة صقلية، وأطلق عليها اسم المنصورية، وأعدت المنصورية لتكون مقراً للخلافة الفاطمية المتواجدة في تونس، وقد استخدم المسجد لأول مرة في عام 972، وسُمي في البداية بجامع المنصورية، وقد كانت تسمية المسجد باسم المدينة

التي يتواجد بها ممارسة شائعة في ذلك الوقت، مع دخول الخليفة المعز لدين الله لمصر قام بتسمية المدينة بالقاهرة ، وهكذا أصبح اسم المسجد جامع قاهرة ، في أول نسخه من المصادر العربية.

اكتسب المسجد اسمه الحالي، الأزهر، في وقت ما بين الخليفة المعز، ونهاية عهد الخليفة الفاطمي الثاني في مصر العزيز بالله، والأزهر معناه المشرق وهو صيغة المذكرة لكلمة الزهراء، والزَّهْرَاءُ لقبُ السيدة فاطمة بنتِ الرسول، زوجة الخليفة علي بن أبي طالب ، وقد ادعى المعز وأئمة الدولة الفاطمية أنهم من سلهم؛ وهي نظرية واحدة لمصدر تسمية الأزهر. هذه النظرية، ومع ذلك، لم يتم تأكيدها في أي مصدر عربي ، وقد تم الاستحسان في دعمها كلياً، وقد نفتها مصادر غربية في وقت لاحق.

نظرية بديلة هي أن اسم المسجد اشتق من الأسماء التي قدمها الخلفاء الفاطميين إلى قصورهم، القريبة من المسجد والتي سميت بشكل جماعي بالقصور الزاهرة تيمناً بالحدائق الملكية بها ، التي اختيرت من قبل العزيز بالله، وقد تم الانتهاء من القصور وتم تغيير اسم المسجد من جامع القاهرة إلى الأزهر.

أما اشتقاق كلمة جامع من جذر الكلمة العربية الجامعة ، وتعني "الجمع" ، ويتم استخدام الكلمة للمساجد التي تجمع الكثير من الناس. بينما في اللغة العربية التراثية اسم الأزهر تم تغييره إلى جامع الأزهر، ونطق كلمة جامع هي تغييرات كلمة جماعة "في لهجة مصرية.

فالخليفة الفاطمي المعز لدين الله، إمام إسماعيلية الرابع، قام بغزو مصر عن طريق قائد قواته جوهر الصقلي، الذي نجح في انتزاعها من سلالة "إخشيديون"، وبأمر من الخليفة، أشرف جوهر على بناء المركز الملكي "للخلافة الفاطمية" وجيشها، وقد بنى الأزهر كقاعدة لنشر مذهب الشيعة الإسماعيلية، الذي يقع بالقرب من مدينة الفسطاط السنية، وقد أصبحت القاهرة مركزاً للطائفة الإسماعيلية الشيعية، ومركز للدولة الفاطمية كما أمر جوهر ،ببداً بناء مسجد كبير للمدينة الجديدة، وقد بدأ

العمل في 4 أبريل، 970 وقد تم الانتهاء من المسجد في عام 972، وعقدت أول صلاة الجمعة في 22 يونيو 972 خلال شهر رمضان.

سرعان ما أصبح الأزهر مركزا للتعليم في العالم الإسلامي، وصدرت التصريحات الرسمية وجلسات المحكمة التي عقدت هناك، وخلال الحكم الفاطمي، أصبحت التعاليم السرية سابقا من المذهب الإسماعيلي (كلية القانون) متاحة لعامة الناس، وقد عين المعز القاضي النعمان بن محمد القاضي، مسؤولا عن تدريس المذهب الإسماعيلي، وقد كانت بعض الفصول تدرس في قصر الخليفة، وكذلك في الأزهر، مع دورات منفصلة للنساء، وخلال عيد الفطر عام 973، تم ترسيم المسجد كمسجدا لصلاة الجماعة الرسمي في القاهرة بأمر من الخليفة، المعز وابنه عندما أصبح بدوره الخليفة، جعلوا خطبة الجمعة خلال شهر رمضان في الأزهر.

كما جعل يعقوب بن كلس، الموسوعي والفقير والوزير الرسمي الأول للفاطميين، الأزهر مركزا رئيسيا للتعليم في القانون الإسلامي في عام 988، وفي السنة التالية، تم توظيف 45 عالم لإعطاء الدروس، وإرساء الأساس لما يمكن أن يصبح الجامعة الرائدة في العالم الإسلامي.

وتم توسيع المسجد أثناء حكم الخليفة العزيز (975-996). ووفقا للمفضل، أنه أمر بترميم أجزاء من المسجد تصدعت بقياس ذراع واحدة كحد أقصى. كما استمر الخليفة الفاطمي القادم، الحاكم، بترميم المسجد وتوفير باب خشبي جديد في عام 1010. ومع ذلك، شهد عهد الحاكم إكمال مسجده الذي سمي تيما به، ومنه فقد الأزهر مركزه كمسجد صلاة الجماعة الأولي في القاهرة. في أيار/مايو 1009 أصبح مسجد الحاكم بأمر الله المكان الوحيد لخطب للخليفة وخطبة الجمعة. بعد عهد الحاكم، استعاد الأزهر مكانه في عهد المستنصر، وقد تم تنفيذ إضافات وتجديدات على المسجد، وقد اضيفت الكثير من التجديدات في عهد الخلفاء الفاطميين الذي أتو من بعده.

في البداية كان الأزهر يفتقر لمكتبة التي أنشئت في وقت لاحق من تشييده، وقد وهبت للأزهر من قبل الخليفة الفاطمي في 1005 ، الآلاف من المخطوطات التي شكلت الأساس لمجموعتها، وكانت الجهود الفاطمية لإقامة الإسماعيلية الممارسة بين السكان، ومع ذلك لم تنجح جهودهم إلى حد كبير، الكثير مما يتعلق بتجميع المخطوطات فرقت في الفوضى التي تلت سقوط "الخلافة الفاطمية"، وأصبح الأزهر مؤسسة سنوية بعد ذلك بوقت قصير.

بلغت الدولة الفاطمية ذروة عجزها وكما لها في عهد الخليفة الخامس، أبو منصور نزار العزيز بالله، وإليه يُعزى تمكن السيطرة الفاطمية على مصر والشام، ونشر السلام والرّخاء في مُختلف أرجاء الدولة، التي بلغت في عهده أقصى اتساعها.

كان العزيز مسؤولاً عن إرساء الدولة الفاطمية وتشكيل هويتها، إذ يمكن تشبيه دوره بدور أبي جعفر المنصور في الدولة العبّاسية، وقد بدأ عهده في سنة 365 هـ الموافقة لسنة 975م.

من بين 270 سنة تقريباً عاشتها الدولة الفاطمية من صعودها إلى سقوطها، يُعتبر أنّ عصر قوتها الحقيقيّة استمرّ لنحو 115 سنة منها، بعدها قرابة 70 سنة عاشتها في ازدهارٍ حضاري لكن بضعفٍ سياسي، قبل أن تبدأ بالانحطاط والسقوط.

أبو علي المنصور الحاكم بأمر الله، أحد أبرز الخلفاء الفاطميين، ومن أبرز أعلام الإسماعيلية عبر التاريخ. حكم خلال العصر الذهبي للدولة الفاطمية.

شهد عهد العزيز إنجازاتٍ إدارية وتنظيمية متنوعة. فقد رُتبت الدواوين بدقة لتسهيل الإجراءات الإدارية. وأحاط العزيز نفسه بمظاهر الترف وأغدق الأموال على قصوره وممتلكاته. واستحدث منصب الوزراء، فعمل على اختيار رجالٍ كفؤين لشغل هذا المنصب، إلا أنّه اختارهم من الطائفتين اليهودية والنصرانية، لكي لا يكون لهم نفوذٌ كبير يسمح لهم بالانقلاب عليه (وقد كان أولهم وأحد أشهرهم يعقوب بن

للس). وكذلك عدل تركيبة الجيش العرقية، فقد كان الجيش الفاطمي بأكمله تقريباً مؤلفاً من الأمازيغ، فخشي أن يتكاتفوا معاً عليه إذا ما اضطربت الأمور، لذا شكّل جيشاً جديداً خاصاً به من الجنود التُرك والأكراد والسُودان، وكُلّف هذا الجيش بإدارة معظم ولايات دولته عوضاً عن الجيش الأمازيغي. وقد وقعت نتيجةً لذلك فتنةٌ في الجيش بين المغاربة والأعراف الأخرى. وقد أراد العزيز أن يكون مذهب الدولة الرسمي هو المذهب الإسماعيلي، فعمل على نشره في دولته بكل ما استطاع، وسمح بسبِّ صحابة محمد.

شهد عصره بعض الإنجازات العسكرية أيضاً، فقد قاد جوهر الصقلي عدّة حملاتٍ على الشام والعراق، تمكّن خلالها من ضمّ مدن شيزر وحمص وحمّاة، بل وقد نجح ببلوغ الموصل وإجبار جوامعها على الدعاء للخليفة الفاطمي لفترةٍ قصيرة. توفّي العزيز نتيجة مرض في القولون سنة 386هـ الموافقة لسنة 996م.

خلف العزيز ابنه الحاكم بأمر الله، فأتبع أباه في بداية عهده، ونجح بتثبيت أركان الدولة وتهينة أمورها، وحسّن علاقته مع أهل السُنّة، فجالس علماءهم وبنّا لهم دور علم. وقد كان متديّناً كثيراً لحدّ المغالاة، حتى أنه حظر زراعة العنب خشية استعماله بصناعة الخمر، ومنع النسوة من المشي في الشوارع، واضطهد المسيحيين واليهود. إلا أنّ شخصيته تقلّبت فيما بعد، فغفّر منهجه مع أهل السُنّة، ولم يعد شديد التدين، بل إنّه أصيب بالغرور حتى شبّه نفسه بالإله وسمح لأتباعه بوصفه بأوصافٍ إلهية، ممّا أساء لسمعته وسمعة الإسماعيلية في مصر والعالم الإسلامي، وأثار سخط الناس عليه، فثاروا عليه وكرهوه، وانتشرت الفوضى بمصر، ف وقعت اشتباكاتٌ بين السكان وجيش الحاكم بأمر الله، ودبّت الفوضى. وأخيراً قرّر الحاكم الخروج من القاهرة، وكان ذلك في شوال سنة 411هـ الموافقة لسنة 1021م، واختفى اختفاءً غير مفسّرٍ بعد خروجه منها بفترةٍ قصيرة. وهناك العديد من الروايات والنظريات حول سبب اختفائه، لكن الأرجح أنّه اغتيل. منذ نهاية عهد الحاكم، أخذت قوّة الفاطميين

السياسية بالانحدار شيئاً فشيئاً، وكان معظم الحكام الذين تبعوه صغاراً لم يبلغوا سنّ الرشد بعد، لذا فقد افتقروا إلى السُلطة، وأصبحت الدولة فعلياً في أيدي الوزراء الفاطميين أو أقارب حكامها صغار السن.

خلف الحاكم بقيادة الدولة الفاطمية ابنه الظاهر لإعزاز دين الله، إلا أنه كان حدثاً لم يبلغ سنّ الرشد، فأصبحت عمّة له تُدعى «ست الملك» الحاكمة الفعلية للدولة، وتمكّنت من إدارة شؤون الدولة بصورة جيّدة، إلا أنها توفيت في منتصف عصره سنة 415هـ وقد سار عهده بهدوءٍ في البداية، إلى أن بدأت الثورات ضده، فخرج صالح بن مرداس في الشام وانتزع منه حلب، ثم جاء حاكم الرملة «حسان بن المفرج البدوي» فانتزع معظم أنحاء الشام.

وقد دام حكم الظاهر لخمس عشرة سنة، ثم توفي صغيراً.

مسجد الحاكم بأمر الله أحد معالم العصر الذهبي للدولة الفاطمية بالقاهرة.

تولّى ابنه معد المستنصر بالله الخلافة وهو لا يزال في السابعة من العمر، وقد دام حكمه نحو 60 سنة، ليكون أطول الخلفاء الفاطميين عهداً على الإطلاق. في بداية عهده، كانت أمّه وبعض وزرائه هم الحكام الفعليين للدولة. كان النصف الأول من خلافة المستنصر مزدهراً ازدهاراً عظيماً، فوصلت فيه الدولة الفاطمية أوج قوتها واتساعها، وامتدّت حدودها من المغرب إلى العراق، بل وقد تمكّن سنة 450هـ الموافقة لسنة 1058م رجلٌ من حلفاء الفاطميين يدعى «أبا الحارث البساسيري» من الاستيلاء على بغداد والقبض على الخليفة العباسي، فأقام الخطبة فيها للخليفة الفاطمي المستنصر، وكانت تلك أوّل وآخر مرّة في التاريخ تقام بها الخطبة ببغداد للفاطميين.

إلا أنّ الأمور بدأت بالاضطراب فيما بعد، فأصيبت مصر بمجاعةٍ

هائلة استمرّت سبع سنوات من سنة 457 إلى 464هـ (الموافقين لسنتي 1065 إلى

1071م)، وهي تُعرّف باسم «الشدة العظمى» و«الشدة المستنصرية». وبدأت العديد من أقاليم الدولة بالتمرد على الفاطميين، فانقطعت الخطبة عن المستنصر في مكة والمدينة سنة 462 هـ الموافقة لسنة 1070م ليُخطب عوضاً عنه للخليفة العباسي مجدداً، وكانت الحال نفسها في المغرب، فقطع أمير بني زيري المعز بن باديس علاقته بالفاطميين وحول ولاءه إلى الخلافة العباسية، أما بغداد التي كانت قد انضمت للفاطميين حديثاً، فقد قتل حاكمها البساسيري على يد سلطان السلاجقة طغرل بك القادم من الشرق، لتنتهي سلطة الفاطميين عليها حتى نهايتهم. ولم يتوقف السلاجقة عند هذا الحد، بل تابعوا التقدم غرباً ليصطدموا بالدولة الفاطمية مرة أخرى في بلاد الشام، ونجح سلطانهم جلال الدولة ملك شاه بانتزاع معظم بلاد الشام من الفاطميين - بما فيها القدس وفلسطين - سنة 463 هـ (1070م). وتسبب عجز المستنصر عن السيطرة على هذه الأحداث بانهيار هيئته تماماً في الدولة.

وعلاوة على هذه الخسارات الكبيرة، فقد وقعت الفتنة سنة 466 هـ بالجيش بين المغاربة أولاً، والثرك ثانياً، والسودان ثالثاً، ووقعت معاركة كبيرة بينهم وكثر القتل. بدأت الدولة تخرج تماماً عن السيطرة، وأخذ الثرك يصحون الحكام الفعليين للدولة عوضاً عن الخليفة نفسه، فقرّر المستنصر الاستعانة بحاكم عكا الأرمني بدر الدين الجمالي، وهو أشبه بدكتاتور يُعرّف بشدته وقدراته الإدارية والتنظيمية العالية. استدعى المستنصر بدر الجمالي ليتسلم منصب وزارة الدولة الفاطمية وقيادة جيشها، فوافق هذا الأخير، وجاء إلى مصر، وكان وزيراً قوياً ومهيّباً، فأعاد للدولة قوتها واستقرارها وثبت أركانها من جديد. ووصلت الدولة في عهده أوج قوتها وازدهارها، فشيدت القصور وازدهر العلم والحضارة وعادت الأموال الكثيرة إلى مصر، فارتفع الخراج من مليوني دينارٍ في سنوات المجاعة إلى أكثر من ثلاثة ملايين.

من جهةٍ أخرى، فشل بدر الجمالي في بعض النواحي العسكريّة، إذ لم يستطع حماية بلاد الشام من تقدّم السلاجقة التّرك شرقاً والصليبيّين الأوروبّيّين شمالاً، فخسر الفاطميّون كُُلّ الشّام ما عدا مدينة عسقلان.

لم يكن مجيء بدر الجماليّ جيّداً تماماً للمستنصر، فقد بدأ ينازعه على السُلطة، وتنامى نفوذه بدرجةٍ كبيرةٍ جدّاً، حتى أصبح أقرب إلى الحاكم الفعليّ للدولة الفاطميّة، واستمرّت الحال هكذا حتى وفاة المستنصر سنة 487 هـ الموافقة لسنة 1094م، فبدأ بذلك «العصر الفاطمي الثاني»، الذي كان الوزراء فيه هم الحكّام الفعليّين للدولة.

عصر نفوذ الوزراء وإلغاء الخلافة العبيدية

العصر العبيدي (الفاطمي) الثاني

ال خليفة المستعلي الفاطمي و بداية العصر الفاطمي الثاني

يتميز العصر الفاطمي الثاني بضعف الخلفاء الفاطميين و وقوعهم تحت سلطة وزرائهم ، كما شهد هذا العصر بدء الحملات الصليبية علي المشرق الإسلامي التي لم يستطع المسلمون صدها نظراً لما آلت إليه الخلافة العباسية من ضعف، و كذلك الخلافة الفاطمية التي كانت تشهد نزاعات مؤسفة بين الخلفاء الفاطميين ووزرائهم و كذلك بين الوزراء و حكام الأقاليم حتي أنهم استعانوا بالصليبيين ضد بعضهم البعض كما سني في عهد الخليفة العاضد آخر الخلفاء الفاطميين.

بعد وفاة الخليفة المستنصر، آخر الخلفاء الفاطميين الأقوياء ، قام الوزير الأفضل بن بدر الجمالي بإقصاء أكبر أبناء الخليفة المستنصر نزار من الولاية، و قام بتعيين ابن الخليفة الثاني أحمد المستعلي سنة 1095 م / 487 هج. و دارت نزاعات مريرة بين الأخوين قتل فيها نزار و تمكن المستعلي من السيطرة علي الحكم. و ينسب إلي نزار، أكبر أبناء الخليفة المستنصر بالله، مذهب الشيعة النزارية.

كان من سوء حظ الخليفة المستعلي أنه وقع عليه عبء التصدي للحملة الصليبية الأولى التي استولت علي القدس سنة 1099 م .

جهز الوزير الأفضل بن بدر الجمالي جيشاً لاستعادة القدس و ألتقي بالصليبيين بقيادة جودفري عند عسقلان و لكن الفاطميون هُزموا هزيمة نكراء و قتل من المسلمين 10 آلاف، و فر الوزير الأفضل غرباً حتي عاد إلي القاهرة. وبذلك تقلصت أملاك الخلافة الفاطمية لتشمل مصر و الجزيرة و اليمن فقط.

لم يدم حكم المستعلي لمصر لأكثر من ست سنوات فقد توفي سنة 1101 م / 495 هج، و خلفه ابنه الأمر بأحكام الله في الحكم.

الخليفة الأمر بأحكام الله الفاطمي

تولي الأمر بأحكام الله حكم الفاطميين سنة 1101 م بعد وفاة أبيه المستعلي. ووقع الخليفة تحت نفوذ الوزير الأفضل بن بدر الجمالي الذي سبق و أن سيطر علي الخليفة المستعلي.

ولكن الصراع بينهما وصل لذروته عندما تنازل الوزير عن إيمانه بالمذهب الشيعي و تحديه بالتالي لشرعية الخليفة. فما كان من الخليفة إلا أن تأمر مع فرقة الحشاشين لقتله، فقتلوه سنة 1121 م / 515 هج. و عين الخليفة الوزير مأمون البطائحي مكانه.

و لكن مالبث أن ذاق المأمون من نفس الكأس و أغتيل سنة 1125 م / 519 هج. و لا يعرف علي وجه اليقين من قتله، هل هو الخليفة الأمر بأحكام الله بسبب إسرائفه في جمع المال، أم ابن الوزير الأفضل بن بدر الجمالي انتقاماً من مشاركة المأمون في قتل ابيه.

واستكمالاً لسلسلة المؤامرات و الإغتيالات التي سادت في ذلك العصر، انتهى

الأمر بالخليفة الأمر بأحكام الله أن أغتيل علي يد أعدائه بينما كان عائداً يوماً

من جزيرة الروضة إلي قصره سنة 1130 م / 524 هج، و خلفه ابن عمه الخليفة الحافظ لأن الخليفة الأمر لم يكن له ولد.

و من أهم أعمال الخليفة الأمر بأحكام الله إنشائه الجامع الأقرم سنة 519 هج / 1125 م في شارع المعز الذي تعد واجهته البديعة من أجمل الواجهات في العمارة الإسلامية، و لا يضارعها واجهة أخرى في جوامع القاهرة الحالية.

الخليفة الحافظ لدين الله الفاطمي

تولي الخليفة الحافظ لدين الله الحكم بعد اغتيال ابن عمه الخليفة الأمر بأحكام الله سنة 1130 م . و لكن الوزير أبو علي بن الأفضل بن بدر الجمالي سيطر علي مقاليد الأمور و حد من سلطات الخليفة حتي أنه اعتقله و سجنه سنة 1130 م ، كما اضهد أبو علي بن الأفضل الشيعة في مصر حتي قتله المتمردون الشيعة و أطلقوا سراح الخليفة.

لما قتل أبو علي بن الأفضل ولي الخليفة بهرام الأرمني وزيراً علي مصر سنة 1136 م / 531 هج ، و كان بهرام مسيحياً كاثوليكياً، و لكنه اضهد المصريين و كثرت مظالمه، و اعونه علي ذلك ثلاثون ألفاً من الأرمن الذين أخذوا في نهب الأموال و الاعتداء علي الممتلكات و الأعراض حتي ثار الناس. فأمر الخليفة جيشه بمحاصرة القاهرة و طرد بهرام و الأرمن خارجها.

توفي الخليفة الحافظ لدين الله سنة 1150 م / 544 هج و تولى ابنه الظافر حكم مصر.

الخليفة الظافر الفاطمي

أصبحت الخلافة الفاطمية علي شفا الهاوية، فالوزراء يسيطرون علي الخلفاء، و الخلفاء يدبرون المكائد للوزراء. و ماحدث في عهدي الخليفة الظافر و الفائز هو مثال

سارخ و مفتح لسقوط دولة ظلت تحكم حوالي نصف العالم الإسلامي لمدة قرنين من الزمان.

تولي الخليفة الظافر سنة 1150 م / 544 هج . و بدأ عهده بالمكاند فقد أوعز إلي صديق له يدعي نصر بن عباس أن يقتل الوزير ابن السلار لأنه سني مخالف لمذهب الفاطميين الشيعي. فقام نصر باغتيال ابن السلار، و بالتالي أصبح أبوه العباس (أبو نصر) وزيراً فاطمياً. و لكن الخليفة عاد و حرض نصر علي قتل ابيه العباس. و لكن العباس أكتشف المؤامرة و اقنع ابنه بقتل الخليفة الظافر فقتله سنة 1154 م / 549 هج.

خلف الظافر ابنه الفائز، و استطاع القبض علي نصر و ابيه العباس بعد هروبهما إلى الشام، و قام بصلبهما.

وفي عهد الخليفة الظافر فقد الفاطميين آخر معاقلهم في فلسطين و هي عسقلان عندما سارع بلدوين الثالث ملك إمارة بيت المقدس الصليبي بالزحف علي عسقلان و محاصرتها و اقتحامها سنة 1153 م / 548 هج.

و لقد قامت الحامية الفاطمية بعسقلان بنقل رأس الإمام الحسين رضي الله عنه إلي القاهرة عندما علمت بقرب اقتحام الصليبيين للمدينة سنة 1153 م . و لقد أمر الخليفة الفائز بحفظ رأس الإمام الحسين في علبة في أحد سراديب قصر الزمرد إلي أن تم بناء مشهد لها بالقرب من الجامع الأزهر الشريف.

خليفة الفائز بنصر الله الفاطمي

جاء الخليفة الفائز إلي الحكم و عمره ستة أعوام بعد اغتيال ابيه الظافر، و لكن نساء القصر سارعن بطلب حضور الأمير طلائع بن رزيك ، أحد أمراء الدلتا، ليتولي الوزارة.

ظل الفائز يحكم مصر لمدة ستة أعوام عن طريق أوصياء العرش، ثم مرض و مات سنة 1160 م / 555 هج، و خلفه ابن عمه العاضد آخر الخلفاء الفاطميين.

خليفة العاضد بالله الفاطمي و نهاية الخلافة الفاطمية

انتقلت الخلافة الفاطمية في مصر إلي الخليفة العاضد سنة 1160 بعد وفاة الخليفة الفائز.و كان وزيره في تلك الفترة طلائع بن رزيك الذي نجح في اخماد الفتن و انتهاء حالة الفوضى التي عاشت فيها البلاد في عهدي الخليفة الطاهر و الفائز.

إلا أن المؤامرات مالبثت أن حيكت ضد طلائع بن رزيك و شارك فيها الخليفة الفاطمي نفسه، و انتهت بقتل طلائع و تولي الوزارة أبو شجاع (العادل) بن طلائع، إلا انه لم يمكث أكثر من سنتين و خلعه شاور الذي كان حاكماً علي الصعيد و تولي الوزارة مكانه.

ثم صار الأمر إلي صراع مرير بين شاور و ضرغام، أمير فرقة جنود مغاربة، علي كرسى الوزارة. حتي أنهم استعانوا بالصليبيين في بيت المقدس و نور الدين زنكي في الشام ضد بعضهم البعض ليستولوا علي وزارة مصر. فما كان من نور الدين محمود زنكي إلا أن انتهز هذه الفرصة و أرسل إلي مصر جيوش متتالية بقيادة أسد الدين شيركوه و ابن أجييه صلاح الدين الأيوبي ليسقط الخلافة الفاطمية المترنحة و يضم مصر إلي الشام تحت إمرته لقتال الصليبيين.

تمكن أسد الدين شيركوه من صد الصليبيين الطامعين في مصر و خلع شاور من وزارة مصر و تولي الوزارة بنفسه بمباركة الخليفة الفاطمي العاضد بالله الذي كان مريضاً و مشرفاً علي الموت، ثم ما لبث أن مات في 1171 م / المحرم 567 هج.

وبذلك انتهت الخلافة الفاطمية التي استمرت ما يقرب من 200 عام. و إجمالاً يعد الحكم الفاطمي حكماً قوياً حتي وفاة الخليفة المستنصر بالله ، خامس الخلفاء

الفاطميين، سنة 1094 م. و بعد ذلك اضطرب الحكم اضطراباً شديداً، و انتقلت السلطة الحقيقية إلى الوزراء فأصبحوا المسيطرين الحقيقيين علي الدولة.

وشهدت الخلافة الفاطمية أسوأ عهودها في الصراعات التي بين الوزراء والخلفاء، وبين بعضهم البعض حتي أنهم لم يتصدوا للصليبيين (الحملة الصليبية الثانية)، و فقدوا كل أملاكهم في الشام و فلسطين للصليبيين.

و لم يكتفوا بذلك، بل بدأوا في الاستعانة بالصليبيين ضد بعضهم البعض. ولكن القدر أراد لمصر أن تصير إلي صلاح الدين الأيوبي بعد سقوط الخلافة الفاطمية، ليتخذ منها قاعدة لبناء سلطنة مصر و الشام التي ستدق المسمار الأكبر في نعش الوجود الصليبي في المشرق الإسلامي

ظهور طائفة الإسماعيلية النزارية

ابتدأ هذا العصر بالنزاع بين أبناء المستنصر نزار الابن الأكبر وولي العهد من قبل أبيه، وأحمد أبو القاسم صغير السن الذي فرضه الأفضل بدر الجمالي ليكون الخليفة رغم أنف نزار..

وكان في هذه الآونة بمصر الحسن بن الصباح القائم على الدعوة الإسماعيلية بأصبهان، جاء يتعمق في دراسة المذهب الإسماعيلي.. فلما رأى هذه الأحداث، وكان الحسن يري أن تولية نزار الإمامة بعد أبيه تتفق مع تعاليم الإسماعيلية، التي تشترط أن يكون الإمام أكبر أبناء أبيه، وأظهر الحسن رأيه بمصر، وهدد نفوذ بدر الجمالي، فكاد له بدر وزجه بالسجن ونفاه إلى بلاد المغرب، غير أن الريح قذفت بالسفينة التي أبحر عليها سنة 472 هـ إلى سواحل الشام، فنزل بثغر عكا ثم عاد إلى بلاده حيث أخذ ينادي بإمامة المستنصر وابنه نزار، من بعده ولذلك سميت هذه الطائفة الإسماعيلية النزارية.

عصر نفوذ الوزراء

سيطر الوزراء في هذا الطور على مقاليد الحكم، وبلغ من نفوذ الأفضل أنه بعد وفاة المستعلي سنة 495هـ أتى بأبي على بن المستعلي، وأقامه على الخلافة وعمره خمس سنوات، ولقبه بالأمر فلما شب هذا الخليفة الصغير ضاق ذرعاً بنفوذ وزيره فدبر لقتله فقتله سنة 515 هـ.

وفي سنة 524هـ قُتل الخليفة وتولى أخوه عبد المجيد أبو الميمون الحافظ الخلافة من بعده، ولكن الجند ثاروا عليه وولوا أبا على أحمد بن الأفضل الوزارة، فاستأثر بالسلطة والنفوذ وسجن الحافظ- وكان إمامياً لا إسماعيلياً- فعمل على الانتصار لهم وعلى إضعاف المذهب الإسماعيلي بأن عين أربعة قضاة؛ أحدهما إمامي والآخر إسماعيلي والثالث شافعي والرابع مالكي، وأعطى كلاً منهم السلطة في إصدار أحكامه وفق مذهبه (ولم يسمع بمثل هذا في الملة الإسلامية قبل ذلك).

ومكث على ذلك حتى اغتالته الإسماعيلية سنة 526هـ وأخرجوا الحافظ من سجنه وعاد خليفة من جديد.

وفي سنة 529هـ طمع بهرام الأرمي والي الغربية في الوزارة، فقدم إلى القاهرة وحاصرها يوماً فاضطر الحافظ إلى توليته الوزارة على الرغم من عدم دخوله الإسلام، وعانى المصريون فترة من سيطرة الأرمي وتحيز بهرام لبني جنسه، حتى أنهم أكثروا من بناء الكنائس والأديرة حتى صار لكل رئيس منهم كنيسة بجوار داره.. حتى استطاع رضوان بن ولخشي والي الغربية أن يطرد بهرام وأصبح وزيراً سنة 530 هـ ولكنه أراد أن يعزل الحافظ ودار بينهما صراع انتهى بمقتل رضوان سنة 452هـ.

وهكذا ظل النزاع والتنافس على الوزارة بين الوزراء والخلفاء جيلاً بعد جيل، وتدخل الوزراء في تولية الخلفاء، ولم يراعوا في توليتهم تعاليم الإسماعيلية.

حملات نور الدين محمود إلى مصر

تطور التنافس على الوزارة في مصر في نهاية العصر العبيدي (الفاطمي) إلى استعانة بعض الطامعين فيها بأمراء الدول المجاورة، فلقد لجأ شاور وزير الدولة المخلوع على يد أحد قواد الجيش ضرغام سنة 558 إلى الالتجاء لنور الدين محمود، صاحب دمشق، ليمده بقوة يستعين بها على استعادة نفوذه، على أن يتنازل له عن ثلث خراج مصر فأعانه نور الدين بحملة بقيادة أسد الدين شيركوه فتغلب على ضرغام وأعيد شاور إلى منصبه سنة 559 هـ ولم يف شاور بما عاهد عليه حليفه نور الدين، وطلب من شيركوه أن يرجع إلى الشام وأرسل شاور إلى ملك الفرنجة ببيت المقدس يستعده ويخوفه من نور الدين إن ملك الديار المصرية، فسارع الملك إلى نجدته ونجح في إخراج شيركوه إلى بلاد الشام

وفي سنة 562 أنفذ نور الدين حملة إلى مصر بقيادة شيركوه، لما ثبت له غدر شاور به، وكان صلاح الدين يوسف بن نجم الدين أيوب من بين الذين اشتركوا في هذه الحملة.

استنجد شاور ثانية بالفرنجة فأجابوه والتقى جند شيركوه وجند الفرنجة وحلقاتهم في مكان يعرف بالبابين (على مقربة من المنيا)، وكان النصر من نصيب شيركوه ولم يجد نفسه قادرًا على السير إلى القاهرة فوطد سلطانه بالصعيد وجبى الخراج، ثم سار إلى الإسكندرية عبر الصحراء وعين ابن أخيه صلاح الدين واليًا عليها، ولكن قوات الفرنجة والمصريين عادت إلى محاصرة الإسكندرية براً وبحراً فأسرع شيركوه إلى نصره صلاح الدين. فطلب المصريون والفرنجة الصلح فأجابهم على ألا يقيم الفرنجة بالبلاد المصرية، ثم عاد شيركوه إلى دمشق والحقيقة أن قوات الفرنجة لم تغادر مصر تنفيذًا لهذا الصلح، بل عقدت مع شاور معاهدة كان من أهم شروطها.. (أن يكون لهم بالقاهرة شحنة صليبية، وتكون أبوابها بيد فرسانهم ليمتنع نور الدين عن إنفاذ عسكره إليهم).

كما اتفق الطرفان على أن يكون للصليبيين مائة ألف دينار سنويا من دخل مصر..

أطمح الحال التي وصلت إليها مصر الفرنجة في أن يقدموا بحملة سنة 564هـ لغزوها بقيادة ملك بيت المقدس، ولم يجد شاور أمامه سوى استعمال الحيلة، فأحرق الفسطاط حتى لا يأوي إليها الصليبيون، فظلت النار مشتعلة بها أربعة وخمسين يوماً.. ثم أرسل إلى ملك الفرنجة أنه يخشى إن دخلتم مصر أن يقدم نور الدين ليحتل مصر، وأشار عليه بالصلح على أن يؤدي إليه ألف دينار.. على أن شاور ما لبث أن خدع الفرنجة، فأرسل إلى نور الدين يطلب النجدة، وتعهد أن ينزل له عن ثلث بلاد مصر، وأن يأذن لأسد الدين شيركوه بالإقامة عنده مع جنده، وأن يكون إقطاع هؤلاء الجند خارجاً عن ثلث البلاد الذي أفرده لنور الدين.

سارع نور الدين إلى تجهيز قوة كبيرة بقيادة شيركوه توجهت نحو مصر، فلما وصلت الأخبار إلى الصليبيين قرروا الرحيل إلى فلسطين بغير قتال، ثم دخل أسد الدين شيركوه القاهرة في ربيع الآخر سنة 564 فرحب به أهلها، واستقبله الخليفة العاضد وخلع عليه، وأصبح أسد الدين شيركوه وزيراً للعاضد، واستطاع في فترة وزارته القصيرة أن يقبض على زمام الأمر بالدولة.

وحاول شاور أن يدبر مؤامرة للقبض على شيركوه ومن معه من الأمراء، ولكن نهاه ابنه الكامل وقال: «والله لئن عزمتم على هذا الأمر لأعرفن أسد الدين».

فقال شاور: «والله لئن لم نفعل هذا لنقتلن جميعاً».

قال ابنه: «صدقت، ولأن نقتل ونحن مسلمون والبلاد بيد المسلمين خير من أن نقتل وقد

ملكتهما الإفرنج».

فعدل عن عزمه ثم تخلص منه أسد الدين بعد ذلك وقتله.

اختيار صلاح الدين وإلغاء الخلافة العبيدية الفاطمية

توفي أسد الدين بعد ثلاثة أشهر من دخوله القاهرة، واختار العاضد صلاح الدين يوسف بن أيوب وزيراً له، فبذل الأموال للرعية فأحبوه، وأمر بذكر نور الدين في الخطبة بعد الخليفة العبيدي (الفاطمي)، وأقطع أصحابه البلاد، وأسند إليهم بعض المناصب، فهدد بذلك صلاح الدين أصحاب المصالح في بقاء الدولة الفاطمية، فعملوا على المكر، به واتفق رأيهم على أن يكاتبوا الفرنجة ودعوتهم إلى مصر، فإذا ما خرج صلاح الدين إلى لقائهم، قبضوا على من بقي من أصحابه بالقاهرة وانضموا إلى الفرنجة في محاربتة.

ولكن صلاح الدين الأيوبي كان يقظاً واستطاع أن يقضي بقوة على خطط هؤلاء، فدبر لقتل جوهر مؤمن الخلافة، فثار الجند السودانيون، وكانوا يزيدون على خمسين ألفاً ودار بينهم وبين قوات صلاح الدين قتال عنيف، فتبعضهم صلاح الدين حتى وصلوا الصعيد حتى قضى على نفوذهم نهائياً سنة 572..

كانت الفرنجة تتربص بنور الدين وتوسعاته في مصر، ويرون فيه خطراً يهدد كيانهم، ولذلك هياؤا لحملة جديدة على مصر، استعانوا فيها بإمبراطور الدولة البيزنطية، فتوجهوا إلى دمياط يعاونهم أسطول بيزنطي مزود بالمؤن والعتاد، فوصلوا إليها في صفر سنة 565 فلم يخرج إليهم صلاح الدين بنفسه خوفاً من مؤامرات العبيديين الفاطميين، بل أرسل جيشاً بقيادة أخيه تقي الدين عمر، وخالد شهاب الدين محمود لمواجهة الفرنجة وبعث يطلب المدد من نور الدين فأرسل إليه مدداً، وكان الخليفة العاضد كذلك حريصاً على إعانة صلاح الدين بالمال طوال مدة حصار الفرنجة لدمياط؛ لذلك يقول صلاح الدين.. (ما رأيت أكرم من العاضد أرسل إليّ مدة مقام الفرنج على دمياط ألف ألف دينار سوى ما أرسله إلى من الثياب وغيرها).

وقد فترت حماسة الصليبيين فرجعوا من حيث أتوا في ربيع الأول سنة 565.

لما أيقن صلاح الدين أن سلطانه قد أستقر، وجه اهتمامه إلى القضاء على المذهب الشيعي في مصر، فأنشأ سنة 566 هـ مدرسة لتدريس المذهب الشافعي، وأخري لتدريس المذهب المالكي، وعزل قضاة الشيعة، وعين صدر الدين عبد الملك بن درباس قاضيًا للقضاة في جميع أنحاء البلاد المصرية، فاستعاد بذلك المذهب السني قوته.

ثم أرسل نور الدين إلى صلاح الدين أن يجعل الخطبة باسم الخليفة العباسي محل الخليفة العبيدي الفاطمي، فتردد متخوفًا من سخط المصريين، لكن نور الدين أصر فتحولت الخطبة للخليفة العباسي المستضيء بنور الله... وكان العاضد إذ ذاك مريضًا ولم يعلم أهله بذلك ثم توفي في 10 من محرم سنة 567، وهكذا انتهت الدولة العبيدية (الفاطمية) الشيعية بمصر.

الباب الخامس

الأفول والإرث

الانحسار

دخول الجيوش الصليبيّة إلى بيت المقدس سنة 492 هـ/1099م، بعد مقاومةٍ من الحامية الفاطميّة في المدينة دامت لنحو شهر (في زمن خلافة المستعلي).

حسب النظام المتبع في الدولة الفاطمية، كان أكبر أبناء الخليفة هو الذي يُعيّن وليّاً للعهد، ولذا كان من المفترض أن تؤوّل الخلافة بعد وفاة المستنصر إلى ابنه الأكبر نزار المصطفى لدين الله. [87] إلا أنّ المستنصر كان - بعد ضغوطاتٍ وجهودٍ حثيثةٍ من وزيره الملك الأفضل شاهنشاه - قد قرّر عوضاً عن ذلك نقل ولاية العهد إلى ابنه الأصغر أحمد المستعلي بالله، وأدّى هذا الخلاف إلى وقوع شقاقٍ في المذهب الإسماعليّ لا زال موجوداً حتى الآن، حيث انقسم الإسماعيليّون بين مؤيدي خلافة نزار بناءً على أحقيّته (النزارية) ومؤيدي خلافة المستعلي بناءً على توصية والده (المستعلية). وكان الملك الأفضل (وهو ابن الوزير الفاطمي الشهير بدر الجمالي وقد ورث عنه منصب الوزارة) قد رفض خلافة نزار بسبب خلافٍ وقع بينهما، وكانت هذه واحدةً من ملامح نفوذ الوزراء الشديدين بالدولة الفاطمية وسيطرتهم عليها، التي استمرّت منذ وفاة المستنصر وحتى نهاية الدولة.

حصل في حين وقوع هذه الأحداث أن الحسن بن الصباح جاء إلى مصر لتحصيل علوم المذهب الإسماعيلي، فشهد الخلاف الذي وقع بين الإسماعليّة والنزارية، ودعا بأحقّيّة نزار بالخلافة، فغضب عليه الملك الأفضل وسجنه. وقد تمكّن حسن الصباح من الفرار لاحقاً، فرحل إلى بلده أصبهان ليدعو بإمامة نزار وأسس هناك جماعة الحشّاشين.

معركة عسقلان، دارت بعد سقوط القدس مباشرةً، في محاولةٍ من الوزير الفاطميّ الملك الأفضل لاستعادة بلاد الشام من الصليبيّين، إلا أنّ الدولة الفاطمية تلقت فيها خسارة فادحة.

حدث في عهد المستعلي أن وصلت الحملة الصليبية الأولى إلى المشرق، وغزا الصليبيون سواحل بلاد الشام وأنسوا فيها إمارتي الرها وأنطاكية. عندما وصل الصليبيون إلى الشام كان يحكمها السلاجقة، إلا أن السلاجقة أنفسهم كانوا قد انتزعوها من الفاطميين قبل نحو ثلاثين سنة، وعندما رأى الملك الأفضل أنهم هزموا أمام الزحف الصليبي، طمّح بأن يعيد هذه الأراضي إلى سلطان الدولة الفاطمية مجددًا، فحشد جيشًا وحاصر القدس وأخذها من السلاجقة، وبسط سيطرته على كامل فلسطين حتى منطقة قريبة من بيروت.

إلا أن الجيوش الصليبية سرعان ما وصلت، وكان قوامها نحو 40,000 رجل، فضربت الحصار على القدس لمدة شهر، ثم تمكنت من دخول المدينة، ووقعت مذبحه عظيمه في جيوش الفاطميين راح ضحيتها عشرات الآلاف، وسقطت القدس بذلك في شهر يوليو سنة 1099م (492 هـ).

وقد فقد القاطميون إثر هذه المعركة آخر أملاكهم في بلاد الشام، وأصبحت دولتهم تقتصر تقريبًا على مصر وحدها.

لم تدم خلافة المستعلي طويلًا، فقد توفي خلال سبع سنين، فخلفه ابنه البكر الأمر بأحكام الله ذي الخمس سنوات، بناءً على رغبة وزير الدولة الملك الأفضل. كان الأمر خليفة قويًا، فما إن بلغ سن الرشد حتى بدأ بفرض ثقله في الدولة، وقد أحس بنفوذ وزيره الشديد في دولته، فدبر لاغتيال الملك الأفضل، وعين مكانه المأمون البطائحي.

إلا أنه رغم ذلك لم يحسن السيرة، فساءت أوضاع الدولة في عهده. وقد قتل اغتيالاً سنة 524 هـ (1130م).

وفي حين مقتله، كان قد عهد الأمر بالخلافة من بعده لابنه الطيب أبو القاسم والذي لم يكن قد ولد حتى، بل كان لا يزال رضيحًا في رحم أمه، ولم يكن للأمر ابن

آخر يتولى الخلافة، فُعِين أخوه الحافظ لدين الله نائباً للخليفة ليتولى شؤون الحكم حتى بلوغ الطيّب سنّ الرشد. وأخطأ الحافظ باختيار أحمد بن الملك الأفضل وزيراً له، فما إن تولى هذا الوزارة حتى قبض على الحافظ وزجّ به في السجن، واستبدّ الوزير بالدولة ولم يعد للخليفة المسجون كلمةً فيها. لكنّ هذه الحال لم تطل، فسُرّعان ما اغتال الإسماعيليون أحمد بن الأفضل، وحرّروا الحافظ لدين الله من سجنه، فعاد لتولي شؤون الخلافة سنة 526 هـ.

لكنّ الحافظ ظلّ بعد ذلك يعاني من نفوذ الوزراء الشديد في دولته، فكان وزراءه هم الذين يحكمون الدّولة طوال عصره.

ففي سنة 529 هـ أراد «بهرام الأرمني» (أحد ولاة الدولة الفاطميّة) أن يصبح وزيراً، فسار بجيش إلى القاهرة وضرب عليها الحصار، حتى اضطرّ الحافظ للرضوخ وتعيينه وزيراً، رغم أنّه لم يكن مسلماً حتى. وقد جاء من بعده «رضوان بن ولخشي»، إذ سار إلى القاهرة سنة 530 هـ فنجح بإزاحة بهرام، وأجرى الحافظ على تعيينه وزيراً جديداً، لكن نشب فيما بعد خلافٌ بينهما، فرجّ رضوان بالحافظ في السّجن مجدّداً وسيطر على الدولة الفاطمية لسبع سنين، وأخيراً نجح الحافظ بطرده وقتله سنة 542 هـ.

ونصّب الحافظ فيما بعدُ ابنه الحسن وزيراً، فأفسد في الدولة وقتل العديد من الأمراء، ثمّ تمرد على والده وخاض معه حرباً، لكن الحافظ فاز بالنّهاية، وظلّ خليفةً حتى وفاته سنة 544 هـ (1149م).

خط سير جيش الشام من دمشق إلى مصر ومعاركه مع الفاطميين والصليبيين.

في سنة 558 هـ - خلال عهد الخليفة الثاني عشر الظافر بدين الله - حدث أن طرد وزير للدّولة الفاطميّة يدعى شاور بن مُجير السعدي من مصر، فلبأ هذا الوزير إلى نور الدين محمود الزنكي حاكم دمشق، وطلب منه عوناً عسكرياً يمكنه من استعادة

السيطرة على مصر، شريطة أن يعطيه ثلث خراجها. ووافق نور الدين، فأرسل حملة بقيادة أسد الدين شيركوه تمكنت من السيطرة على الدولة الفاطمية سنة 559 هـ. إلا أن شاور نقض اتفاقه مع نور الدين، ولم يدفع له شيئاً من خراج مصر، فأرسلت حملة جديدة بقيادة شيركوه تمكنت من استعادة مصر سنة 562 هـ وكان ممن شاركوا في هذه الحملة صلاح الدين الأيوبي.

ولأنّ نجم صلاح الدين برز أثناء هذه الحملات وحروبٍ أخرى في الشام، فقد ضغط الزنكيون لتعيينه وزيراً بالدولة الفاطمية، وكان لهم ما أرادوه، فأصبح صلاح الدين وزيراً للخليفة الفاطمي الرابع عشر والأخير العاضد لدين الله.

خاتمة الدولة

يتولّى صلاح الدين منصب الوزارة في مصر، كآخر وزيرٍ سُنيّ في الدولة الفاطمية، وصل المنصب السنيّ الذي بدأه السلاجقة قبل نحو مائة سنة، وأكمّله ورثتهم الزنكيون، إلى مصر.

وجرى من الأحداث في مصر، بعد تولية صلاح الدين منصب الوزارة، أنّ البلاد كانت تجتاز مرحلة خطيرة في تاريخها. فالدولة الفاطمية لا زالت موجودة يُساندها الجيش الفاطمي وكبار رجال الدولة، والخطر الصليبي لا يزال قائماً على مقربة من أبواب مصر الشرقية، فكان عليه أن يُتَّهت أقدامه في الحكم، ليتفرَّغ لمُجابهة ما قد ينشأ من تطوراتٍ سياسية. ولم يلبث أن أظهر مقدرةً كبيرةً في إدارة شؤون الدولة، وهو عازمٌ على الاستئثار بكافة الاختصاصات حتّى التي تخص منصب الخِلافة، ونفَّذ عدّة تدابير كفلت له الهيمنة التامة، فاستمال قلوب سُكَّان مصر بما بذل لهم من الأموال والإصلاحات، فأخضع ممالك عمه أسد الدين شيركوه، وسيطر بشكلٍ تامٍّ على الجُند، بعد أن أحسن إليهم، وقوى مركزه بما كان يمدُّه به نور الدين محمود من المُساعدات العسكرية، وقد وصل أخوه شمس الدين توران شاه بن أيوب مع إحدى هذه المُساعدات.

وقد أدت التدابير التي نُفذها صلاح الدين إلى تقوية قبضته على مُقتدرات الدولة، وزادت من تراجع نُفوذ الخليفة العاضد لدين الله، وبالتالي مركز الإمامة، وأثارت استياء كبير الطواشيّة، مؤمن الخِلافة، وهو نوبي، وقائدُ الجُنْد السودان، وقد أدرك أن نهج صلاح الدين في الحُكم سوف يقضي، في حال استمراره، على الدولة الفاطميّة إن عاجلاً أو آجلاً، فحاول الاتصال بعمّوري الأوّل، ملك بيت المقدس، لتحريضه على مُهاجمة مصر، أملاً، في حال الاستجابة، أن يخرج صلاح الدين إلى لقائه، فيقبض هو على من يبقى من أصحابه في القاهرة، ويثب على منصب الوزارة. غير أن صلاح الدين علم بخيوط المؤامرة، فقبض على مؤمن الخِلافة وترقّب الفرصة للتخلّص منه، غير أن أبناء اهتزاز مركزه في مصر شجعت الصليبيين على القيام بمُحاولةٍ أُخرى لمُهاجمة البلاد.

حصار دمياط من قبل الأسطول الصليبي والبيزنطي.

رسم «صلاح الدين ملك مصر»، من مخطوطة كتابيّة تعود للقرن الخامس عشر الميلاديّ.

أدرك عمّوري الأوّل حُطورة الوضع بعد أن تمكّن نور الدين الزنكي من توحيد الشّام ومصر تحت سلطانه، وشعر الصليبيّون أنّهم وقعوا فعلاً بين فكيّ الكمّاشة، فحاول الملك عمّوري الإستعانة بالغرب الأوروبي، فراسل ملوك وأباطرة أوروبا الغربيّة يطلب منهم الإسراع بالقيام بحملةٍ صليبيّةٍ جديدةٍ تُنقذ الموقف الصليبيّ المتدهور في المشرق.

على أن الأوضاع السياسيّة في غربيّ أوروبا، آنئذٍ، لا سيّما فيما يتعلّق منها بالنزاع بين البابويّة والإمبراطوريّة الرومانيّة المُقدّسة، حالت دون تحقيق السفارة الصليبيّة أهدافها، فاضطرّ عمّوري الأوّل إلى الالتفات نحو الإمبراطوريّة البيزنطيّة طالباً مُساعدة قيصر الروم الإمبراطور عمانوئيل الأوّل كومنينوس. وكان الإمبراطور سالف الذكر أشد حماساً من الصليبيين لغزو مصر، ولم يكن أقل انزعاجاً لاتحاد الشّام

ومصر تحت راية الزنكيين، ما أدى إلى انقلابٍ خطيرٍ في توازن القوى بالشرق، فعرض على عموري الأول تعاون الأسطول البيزنطي في الحملة التالية، فوافق الملك على هذا الاقتراح، وتمَّ إعداد أسطولٍ عظيمٍ مُدجج بالرجال والسلاح، وأبحر من القسطنطينية مُتجهًا إلى دُمياط. كان صلاح الدين قد تلقى تحذيرًا مُبكرًا بالغ الكفاية عن الحملة، فاستعد لمواجهتها بأن حصن الإسكندرية والقاهرة وشحن بلبيس بالعساكر اعتقادًا منه أن هذه الحملة سوف تسيّر على درب الحملات السابقة، وبقي في القاهرة خشية قيام مؤامرة فاطمية ضده، وحتى يكفل الأمن لنفسه، أمر بإلقاء القبض على مؤمن الخلافة وإعدامه، ثمَّ عزل موظفي القصر من السودان المعروفين بولائهم للخليفة الفاطمي العاضد لدين الله، وأحل مكانهم رجالًا من أتباعه. عزَّ على الجُند السودانيين استبعادهم وضياع نُفوذهم، كما غضبوا لمقتل مؤمن الخلافة، فثاروا على صلاح الدين، لكنَّهُ تمكَّن من قمعهم وكسر شوكتهم، فاضطروا إلى طلب الأمان منه فأجابهم إلى ذلك.

تراوح موقف العاضد لدين الله الذي شهد هذه الأحداث بين الإحجام عن مُساعدة صلاح الدين وتأييد خطوته، وفقًا لتطور الأحداث. ذلك أنَّه ظنَّ في بادئ الأمر أنَّ الجُند السودانيين سوف ينتصرون، ويُنقذونه من قبضة صلاح الدين، فأمر من في القصر أن يقذفوا العساكر الشامية بالنشأ والحجارة. ولمَّا هُدَّد توران شاه، أخو صلاح الدين بإشعال النار بالقصر، لم يسعه إلا أن يُغيّر موقفه.

مُنمنة أوروبية للملك عموري الأول، ملك بيت المقدس وزعيم الحملة الصليبية - البيزنطية على مصر أواخر العهد الفاطمي.

وفي يوم 1 صفر 565هـ المُوافق فيه 25 تشرين الثاني (نوفمبر) 1169م، وصل الصليبيون والبيزنطيون إلى دُمياط، وما أن علم صلاح الدين بوصول القوَّات المُتحالفة إلى المدينة سألِفة الذِكر حتَّى أرسل إليها الرجال والسلاح والمؤن، كما أرسل عددًا من السفن الحربيَّة اتخذت طريقها نحو الشمال في فرع دمياط من نهر النيل،

وبعث في الوقت نفسه رسالة إلى نور الدين محمود الزنكي في دمشق يُخبره بما حدث، ويلتمس منه المساعدة، فسُرَّ إليه نور الدين العساكر تباغًا، كما قام بالإغارة على مواقع الصليبيين في الشام لتخفيف الضغط عن دُمياط. وعلى الرُغم من الاستعدادات الكثيرة والتحضيرات الكثيفة، فشلت الحملة المشتركة في تحقيق أي هدفٍ من أهدافها لعدَّة عوامل، فقد دافعت حامية دُمياط عن المدينة بشراسة، وتراجع مخزون المؤن البيزنطي بسبب طول الرحلة من القُسطنطينية، وفشل الأسطول في دخول فرع دُمياط بقدرٍ يسمح له بمهاجمة المدينة، فعجز عن تقديم المساعدة العسكريَّة المطلوبة للقوات الصليبيَّة البريَّة، وهبَّت عاصفة شديدة مصحوبة بأمطارٍ غزيرة أغرقت المعسكر الصليبي وحوَّلتَه إلى مُستنقع، فاستغلَّ المسلمون هذا وانقضوا على الأسطول وأنزلوا به خسائر فادحة، فاضطرَّ الملك الصليبي وقيصر الروم أن يطلبوا الصلح، وانسحبوا عائدنين إلى بلديهما يوم 28 ربيع الأوَّل 565هـ. المُوافق فيه 12 كانون الأوَّل (ديسمبر) 1169م، أي بعد أن مكثا بجيوشهما أمام دُمياط أكثر من خمسين يومًا.

بعد هذا النصر، أرسل نور الدين الزنكي إلى صلاح الدين يطلب منه أن يقطع الخُطبة للفاطميين فورًا ويرُجعها للخليفة العبَّاسي، فاعتذر له بالخوف من وثوب أهل مصر وامتناعهم عن الاستجابة إلى ذلك لميلهم إلى العلَّوين، إذ أنَّ المؤثرات الشيعيَّة في مصر كانت قويَّة في ظل الحُكم الفاطميِّ الذي استمرَّ قرنين من الزمن.

لكنَّ نور الدين أصرَّ على تابعه أن يفعل ذلك في سبيل تحقيق الوحدة الإسلاميَّة والاستفادة من إمكانات مصر الاقتصاديَّة والبشريَّة في الجهاد ضدَّ الصليبيين، وأرسل إليه إنذارًا نهائيًّا في شهر ذي الحجَّة سنة 566هـ المُوافق فيه شهر آب (أغسطس) سنة 1171م يأمرُه بإسقاط الخُطبة للخليفة الفاطميِّ العاضد، وإقامتها للخليفة العبَّاسيِّ أبو مُحمَّد الحسن بن يُوسُف المُستضيء بأمر الله، وألزمه إزامًا لا تُسحَّة له في مُخالفته.

ورأى صلاح الدين أن يستجيب لطلب سيده في دمشق نظرًا لأن الغالبية العظمى من سُكَّان مصر لم تتشجع، ولأنَّ الدولة الفاطميَّة أصبح من الواضح أنها تلفظ أنفاسها الأخيرة، ولم يعد لديها القدرة على التحرك بعد القضاء على الجُند السودان. وجاءت الخُطوة الحاسمة يوم 7 مُحَرَّم سنة 567هـ المُوافق فيه 10 أيلول (سبتمبر) سنة 1171م، عندما قطع صلاح الدين الخُطبة بمصر للخليفة الفاطمي وأقامها للخليفة العبَّاسي، وأعاد السُّود شعارُ العبَّاسيين.

وقد تمَّ هذا التحوُّل بُهدوء تام، وبذلك عادت مصر إلى كنف الدولة العبَّاسيَّة، وأعيدت الوحدة المذهبيَّة في الشرق الأدنى. وكان العاضد لدين الله أثناء ذلك مريضًا يحتضر، فلم يشأ صلاح الدين إزعاجه ومُضاعفه همَّه، فأمر رجاله بالألَّا ينهوا إليه بالأنباء.

ولم تكد تمضي أيَّام على قطع الخُطبة للفاطميين حتَّى توفي الخليفة العاضد لدين الله، فكانت تلك نهاية الدولة الفاطميَّة فعليًا، فزالَت من الحياة السياسيَّة بعد أن دامت 262 سنة.

بداية النهاية للخلافة الفاطمية في مصر

كانت هذه الفترة من أسوأ الفترات السياسية في تاريخ مصر الإسلامي، فقد أصبح الخليفة الفاطمي يشارك في مؤامرات و دسائس ضد وزرائه للتخلص منهم و ذلك لضعفه و عدم قدرته علي عزلهم بنفسه، فوجد أن كل الأطراف كانت تتآمر ضد كل الأطراف و لا يخجل أي طرف من أن يتقوي بالصليبيين ضد منافسه ، مما أدي إلي تحريك أطماع الصليبيين في الإستيلاء علي مصر . ولكن لحسن القدر تحركت أيضاً رغبات نور الدين محمود في ضم مصر إلي الشام في جبهة واحدة ضد الصليبيين كان نور الدين قد نجح في توحيد معظم مدن و إمارات الشام تحت إمرته و أصبح يوجه للصليبيين ضربات موجعة.

ظهر ضرغام أبو الأشبال، أمير فرقة من الجند المغاربة تخدم في مصر ، كمنافس لساور علي كرسي الوزارة زمن الخليفة العاضد .

و استطاع ضرغام خلع ساور من وزارة مصر بمساعدة الخليفة الفاطمي. فما كان من ساور إلا أن هرب إلي الشام و استنجد بنور الدين محمود زنكي ليعيد إليه الوزارة، و وعده بثلث خراج (إيراد) مصر، و أن يمنح جنده إقطاعات يقيمون فيها في مصر.

بعد فترة من التردد وافق نور الدين محمود زنكي علي مساعدة ساور لاستعادة الوزارة في مصر شريطة أن يعترف ساور بسيادة نور الدين علي مصر. و كان نور الدين يرغب في تحويل مصر إلي المذهب السني و توحيد مصر و الشام ضد الصليبيين.

أرسل نور الدين محمود قائده أسد الدين شيركوه علي رأس جيش إلي مصر. و أصطحب أسد الدين معه ابن اخيه صلاح الدين الأيوبي الذي كان في الخامسة و العشرين من عمره آنذاك .

تقابل جيش شيركوه و جيش ضرغام عند القاهرة، و استطاع شيركوه أن يهزم قوات ضرغام و يقتله، و يعيد ساور إلي الوزارة ، و لكن ساور نكث بعهده و رفض الاعتراف بولائه لنور الدين محمود، و طلب من شيركوه أن يعود إلي الشام، و لكن شيركوه توجه بجيشه إلي مدينة بلبس في دلتا مصر و تحصن بها ضد ساور.

فأرسل ساور هذه المرة إلي اموري (Amalricus) ملك بيت المقدس الصليبي ليساعده في التخلص من أسد الدين شيركوه، و كان سقوط عسقلان في غزة، بوابة مصر الشرقية ، في يد الصليبيين قد أغري أموري ملك بيت المقدس بالاستيلاء علي مصر لتصبح أحد الممالك الصليبية، إلي جانب أنه أراد أن يمنح نور الدين من أن يوحد الشام و مصر ضد الصليبيين. و مما يؤكد ذلك قول المؤرخ الصليبي وليم

الصوري " لن تنعم القدس بالأمان إلا إذا استمر العداء بين القاهرة و دمشق ". فوافق أموري و سار بجيش إلي مصر و حاصر شيركوه في بلبيس ثلاثة أشهر. و في النهاية قبل شيركوه الخروج كمن مصر مقابل خروج الصليبيين أيضاً.

و الحقيقة أن ما دفع الصليبيين إلي الموافقة علي الخروج من مصر هو أن نور الدين محمود في الشام عمد إلي الإغارة علي قلاع و مدن مملكة بيت المقدس، و سقط العديد منها في قبضته، ثم أرسل أعلام هذه المدن والقلاع التي غنمها لتنتشر علي أسوار بلبيس. فلما رأي أموري ذلك انزعج بشدة ، فوافق علي الخروج من مصر ليسرع بالعودة إلي مملكته.

و لكن شيركوه الذي رأي ضعف مصر و هوان الخلافة الفاطمية، عاد يلح علي نور الدين ليرسل حملة أخرى إلي مصر. فوافق نور الدين، و بعد سنتين أي عام 1167 م / 562 هج، أرسل جيشاً آخر إلي مصر بقيادة شيركوه و معه صلاح الدين مرة أخرى.

ومرة أخرى استنجد شاور بأموري ملك بيت المقدس الصليبي، و لكن شيركوه كان الأسرع هذه المرة و وصل إلي القاهرة قبل أن يعترضه جيش أموري. و تقابل عند النيل جيش شيركوه علي ضفة و جيش أموري و شاور علي الضفة الأخرى و صد شيركوه محاولتهم عبور النيل ، و تظاهر بالانسحاب جنوباً فتبعه أموري فاطبق عليه جيش شيركوه و نجا أموري بحياته بأعجوبة في مكان اسمه البابين جنوب المنيا الحالية. و فرت جيوش شاور و أموري إلي القاهرة.

و بعد هزيمة أموري و شاور لم يتجه شيركوه لدخول القاهرة، و لكنه بدلاً من ذلك اتجه إلي الاسكندرية ليفتحها، و كان أهل الاسكندرية يكرهون شاور لتحالفه مع الصليبيين. و لكن شيركوه وقع في فخ نصبه له أموري الذي حاصره في الاسكندرية بمساعدة أسطول الصليبيين.

استطاع شركوه أن ينسل بجيشه خارج الإسكندرية و ترك حامية مكونة من ألف رجل يقودها صلاح الدين الأيوبي لتواجه حصار جيش أموري و شاور. حاول شاور أن يفاوض أهل الاسكندرية ليسلموا له صلاح الدين مقابل فك الحصار و لكنهم رفضوا أن يسلموا صلاح الدين للخائن شاور لأن معه الصليبيين.

دام حصار الاسكندرية و الحامية أربعة أشهر و اضطر شركوه أن يدخل في مفاوضات مع اموري لفك الحصار.

و تم الاتفاق علي أن ينسحب أسد الدين شركوه بجيشه من مصر و أن تدفع الضرائب من مصر لأموري ملك بيت المقدس في مقابل جلاء القوات الصليبية عن مصر.

و كانت هذه المفاوضات هي أول اتصال مباشر بين صلاح الدين و الصليبيين و يحسب لصلاح الدين أنه أدار المفاوضات بمهارة و حصل علي جلاء الصليبيين عن مصر.

و يقول صلاح الدين عن فترة حصاره في الاسكندرية ” و الله لو أعطيت ملك مصر ما سرت إليها، فلقد قاسيت بالاسكندرية من المشاق ما لا انساه أبداً. “ كان في ذلك الوقت لا يدري أن ملك مصر سيصير إلي بعد سنتين بلا عناء.

أسد الدين شركوه يتولى وزارة مصر و بداية الحكم الأيوبي

لم يتخل أموري ملك بيت المقدس عن حلمه بالاستيلاء علي مصر ، و لكنه أدرك أنه لن يتمكن من مواجهة جيوش نور الدين محمود وحده . لذلك سعي إلي عقد صفقة مع الامبراطور البيزنطي ليتقاسما مصر بينهما علي أن يمده الامبراطور البيزنطي بجيش يسانده.

سار أموري بجيشه إلي مصر عام 1168 م بدعوي أن شاور لم يدفع له الضرائب المتفق عليها ، و هزم الجيش الفاطمي بقيادة شاور في بلبيس و سار إلي القاهرة.

استنجد شاور بنور الدين محمود لينقذه من الصليبيين هذه المرة . قدر نور الدين خطورة سقوط مصر في يد الصليبيين. فقرر إرسال حملة ثالثة بقيادة شيركوه و صلاح الدين هذه المرة ليتخلص نهائياً من شاور والحكم الفاطمي و التهديد الصليبي و يضم مصر إلي الشام تحت امرته.

أصبح شاور يانسأ من مواجهة الهزيمة علي يد الصليبيين و جيش شيركوه ، فعمد إلي اللعب علي الطرفين حيث قام بدفع ثلث ريع (أجمالي الناتج المحلي) مصر إلي نور الدين محمود ليحميه من الصليبيين ، و في نفس الوقت قام بتحذير أموري من قدوم جيش نور الدين ليكسبه في صفه.

ثم قرر شاور حرق مصر (الفسطاط) لعرقلة دخول الصليبيين القاهرة ، وأمر أهل الفسطاط بتك بيوتهم و محالهم و الانتقال إلي القاهرة التي بناها المعز، و قام بإحراق الفسطاط عن آخرها، و ظلت النار مشتعلة فيها 54 يوماً، و كان الدخان يري علي مسيرة 3 أيام ، و بذلك ضاع كل أثر للفسطاط التي بناها عمرو بن العاص و لم يبق منها إلا جامع عمرو بن العاص.

عندما سار جيش الصليبيين بقيادة أموري لاعتراض جيش شيركوه ، استطاع شيركوه الماكر بقواته السريعة أن يفلت منهم و أن يدخل القاهرة في 6 من ديسمبر 1168 م بدون أدني مقاومة. و كانت هذه المفاجأة كافية لأموري الذي وجد نفسه أمام جيوش مصر الفاطمية و جنود نور الدين من الشام و قد اتحدت ضده، فقام بسحب جيشه من مصر و عاد إلي بيت المقدس و قد ضاع حلمه بالاستيلاء علي مصر.

أصبح شركوه الحاكم الحقيقي لمصر ولكنه لم يعزل الخليفة الفاطمي ، فقد كان الخليفة الفاطمي مريضاً مرضاً لا يرجي شفاؤه ، فأثر شركوه أن يتركه يموت في سلام.

انحني شاور أمام شركوه ليسترضيه و كان يأتيه بالهدايا كل يوم ، و لكن صلاح الدين أصر علي قطع رأس شاور الخائن المستبد ، و قام بالقبض عليه و قتله بعد موافقة الخليفة العاضد، و فرح المصريون فرحاً عظيماً بمقتل شاور الخائن.

صلاح الدين الأيوبي يتولى حكم مصر

بعد تعيينه بشهرين وزيراً علي مصر توفي أسد الدين شركوه، و خلفه ابن أخيه صلاح الدين الأيوبي علي وزارة مصر في 26 مارس عام 1169م / 25 جمادى الآخر 564 هج، وكان عمر صلاح الدين وقتها لا يزيد عن اثنين و ثلاثين عاماً.

من الآن فصاعداً انتقل مركز القوي للعالم الاسلامي إلي مصر و استمر فيها إلي أن هزم العثمانيون الأتراك سلاطين المماليك و نقلوا هذا المركز إلي اسطنبول بعد 350 سنة.

أرسل نور الدين محمود إلي صلاح الدين يأمره أن يقوم بتحويل البلاد إلي المذهب السني و الدعاء للخليفة العباسي في خطبة الجمعة بدلاً من الخليفة الفاطمي، و لكن صلاح الدين استمهله حتي يتوفي الخليفة العاضد المشرف علي الموت.

و لكن نور الدين رفض التأجيل و خشي أن يكون صلاح الدين يماطل فهدده أنه سوف يسير إليه بحملة ، و أرسل إماماً سنياً من الموصل إلي مصر في 10 سبتمبر 1171 م ، فاعتلي المنبر في مسجد القاهرة و دعي إلي الخليفة العباسي بدلاً من الخليفة الفاطمي.

بعد ذلك أمر صلاح الدين بالدعاء للخليفة العباسي في خطبة الجمعة ، و لكنه أخفي ذلك عن

الخليفة الفاطمي العاضد و قال ” دعوه يموت في سلام “

توفي الخليفة العاضد في 10 محرم عام 567 هـج. / 1171 م وهو الخليفة الفاطمي الرابع عشر و آخر الخلفاء الفاطميين و انتهت بموته الخلافة الفاطمية في مصر و التي استمرت حوالي 200 عام .
تولي صلاح الدين حكم مصر منفرداً بعد وفاة الخليفة العاضد و لقب بالسلطان الناصر صلاح الدين و حكم مصر 22 عاماً تقريباً.

بعد تولي صلاح الدين حكم مصر منفرداً، طلب منه نور الدين محمود أن ينضم إليه في هجومه الكبير علي الكرك ، و لكن صلاح الدين لم يكن في عجلة من أمره و أراد أن يرتب أموره الداخلية أولاً، فاعتذر عن المشاركة في الهجوم و تعلل بمرض والده.

كان علي صلاح الدين أن يتصدي أولاً للفتن الداخلية التي كانت تحاك ضد دولته الوليدة ، و منها محاولة بعض الشيعة العلويين إعادة الخلافة الفاطمية الشيعية و منهم عمارة اليمني شاعر الفاطميين ، فتآمروا ضد صلاح الدين و اتصلوا بملك صقلية النورماندي و دفعوا إليه بالأموال ليهاجم الشواطئ المصرية بسفنه ، حتي إذا خرج صلاح الدين من القاهرة ليتصدي لهجومه يقوم المتآمرون بالوثوب علي بقية جنده في القاهرة و يعيدوا الخلافة الفاطمية. و لكن صلاح الدين علم بمؤامرتهم فبعث ممدد للحامية العسكرية في الاسكندرية ليصد الهجوم الصليبي، و قبض علي مدبري الانقلاب و أعدمهم و منهم عمارة اليمني.

المصادر والمراجع

المراجع العربية :

- 1- تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمه، للدكتور/ عبد الحليم منتصر، دار المعارف، القاهرة، الطبعة العاشرة، (2001).
- 2- فخر العلم الحديث (الإسلام - الصين - الغرب)، تأليف توبي أ. هاف، ترجمة د. أحمد محمود صبحي، عالم المعرفة، 219، الكويت، (1997).
- 3- شمس الله تشرق على الغرب (فضل العرب على أوروبا) تأليف الدكتورة/ سيجريد هونكه ترجمة الدكتور/ فؤاد حسنين علي، دار العالم العربي، الطبعة الأولى، (2008).
- 4- موسوعة علوم وعلماء العرب والمسلمين، للدكتور/ عبد العزيز يوسف الأحمد، الطبعة الأولى، الكويت، (2006).
- 5- كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، المعروف بالخطط المقرئية، تأليف تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي المقرئ، المتوفى سنة 845هـ الهيئة العامة لقصور الثقافة (4 أجزاء)، الجزء الأول، القاهرة (1999).
- 6- العلوم والمعارف الهندسية في الحضارة الإسلامية، للأستاذ الدكتور جلال شوقي، سلسلة التراث العلمي العربي، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، الطبعة الأولى (1995).
- 7- تاريخ العلوم العربية وتحديث تاريخ العلوم، بحث في إسهام رشدي راشد، تأليف الدكتور وائل غالي، سلسلة العلوم والتكنولوجيا، مكتبة الأسرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة (2005).
- 8- الإسلام والعلم - الأصولية الدينية ومعركة العقلانية، تأليف برونز أمير علي بهائي بيود، ترجمة محمود خيال، المشروع القومي للترجمة، العدد 898، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة (2005).
- 9- ابن رشد - فيلسوف عربيّاً بروح غربية، للدكتور عاطف العراقي، دار مصر المحروسة، القاهرة (2008).
- 10- ابن رشد - فيلسوفاً معاصراً، للدكتور بركات محمد مراد، مصر العربية للنشر والتوزيع، القاهرة (2002).

- 11- ابن رشد في مصر، للدكتور وائل غالي، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة (1999).
- 12- المغاربة والأندلسيون في مصر الإسلامية - من عصر الولاة حتى نهاية العصر الفاطمي، للدكتور أحمد عبد اللطيف حنفي، تاريخ المصريين، العدد 244، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة (2005).
- 13- الدولة الفاطمية، للدكتور علي محمد الصلابي، مكتبة الإيمان، المنصورة، مصر، الطبعة الأولى (2005).

المراجع الأجنبية :

- 1- Historical Supernovae and Their Remanents, by F. Richard Stephenson and David A. Green, Oxford, (2002).
- 2- The Exploding Suns, The Secret of the Supernovas, by Isaac Asimov, (1994).
- 3- The historical supernovae, by Clark, D.H., and F.R. Stephenson Oxford, Pergamon Press, (1977).
- 4- Supernovae and their Remanents, by Richard McCray, JILA, University of Colorado, USA. Frontiers of Astronomy School/Workshop 22 March - 6 April 2006 (Total Solar Eclipse 29 March 2006). Bibliotheca Alexandria, Alexandria, Egypt. Invited Lecture.

المحتويات

7	المقدمة
9	الباب الأول:أصول الدولة الفاطمية
21	الباب الثاني:البدايات وقيام الدولة
21	الفكر والدعوة
23	داعية الباطنية في الشمال الإفريقي
23	أبو عبد الله الشيعي
29	عبيد الله المهدي الخليفة الشيعي الرافضي الأول
32	ثورة قبيلة هواة في طرابلس
33	زحف العبيدين على برقة
43	عبيد الله المهدي والنشأة
44	مقتل أبي عبد الله الشيعي
44	القضاء على الأدارسة
44	ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد
45	إخضاع المغرب للسيطرة العبيدية (الفاطمية)
46	صعود الفاطميين
46	الدولة الفاطمية في أقصى اتساعها
46	الفاطميون في أفريقيا
52	قيام الدولة مرة اخرى
52	المستنصر يحكم لمدة ستين عاماً

- 53.....انكماش سلطان الفاطميين و الشدة المستنصرية
- 54.....الوزير بدر الجمالي
- 55.....أعمال بدر الجمالي في مصر
- 59.....ملاحم الدولة الفاطمية
- 60.....الأدب والعلوم في العصر الفاطمي
- 60.....العلماء والأدباء
- 61.....الشعر
- 63.....الفقهاء
- 64.....المكتبات في عصر الدولة الفاطمية
- 64.....العمارة
- 64.....الجامع الأزهر، من أشهر معالم القاهرة الإسلامية
- 65.....آثار الدولة الفاطمية
- 66.....الفلك والمرصد الفلكية في مصر الفاطمية الإسلامية
- 70.....الوزارة
- 71.....القضاء في الحكم الفاطمي
- 71.....النظام العسكري
- 73.....العلاقات مع دُول الجوار
- 73.....مع الدولة الحمدانيّة
- 74.....مع الدولة الأمويّة الأندلسيّة
- 76.....مع الدولة العبّاسيّة

- 77..... مع الدولة القرمطية:
- 79..... مع الدولة السلجوقية:
- 80..... مع الإمبراطورية البيزنطية:
- 82..... مع مملكة بيت المقدس:
- 83..... مصر الفاطمية الإسلامية :
- 83..... أحوال مصر عند الفتح الفاطمي
- 84..... الفتح الفاطمي لمصر
- 85..... أعمال جواهرالصقلي في مصر
- 86..... نشر المذهب الشيعي
- 86..... الجامع الأزهر بالقاهرة
- 87..... ضم الشام و فلسطين لسلطان الفاطميين
- 89..... ابن يونس المصري :
- 90..... حسن بن الهيثم في مصر الفاطمية :
- 93..... قدسية ثبات الكون في فكر العصور الوسطى :
- 95..... سوبر نوحا علي بن رضوان :
- 99..... الظاهرة في ضوء علم الفلك الحديث :
- 100..... المراصد الفلكية في مصر الفاطمية الإسلامية :
- 104..... المجتمع والثقافة
- 104..... الحياة الاجتماعية
- 105..... الحياة الفكرية والعلمية:

- 111.....الحياة الاقتصادية.
- 113.....الحياة الدينية:
- 115.....خلفاء الفاطميين
- 118.....ال خليفة الثاني: القائم بأمر الله
- 119.....ال خليفة الثالث: المنصور بالله الفاطمي
- 119.....ال خليفة الرابع: المعز لدين الله
- 119.....ال خليفة الخامس: العزيز بالله الفاطمي
- 123.....ال خليفة السادس: الحاكم بأمر الله المنصور
- 130.....ال خليفة السابع: الظاهر لإعزاز دين الله
- 133.....ال خليفة الثامن: المستنصر بالله الفاطمي
- 137.....ال خليفة التاسع: المستعلي بالله
- 138.....ال خليفة العاشر: الامر بأحكام الله
- 139.....ال خليفة الحادي عشر: الحافظ لدين الله
- 140.....ال خليفة الثاني عشر: الظافر بدين الله
- 141.....ال خليفة الثالث عشر: الفائز بدين الله
- 141.....ال خليفة الرابع عشر: العاضد لدين الله
- 145.....الباب الثالث
- 145.....الفاطميون في مصر
- 147.....محاولات العبيديين الفاطميين لفتح مصر
- 149.....قيام الدولة العبيدية (الفاطمية) في مصر

149	الفاطيون ومصر.....
149	حالة مصر الداخلية قبل الفاطميين.....
150	مقدمات دخول الفاطميين مصر.....
150	استيلاء الفاطميين على مصر.....
150	الفاطيون و القاهرة.....
150	الأزهر بالقاهرة.....
152	دور المعز لدين الله.....
153	ولاية الامام المعز لدين الله.....
153	قصة نقل المقطم.....
156	بناء القاهرة والجامع الأزهر.....
156	محاولة نشر المذهب الشيعي.....
159	ظهور فرقة الدرزية.....
159	عهد المستنصر العبيدي (الفاطي).....
161	المستنصر بالله والشدة المستنصرية.....
161	ال خليفة المستنصر بالله العبيدي.....
162	أحداث خلافة المستنصر.....
163	الشدة المستنصرية.....
166	بدر الدين الجمالي والخروج من الأزمة.....
168	وفاة المستنصر بالله.....
168	الدولة الفاطمية و الحرب مع الروم البيزنطيين.....

- 173..... الباب الرابع:التوسع و عصرها الذهبي
- 175..... التوسع والفُتوحات
- 178..... المزايا السياسية و الفكرية لنظام الدولة الفاطمية.
- 181..... الحركة الفكرية و العلمية في ظل الفاطميين
- 185..... أحوال مصر عند الفتح الفاطمي
- 186..... تفاصيل الفتح الفاطمي لمصر
- 187..... أعمال جواهر الصقلي في مصر
- 189..... ضم الشام و فلسطين لسلطان الفاطميين
- 189..... قدوم المعز إلى مصر و تحولها إلى مركز الخلافة
- 191..... القاهرة المعز
- 192..... الازدهار في مصر
- 192..... تاريخ بناء الأزهر
- 198..... مسجد الحاكم بأمر الله أحد معالم العصر الذهبي للدولة الفاطميّة بالقاهرة.
- 200..... عصر نفوذ الوزراء وإلغاء الخلافة العبيدية
- 200..... العصر العبيدي (الفاطمي) الثاني
- 200..... الخليفة المستعلي الفاطمي و بداية العصر الفاطمي الثاني
- 201..... الخليفة الأمر بأحكام الله الفاطمي
- 202..... الخليفة الحافظ لدين الله الفاطمي
- 202..... الخليفة الظافر الفاطمي
- 203..... الخليفة الفائز بنصر الله الفاطمي

- 204.....الخليفة العاضد بالله الفاطمي و نهاية الخلافة الفاطمية.....
- 205.....ظهور طائفة الإسماعيلية النزارية.....
- 206.....عصر نفوذ الوزراء.....
- 207.....حملات نور الدين محمود إلى مصر.....
- 209.....اختيار صلاح الدين وإلغاء الخلافة العبيدية الفاطمية.....
- 211.....الباب الخامس:الأقول والإرث.....
- 213.....الانحسار.....
- 216.....خاتمة الدولة.....
- 217.....حصار دمياط من قبل الأسطول الصليبي والبيزنطي.....
- 220.....بداية النهاية للخلافة الفاطمية في مصر.....
- 223.....أسد الدين شركوه يتولى وزارة مصر و بداية الحكم الأيوبي.....
- 225.....صلاح الدين الأيوبي يتولى حكم مصر.....
- 227.....المصادر والمراجع.....

يبحث هذا الكتاب في موضوع الدولة الفاطمية، فيبدأ بجذور النسب الفاطمي،
ثم فكرهم ودعوتهم وقيام دولتهم. يبحث تتابع خلفائها وعلاقاتها مع دول
الجوار، وحضارتها، إلى مجيء صلاح الدين وتولية حكم مصر.



مركز الكتاب الأكاديمي



عمّان-وسط البلد-مجمع الفحيص التجاري

ص. ب. : 11732 عمّان (1061) الأردن

تلفاس: 96264619511، موبایل: 962799048009

الموقع الإلكتروني: www.abcpub.net

A.B.Center@hotmail.com / info@abcpub.net